الشعر والثورة

مثلما كان مقال د . جمال حمدان عن حرب رمضان كاشفاً عن الطبيعة الثورية التثويرية لهذه الحرب ولانخراط العرب في الصراع التحرري ضمن حدود عالم القوة المتغير، تأتي في هذا العدد دراسة الأستاذ أنطون مقدسي لتلقي الضوء على الانسان العربي ودوره في هذا الصراع – وبالذات الانسان العربي الفلسطيني من حيث هو كائن معبر .

والاحتفال بالشعر الفلسطيني ،سواء على المستوى العربي أم العالمي، ليس احتفالا ببدعة أدبية ولا بعبقرية مبدعة . انه احتفال بميلاد وعي ، شعب ، أمة . فالأمم تتكون ذواتها من أساطير وتواريخها من ملاحم . والأمة حين تمتلك ذاتها وبيئتها بالمعرفة والخيال تكون قد وضعت المقدمة والأساس لامتلاك ذاتها وبيئتها عن طريق القوة والفتح - تشهد بذلك كل المذاهب الكلاسية في تواريخ آداب الأمم فالمعرفة الشعرية هي أول الحدس لامتلاك أسباب البقاء والتحرير .

ويخيل إلي أن هذا هو ما يعنيه الأستاذ مقدسي في بحثه التأملي حين ينص صراحة على نتائج ثلاث يجعلها محور البحث كله ، وهي أن معالجة الانسان معالجة للواقع ، وأن لساناً جيداً هو رؤية جديدة أو مستقبل جديد يفترض ماضياً هو اياه وغيره ، وأن الحدث الشعري يستدعي تغييراً جذرياً في الوجود التاريخي للانسان ، بل هو هذه الاستحالة .

وهذا البحث التأملي الذي يقدمه أستاذنا المقدسي يقف في قوته الفكرية على صعيد واحد مع الحدث الشعري موضع البحث ،ويشكل هو والشعر والحرب ودراسة د . جمال حمدان صوى تدل دلالة مبينة على عمق التغير الجذري الذي يجتازه العقل العربي في مواجهة الأحداث التاريخية انفعالاً وتفاعلاً ورؤية ورؤيا .إلا أن هذه الأمور كلها لا يمكن أن يقوم بها إلا عربي ،إذا كان تقصي التغيرات الاقتصادية والمالية والصناعية والزراعية في الوطن العربي من شأن الباحثين والمراقبين ودوائر الاستخبارات الأجنبية. فوعينا بذاتنا وصورتنا عن ذاتنا من شأننا حصراً ، بمقدار ما تكون الصورة فاعلة في النفس وفي الجماعة .

---

(١) « مستقبل الصراع العربي – الاسرائيلي بعد ٦ أوكتوبر » د. جمال حمدان . المعرفة ، العدد ١٤٥ ، آذار ١٩٧٤ .

وليس كالشعر الفلسطيني مرآة انعكست فيها صورة الأمة عن نفسها وواقعها وتاريخها وتطلعاتها وعلاقاتها الداخلية بين أجزائها . ففي فترة الانتداب تعاونت بريطانيا والحركة الصهيونية على استلاب الشعب وقمعه ، فظهرت صور ذلك في الشعر ، من بيع أراض وثورات وتضحيات . وفي فترة الشتات تميز هذا الشعر بأنه مجادلة بين الأشقاء ، كل يلقي اللوم على صاحبه في النكبة وماتلاها . ولابد من تسجيل أن الصوت الفلسطيني والصورة الفلسطينية قد تبلورا في شعر الشتات أكثر من أي شيء آخر ، سوى أنها كانت صورة جريحة محاجة وداعية إلى الانتقام . هي صورة لم فتحته الدهشة وحشرج فيه الصراخ .

قبيل هزيمة حزيران بدأ صوت جديد يغزو الشعر العربي والعالمي ، صوت مفعم بالتحدي والحنين والرؤى . وكان ذلك الجديد صوت الجماعة العربية التي أريد سلخها عن جسم الأمة ، شأنها شأن الأرض المستلبة سواء بسواء . ولم يكن هذا الصوت غريباً على مسامع من يعرفون المقامات والأنغام التي ينطلق منها الشعر العربي . ففي شعر المهجر وشعر الموشحات مشابهات لشعر العرب في الأرض المحتلة . الحنين في هذه النماذج واحد : هو حنين الجماعة العربية المعزولة عن أمها وغلافها الحضاري ، وتربتها أيضاً . ذلك أن العرب تعودوا أن يكونوا أمة واحدة بمعنى التواصل الفكري والجسدي ، وليس بالمعنى السياسي الحديث للدولة القومية . وفي كل مرة يمنعون من مزاولة هذا التواصل ينفجر في شعرهم حنين لا قبل للقلب الانساني على تحمله . ومع انفجار الحنين تتفجر البنية الأساسية للمجتمع العربي ويدخل التاريخ منعطفاً جديداً .

* * *

لقد عهدت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إلى د. حسام الخطيب والأستاذ أنطون مقدسي وكاتب هذه السطور بوضع مختارات من الشعر الفلسطيني بغية ترجمتها الى عدد من اللغات المعاصرة . وقد احسسنا خلال عملنا المشترك بكل هذه الملاحظات ـ بل النا شعرنا في مرحلة من مراحل العمل أننا يجب أن نتريث ، أو نتوقف ، لأن هذا الشعر قاله الفلسطينيون يخاطبون به العرب . فما رموز السلطان والأب والقاموس التي يحللها الأستاذ المقدسي في مقدمته سوى رموز عربية ذات مضمون عربي بالدرجة الأولى . اذ ليس وراء الحدود القومية أي خلاص يرتجى . غير أننا تابعنا العمل ايماناً منا بأن الحوار القومي حوار انساني في وسيلته وغايته ومرحلته . ثم جاءت مقدمة أستاذنا أنطون مقدسي لتجعل من هذا الحوار احدى ظواهر العصر .

رئيس التحرير

الدكتور رفيق جويجاتي

العرب

أمام الانفراج الدولي

من باب التمهيد الضروري والمفيد للبحث أن نكون منذ البدء على بينة مما نبحث. كان استاذنا في العلاقات الدولية في جامعة لندن البروفسور كيتون، عندما يتشعب البحث، وقد يفقد حلقاته، يبادر للتساؤل : ماهو الموضوع De quoi s'agit - il ويتعمد النطق بها بالفرنسية لما فيها من أحكام المعنى .. وحري بنا أن نسأل ونحن

نتحدث عن الانفراج « ماهو الموضوع ؟ » ازعم أننا نقصد بالانفراج من يدل عليه معناه اللغوي الصرف . خير مايمثله بالعربية هذا الشطر من الشعر الكثير الشيوع ، الغني بمجالات التطبيق ، القليل الألفاظ البليغ المعنى : اشتدي أزمة تنفرجي وشطره الثاني قد آذن ليلك بالبلج .

لكم كان هذا الشطر باعثاً فينا بارقة من أمل عندما يخيم علينا يأس أو نجنح لقنوط ، في غمرة مآسينا الخاصة ، أو كوارثنا القومية .

فهناك أزمة في الأصل ، وهناك صعود في اشتدادها ، ثم يتبعه تراخ فيها دونما اشارة الى أنها شارفت على حل ، موقتاً كان أم جذرياً .

التركيز على التراخي Relaxation لا على الحل الأخير Donouement والاسبانية تعتمد للانفراج تعبير Relaxacion . ولنكرر بعبارات أخرى أن هناك توتراً Tension وانفراجاً Dotente ولعل الحرص على الحفاظ على معنى الـ Détente هو الذي يدفع بالناطقين باللغات الاخرى الى تبني الاصطلاح الفرنسي نفسه للاعراب عن الانفراج واذا لم يفعلوا رأيتهم يذكرون اصطلاحهم اللغوي ثم يتبعونه بكلمة Détente كأنهم يتذرعون بها لمزيد الدقة وتجويد الاشارة وتجنب سوء التفاهم .

هذا الجذر اللاتيني Tendere يدخل كما تعلمون في مجموعة من المفردات تضاف اليه قبله أو بعده الادوات المبينة لفروق المعاني . الانتظار Attendre و Attente الانتباه Attention . الحبيب ينتظر حلول موعد حبيبته ويكون على حالة من التوتر ، حتى تصل اليه فيتراخى توتره ، ولكنه لايحل حتماً مشكلة الحب . ان جاز تسمية الحب مشكلة ، بل قد يبدأ هذا اللقاء أحياناً سلسلة من مشاكل لاتعد ولا تحصى ، فتكون مشاكل بالمعنى الصحيح .

غير أن هذا اللقاء قد يسفر عن تصد للمشاكل ، وقد تتفتق عبقرية الحبيبين عن ايجاد مجموعة من العوامل المشتركة يستعينان بها على الحل فيكون هذا التوتر والانتظار Tonsion et Attente ثم هذا التراخي والانفراج Relaxation et Détento قد قادا الى Entente تفاهم . ان السماع فيه توتر لأنه يفترض توتر الاذن لكي تعي الاصوات التي تصغي اليها ، نسمع مايقوله الواحد منا للآخر ، نتسامع وقد نتفاهم ونجد اللغة المشتركة فنجد الحلول المشتركة اي نتفق S' entendre . ومن ذلك الوفاق القلبي

أو الودي Entente cordiale الذي تذرعت به فرنسا وبريطانيا لتهيا ازمةعلاقاتها في مصر والسودان وتونس ، وبهذه المناسبة ، فقد كان وفاقاً على حساب العرب . وإذن فالـ Entente قد تخطى التراخي والانفراج الى التفاهم .

وكان الـ Entente cordiale هذا سنة ١٩٠٤ حجر الاساس في تطور العلاقات البريطانية – الفرنسية فيما بعد الى حلف في الحرب العالمية الاولى يجابه ألمانيا القيصرية .

فلنكن حذرين جداً ، نميل مدفوعين بالتجريد والتعميم الى النظر الى الانفراج والوفاق على انهما مترادفان . كلا . لأن بين الاثنين مراحل قد يكون تخطيها مستحيلاً . الانفراج طبعا خطوة نحو الوفاق ولكن الطريق الفاصل بين الانفراج والوفاق ، ثم الاتفاق، طريق قد تكون في كثير من الاحيان غير سالكة قط . وأغلب الظن اننا نتحدث عن انفراج دولي مازال ضيقاً في مداه ، ضيقاً في عمقه . ضيقاً افقياً لأنه لا يتعدى كثيراً انتقال العلاقات بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الامريكية من حيّز الحرب الباردة التي تحتمل المجابهة الى البيئة المفاوضة . ضيقاً لأنه لايتعدى كثيراً الانفراج في الأزمة الالمانية التي كانت تجثم على صدر اوروبا ، سطحيا في العمق لأن هذا الانفراج لم يؤد بعد الى وفاق ، أدى الى تعاون في بعض المجالات بنتيجة اجتماعي القمة في موسكو سنة ١٩٧٢ وفي واشنطن سنة ١٩٧٣ ، تعاون فني في استكشاف الثروة البحرية في حفظ البيئة البشرية ، في الاستعمالات التعليمية لطاقة الذرية ، في الفضاء الخارجي في الصحة العامة ، تعاون في الميادين العامة للمبادلات التجارية ووسائل نقل السلع المتبادلة ، أدى الى الاتفاقات التسعة التي اسفرت عنها مباحثات القمتين ، ولكن لم يؤد بعد الى تعاون سياسي ، ولا لتعاون استراتيجي، لم يؤد الى تصور مشترك لتوازن القوى ولم يؤد الى زوال الحلف الاطلسي الذي خلق اصلاً لتطويق الاتحاد السوفييتي ولا لانهيار حلف وارسو الذي خلق أصلاً نتيجة لقيام الاول وتثبيتاً للاوضاع الجديدة في اوروبا الوسطى التي اسفرت عنها الغلبة الحاسمة على النازية والفاشية .

أمام المؤتمر العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي المنعقد في نيسان ١٩٧٣ وسّع السكرتير العام بريجينيف المفهوم الجديد الذي جاء به المؤتمر الرابع والعشرون للحزب السوفييتي سنة ١٩٧١ وكان ينص آنئذ على « تحول جذري نحو الانفراج والسلم في القارة الاوروبية » فقال بريجينيف :

« تحقيقاً لحياة افضل للشعب السوفييتي ، تحولت وجهة الزعامة السوفييتية بقوة وعزم بعيداً عن العزلة والانغلاق ونحت بقدراتها منحى البقاء السلمي في الداخل ، والتعاون الشامل مع العالم الخارجي » .

لنتصور ان أهم مايعني الاتحاد السوفييتي من هذه السياسة الجديدة تحقيق تبادل تجاري اوسع مع الولايات المتحدة ، واستيراد لأفانين التقنية التي اتقنها الامريكيون على مستوى عال بنتيجة الاموال الطائلة المخصصة للبحث العلمي والدرجة المتقدمة من الاختصاص البشري، واستمالة للاستثمارات الاجنبية وخاصة الامريكية في تحقيق الطاقات السوفييتية الكامنة وعلى الاخص في سيبيريا .

ولو ان الباب فتح على مصراعيه لهذا التبادل وهذا الاستيراد لقلنا ان من ملامح الانفراج التدرج نحو الوفاق . غير انه كان يكفي لشيخ متزمت كهنري جاكسون من عقلية القرن التاسع عشر التي تجل سياسة المدفع Gunboat Diplomacy هذا الداعية المتعصب للصهيونية، ان يحلّق من حوله جمهرة الممثلين والشيوخ في الكونغرس فيحبط الى يومنا هذا التشريع المتضمن لتوفير الشرط الاساسي لمثل هذا التبادل السوفييتي — الامريكي ، وهو بند الدولة ذات الرعاية المفضلة The Most favored Nation Clause معلقاً مصادقة الكونغرس على سماح الاتحاد السوفييتي لمواطنيه بحرية الهجرة، وهو يقصد على الضبط هجرة اليهود الى اسرائيل .

هل هذا من الوفاق في شيء وقد مسّ شرط السيادة في الصميم ؟

الحق انه لادراك وفاق ، ينبغي ان يكون هناك حد أصغر على الاقل ، ايجابي في طبيعته ، من التفاهم المشترك على استراتيجية سياسية ، أو على طراز من توازن القوة Balance of Power .

لكن الانفراج بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتي لايقوم في الحقيقة على عناصر مشتركة ايجابية بقدر مايقوم على تصور مشترك لنتائج الجائحة . الجائحة النووية تمحو أثر الحضارة في كل من بلد المتحاربين سواء منها الغالب أم المغلوب ، وفي بلاد حلفائها ان اشتركوا في الحرب وعلى الاغلب في البلاد المجاورة الرهينة الكبرى في يد كل من الدولتين المتحاربتين هي المدنيون في الدولة الاخرى . لان الجائحة النووية تقضي على الاقل على نصف السكان ومن يقيض له منهم ان يبقى على قيد الحياة يبقى رهن

العاهات الدائمة من اثر الاشعاع النووي ، رهن المجاعة بسبب تلف الزرع والضرع او عطبها الدائم . وعلى هذا فالانفراج مجرد بلورة للتعايش السلمي . والتعايش السلمي في حقيقته استبعاد للمجابهة ، التعايش السلمي يفترض ان تكون النظم الاجتماعية مختلفة ، وانما تنتظم العلاقة بين الدول المتعايشة بحيث تقوم على احترام كل منها احتراماً كاملاً لسيادة الأخرى . اي ان التعايش السلمي تعهد من الجميع الا يؤدي اي خلاف الى الاصطدام المسلح واقرار في الوقت ذاته بان الخلافات قد تدوم ، يتوجها اعلان عن الاستعداد لحصر هذه الخلافات في دائرة لاتتعدى دائرة التزاحم الى نار الحرب .

يمكن للتعايش السلمي ان يخرج قدراً ما من هذا الاتجاه السالب عندما يرافقه تعاون في مجالات شتى تتسع وتتكاثر ، بحيث تنشأ مع الزمن علاقات تركز على المشترك وتقلص المتنافر ، آنئذ يسير التعايش مسار التقارب Rapprochement . بين الاتحاد السوفييتي ودول اوروبا الغربية تعايش وقد اصبح بينها تقارب وتعاون . غير ان التعايش السلمي الذي أدى للانفراج في اوروبا وللانفراج في علاقات الاتحاد السوفييتي بالولايات المتحدة وللانفراج بين الصين والولايات المتحدة ليس بمثابة سياسة اختارتها هذه الدول اختياراً حراً من بين بدائل عديدة كانت معروضة أمامها لتنتقي منها ماتشاء .

قد نخفف قليلاً من حتمية هذا الحكم فنتجوّز في القول ان الانفراج بين الصين والولايات المتحدة كان فيه شيء من عنصر الاختيار ، اختارته الولايات المتحدة للضغط على الاتحاد السوفييتي ولسبق اليابان واوروبا الغربية الى فتح السوق الصينية أمام المنتجات الامريكية ، واختارته الصين لئلا يكون بعدها عن حلبة الصراع الدبلوماسي مبترراً لما تظنه وتناوئه من استقطاب ثنائي للقوة والسيطرة . لقد عمدت ادارة نيكسون الى احداث تغيير في السياسة الامريكية العدائية نحو الصين التي كانت تتطور من سياسة دفع الاشتراكية الى الوراء Rollback الى سياسة حافة الحربBrinkinananship ومن هذه الى سياسة التطويق والاحتواء Containment فاقدم نيكسون على خطوة الانفراج – انه لايمكننا الاستخفاف بمدلول هذه الخطوة ، خاصة اذا عرفنا مقدار العداء الذي كان اقطاب العقلية المحافظة في السلطة التنفيذية والتشريعية يناصبونه الصين الشعبية ولو ان مما سهّل على نيكسون هذه الخطوة كان كسر هذه الحلقة الحديدية بادىء ذي بدء على يد الجمعية العامة للامم المتحدة بمؤازرة فعلية من أغلبية الدول العربية .

غير ان الانفراج السوفييتي – الامريكي اصطبغ بالحتمية من جميع جوانبه بفضل الوصول الى التعادل في القدرة النووية وتصور نتائج المجابهة . الى هذا كان يشير الرئيس ايزنهاور عندما قال كلمته المشهورة ابان ولايته وقد بلغت الولايات المتحدة آنئذ قمة سلطانها : « ليس هناك بديل عن السلم » There is no alternative to peace فالسير نحو الانفراج كبديل عن المجابهة لم ينشأ عن رغبة او عن باعث اخلاقي او انساني بقدر ما املته الوقائع ، ليس الرئيس نيكسون هو الذي اختار ان يسير في خطة الانفراج عندما جاء في مستهل عهده بشعار « المفاوضة عوضاً عن المجابهة » Negotiation in lieu of Confrontation بل كان شعاره هذا مرآة للمعطيات الاستراتيجية الجديدة التي أدخلت على العلاقات الدولية أعنف صيغة للتوازن ، واشدها في تاريخ العلاقات الدولية الطويل قطعاً ومنعاً وحسماً الا وهي توازن الرعب The Balance of Torr فكانت سياسته بثابة ماتسميه مدرسة دوغي الوضع المعلن Déclaratif الذي يصور الواقع لا الوضع المنشىء Constitutif الذي يكوّن المعطيات الجديدة .

قد يكون نيكسون حسم بسياسته المشادة التي كانت تقوم بين الغلاة والواقعيين في هيئة أركان الحرب وفي مجلس الأمن القومي ، وقد يكون عجل بمراحل الشروع بالمفاوضة المادية ولكنه لم يغير شيئاً من الحقائق الأساسية ، وكان هذا وضع بريجينيف بين الغلاة وبين المعتدلين . كما كانت هذه حال براندت مستشار المانيا الاتحادية فقد يكون في سياسته القائمة على الانفتاح نحو الشرق Oestpolitik التي انتهجها انما حسم المشادة بين المتزمتين من المسيحيين الديمقراطيين والمعتدلين من الاشتراكيين ولكنه لم يغير من الحقائق شيئاً ، فلقد كان الاتحاد السوفييتي منذ البدء يربط برباط وثيق استمرار نظام جمهورية المانيا الديمقراطية بصميم دواعي الأمن لديه ولم يفعل براندت الا ان قدر في النهاية هذا العنصر الحاسم من توازن الرعب فساير الحقيقة الواقعة وعجل بمراحل اتفاق الالمانيتين على التعايش ، هذا الاتفاق الذي اكتمل سنة ١٩٧٣ فغدا هو العلامة البارزة في التاريخ الاوروبي بعد الحرب العالمية الثانية .

لقد انجلت الحرب العالمية الثانية عن تهادن عسير ولم تنفرج عن سلام دائم وما لبث الحلف الذي جمع العالم الرأسمالي والاشتراكي ان تصدع وقام الصراع السياسي الذي كان تشرشل أول من جاهر به في خطاب فولتون سنة ١٩٤٦ عندما استعمل لأول مرة

اصطلاح الستار الحديدي Tye Iron Curtain فكان هذا الاصطلاح رمزاً لهذا السلم القلق الطويل ، دام ربع قرن باسم الحرب الباردة ، باردة لأن الجابهة الشاملة استبعدت منها وكانت النتيجة ما سماه كيسنجر وكان استاذاً في جامعة هارفارد ، بالفزع الى التكنولوجيا . Flight into toch Nology ولكن بقدر ما كان التقدم التكنولوجي يوسع أكثر فأكثر ، بتسارع مذهل ، القوة التدميرية المبيدة للاسلحة . بقدر ما كان يتزايد الأحجام عن استعمالها .

لقد كانت الولايات المتحدة في مأمن من الانتقام عندما أقدم ترومان على أبشع عملية حربية في التاريخ فقذف هيروشيما وناغازاكي بالقنابل الذرية لأن الولايات المتحدة كانت آنئذ تتمتع بالانحصار الذري ، ولو ان الاتحاد السوفييتي تأخر كثيراً في كسر طوق هذا الانحصار ، لخضعت الانسانية ردحاً من الزمن لمشيئة بشرية واحدة . لعل هول هذه العملية بالنسبة لما ألفته البشرية حتى بالنسبة للفظائع التي ارتكبت ابان الحرب العالمية الثانية كقذف دريسدن الجهنية مثلاً ، هو الذي لجم الباحثين حتى الآن عن تصور ماذا كان يحدث للبشرية لو أن الانحصار النووي كتب له الاستمرار . لقد كانت القوة الانفجارية لهاتين القنبلتين تعادل ٢٠ الف طن ت . ن ت T N T . وكانت دائرة الموت - أي دائرة التدمير الكامل - التي أخضعتا لها الجزيرتين وسكانها ميلاً ونصف الميل . وصدعت آثارها الانفجارية والحرارية كل معالم العمران في مساحة اضافية قدرها ٤٠٤ أميال مربعة في هيروشيما و ١٠٨ ميلاً في ناغازاكي . أزهقت هاتان «الهديتان» أوراح ٨٠ الف من اليابانيين في هيروشيما و ٢٥ الف في ناغازاكي وأصابت بجروح بالغة ١٨٠ الف في هيروشيما ومائة الف في ناغازاكي وهنا ندور الأرقام ، اية مأساة في أحكام العقل عندما يجنح حتى لتدوير أرقام الأرواح المهدورة للانسان على يد أخيه الانسان. أفلم يكن شاعرنا بليغاً وليس مبالغاً عندما قارن بين الذئب والانسان فقال :

عوى الذئب فاستأنست للذئب اذ عوى وصوّت انسان فكدت أطير

أما الاشعاع الذري فلقد تناول من البشر ماعجزت الاحصاءات حتى الآن عن اعطاء فكرة دقيقة عنه .

أعزائي السادة ، كان هذا سنة ١٩٤٥ .ونحن الآن في سنة ١٩٧٤ ، هذه الأرقام مأخوذة عن كتاب الاستاذ هنري كيسنجر أستاذ هارفارد ووزير الخارجية الامريكية

يعرض أمنه للخطر بقدر مايشفق من تعثرها مخافة أن يحمل تاريخ السنوات القادمة أنباء سباق جنوني أكبر على الاسلحة المتقدمة .

ثم لنضف الى ردع السلاح هذا وضخامة النفقات عليه على حساب الحد الاصغر من الرفاه الاجتماعي تقوقع القيادات العسكرية المنغمسة حتى آذانها في مشاكل التكنولوجيا والانتشار الستراتيجي والتوازن مابين قيادات الأسلحة المختلفة والتوفر على حل مواطن الخلاف فيما بينها والانتقاء الصعب بين مئات الخيارات التي تطرحها مقتضيات الدفاع وتكتيك الهجوم ، بحيث تصرف هذه المشاكل المهنية لوحدها ذهن أركان الحرب عن الجوهر ، اي عن وضع خطة استراتيجية قومية تكون فيها القوة في خدمة الأهداف ولايكون الهدف بجرد التجميع الأعظم للقوة حتى لاتغدو القوة رعناء فتصبح من باب الصلف الذي لم يجد السناتور فولبرايت خيراً من تخصيص مؤلف كامل للبحث فيه The arrogance of Power لنضف هذا الى ذلك لنرى كيف ان التفاوض على تحديد الاسلحة الاستراتيجية كظاهرة من ظواهر الانفراج انما أملته عوامل ليس في الطاقة إلا الخضوع لها ومرعان ما تبين منها – وكثير من قيمتها يكمن في التوعية التي تمارسها – ان ايجاد توازن استراتيجي على صعيد معتدل خير من دفع التزاحم المطلق الى اوجه ، في الحصول على مزيد من الأسلحة الستراتيجية . ومع ذلك فلم تحمل الاتفاقات الأولية في تحديد هذه الاسلحة سوى تحديدها الكمي تاركة عنان المبادءة لكل من الفريقين في ادخال التحسينات الكيفية على الاسلحة المتقدمة بحيث ازدادت قوتها التدميرية كدليل آخر على ان الانفراج غير الوفاق وان اول الطريق الوفاق ماتزال محفوفة بالأشواك .

وبعد فهل يمكن القول ان عدم امكان تصور وقوع الحرب الشاملة يعادل ببساطة قيام السلم حقاً ؟ .

ان العلاقات الدولية اكثر تعقداً من ان تخضع لمثل هذه المعادلة المبسطة . لقد تميزت فترة ما بعد الحرب بثورات شعوب العالم الثالث على السيطرة الاجنبية عليها في مختلف اشكالها وعلى القيود الاجتماعية والعرقية والاقتصادية التي كبل بها سواد هذه الشعوب ، وحدثت هذه الهزات العميقة في منعطف من العلاقات الدولية اتسمت بالشمول بحيث كان اصغر طارىء مهما كان منعزلاً يحدث تأثيره في مجمل هذه العلاقات وله بالضرورة موقع معين في اطارها ، فكان التزاحم شديداً على استقطاب هذه القوى الصاعدة

واحتواء ثوراتها وثرواتها ، وغدا على الدبلوماسية في دور توازن الرعب عبء كبير في السعي لاعادة رسم حدود اطار العلاقات الدولية . ولهذا لم يمنع التعايش السلمي من بروز الصراع العقائدي بل كان بمثابة الحافز له فبقيا كان التعايش فاعل ما لمجمل العلاقات بين الدول كان الصراع العقائدي يشغل المجتمعات في الداخل ، ويحدث انعكاساته على العلاقات الدولية ، دون ان يوصل للحرب ، وانما يتأتى له تأثيره بما ينشأ بين المجتمعات عبر الحدود الدولية ، من روابط ايديولوجية متفاعلة تتخطى السيادات الجغرافية والعرقية . ولئن كانت الاحزاب الشيوعية مثلاً في اوربا الغربية هي التي تقرر طريقة عملها فانها تلتقي مع الحزب الشيوعي الرئيسي في الاتحاد السوفييتي بالبواعث العقائدية والتفاهم على الاهداف ، واذا جنحت الحكومات المحلية الى تحريم أدوات التطور الاجتماعي جنحت قوى الثورة للعمل في السر وتبني العنف . أو أن تجنح الحكومات للحد من النشاط الثوري في الداخل بأساليب تشريعية كان تفرض – كما في الولايات المتحدة – التسجيل على حزب له صلة بعقيدة خارجية ، لدى جزيرة العدل مثلاً .

واذا كانت الأحزاب الشيوعية المحلية في تصرفاتها غير مقيدة بنهج الانفراج ، لأن صعيد المعركة الايديولوجية في المجتمع قد يكون متوازياً فلا يلتقي حتماً مع صعيد الانفراج بين الدول ، وكانت هذه الحقيقة قائمة منذ أعلن لينين التفريق بين المعركة الايديولوجية الاجتماعية وبين التعايش الدولي ، فقد نشأ في صلب العلاقات الدولية هذا الخلل في التناظر Asymètrie ، ففي الاتحاد السوفييتي دولة وحزب ، دولة مسؤولة عن تأمين السلم العالمي وهي تبعة جسمية لأن الاتحاد السوفييتي من الدول العظمى بالفعل والقانون ، بالفعل بسبب قدراته الحقيقية وبالقانون بسبب اعتراف ميثاق الامم المتحدة له بمقعد دائم في مجلس الأمن مما ينشىء على عاتقه مسؤوليات خاصة في الأمن الدولي . وحزب يستهدف تحقيق الثورة العالمية لتحقيق الاشتراكية في المعمورة .

والخلل في التناظر آت من أن دول العالم الرأسمالي ليس لديها هذا الوجه الثوري ، ولا تعني حكوماتها المؤتلفة بالأيديولوجية عنايتها بالتطبيقات المحددة القائمة على التوفيق بين برامج الاحزاب الداخلة في الائتلافات الحكومية فهي في جوهرها عملية تجريبية Empirique يستند حكمها الى توازن القوى الداخلية ، وهي من هذه النظرة لا تستبعد اللجوء للحرب كطريقة لحل المشاكل طالما كان همها الرئيسي المحافظة على الوضع الراهن، لولا ان الحرب قد تقود للحرب الشاملة والحرب الشاملة أصبحت مغامرة غير مربحة لأنها تؤدي الى تدمير المعتدي والمعتدى عليه تدميراً كلياً .

ان هذا الخلل في التناظر كان يزيد في خشية السلطات الحاكمة في اوروبا الغربية من أن ينقلب التضامن الاشتراكي عبر الحدود الى اطاحـة بمراكزهـا المتميزة ومكتسباتها الانتفاعيـة ويدفع بها الى نشدان السلامـة عن طريق الحماية الامريكية سواء في الوجود العسكري الامريكي في الاراضي الأوروبيـة أو في « المظلة النووية الواقيـة » . ولم تنفرج وطأة الحرب الباردة إلا بعد تراخي التوتر اثر انقضاء العهد الستاليني الصلب ، فتفتحت النوازع الاوربية الاستقلالية ، بلورها وغذاها الجنرال ديغول ، ففتح الثغرات الأولى في هذه الجمودية التي كانت تحول دون الاتصال بين جزئي أوروبا الشرقي والغربي ، واليوم ينحو مؤتمر الأمن الأوربي الى اقرار التعايش سياسة ثابتـة ، والانفتاح أسلوباً مرناً لامكان المزيد من التعاون ، وان كان الانفراج لم يبلغ بعد المدى الذي تزول فيـه نهائياً الحواجز دون الاتصال الفكري ، هذه الحواجز التي لاتزول إلا بزوال الشكوك، شكوك كل طرف في نوايا الاخر واستراتيجيته النهائية .

وبعد كل هذا ، فاين موقع الدول العربية من هذا الانفراج الذي عرضنا للاوليات الاوليات منه لا بالشرح بل بالاشارة والتلميح ؟.

ان ثورة تشرين ، او حرب رمضان ، او اولى كبريات معارك التحرير او سمها ماشئت ، كان لها آثار بعيدة ، ونتائج خارقة ، بصرف النظر عن تفاصيلها الزمنية والمكانية .

فقد كانت الثورة هي في الفكر والمفهوم قبل كل شيء .

جاء الدليل المحسوس ليبدد الوهم الذي كاد بفعل الاستمرار ان يتثبت في الاذهان من انه كتب على الانسان العربي التخلف والتجزئة والتبعية وقصر النظر والالتهـاء بالثانوي عن الاساسي وبالموقت عن النهائي وبالانتهاز عن الواجب ، ولم يكن بأقل من ذلك شأناً ان يتبدد في ذهن الانسان العربي نفسه ، هذا الوهم الذي كاد بفعل الاستمرار ان يتثبت هو أيضاً من ان العدو الصهيوني قادر ملء القدرة ، متقدم بحيث لا يحسن ادراك شأوه ، متفوق بحيث لايمكن قهر جبروته ، حيسوب بحيث لايمكن احبـاط مكره وغدره . وعادت موازين الحساب الى طبيعتها : تغلب العدو في الماضي لأنه لم يجـد في الساحة الصف الموحد الصامد فحارب صفوفاً عربية مجزأة ، وغلب بالأسلوب السهل ، ثم كانت خطيئته الكبرى ان عزا المجد لقوته وفطنته وبراعة حيلته ، غير متعظ بالحقيقة التي ساقها شاعر الشهامة النفسية كورني في بيته الشهير A vainere sans péril , on

triomphe sans Gloire (لا مجد في انتصار احرز دون مواجهة المهالك) . قد يطول بنا الحديث في تقييم هذه المرحلة التي نرجو ان نتفق ان لم يكن هناك ثمة خلاف جدي ، على تسميتها الرجوع الى الطريق السوي Lére de la normalisation .

كان في ثورة تشرين بطولات خارقة ، وتضحيات جسيمة ، لأحد ينكر ذلك بل يكبره ، ولكنها كانت في جوهرها عودة لطبيعة الأمور، ففشل العرب في الماضي بدون مبرر كان هو النشاز ، وبروز شخصيتهم الصامدة الواعية المتضامنة كان هو المفروض والمنطقي والطبيعي .

يطول بنا الحديث عن المرحلة ، ولكننا لسنا في مجال تقييمها الكامل ، الا من باب الاشارة الى موقعها من الانفراج .

موقعها من الانفراج يجب أن يكون موقع الفاعل لا المنفعل ، بمعنى ان الانسان العربي ليس بحاجة للتوتر في العلاقات الدولية حتى يمارس استغلال الجو المشحون بالأزمة لشد أزره .

الانسان العربي ، على العكس ، مدعو للتقدم الى حلبة العلاقات الدولية عن ادراك تام ، ووعي كامل عن رأي وموقف ، عن ثقل ووزن .

بيد الانسان العربي أن ينمي طاقاته المبدعة ، لأن هذه الطاقات موجودة بحكم القوة ، وعليه أن ينقلها لحكم الواقع ــ كان أهم ما استوقفني من كتابات عن العرب بعد حرب الـ ١٩٦٧ في حمأة الحملة المهينة التي شنتها وسائل الاعلام الغربية على الكيان العربي ــ كلمة استاذنا المنصف في جامعة برنستون ، البروفسور ستانلي ، نشرها على شكل رسالة موجزة في النيويورك تايمز ، يندد فيها بظلم الحملة المسعورة على نوعية الفكر العربي ، ويكتفي بمجرد الاستشهاد بتفوق من عرفه من طلابه العرب على أقرانهم وتفتح ذهنهم ، ويقظة احساسهم ، ونمو ملكاتهم الفكرية .

استشهاد بسيط ولكنه بليغ يرد بالوقائع المتواضعة الدعاوي التي أملتها الموجدة والنوازع العصبية والعرقية .

أجل ، ان كل مايطلب من الدولة العربية أن تهيء لابنائها الشروط الملائمة لنمو شخصيتهم وتفتق عبقريتهم واتاحة السبل أمامهم كي يسهموا في اخصاب التراث العربي والتراث الانساني ويقضوا على بقايا الانتكاسات العنصرية الصهيونية التي تعصف بقدرات

وطنهم كما تعصف الانتكاسات القائمة على التمييز العنصري بالقسم الجنوبي من قارة اخوانهم الافارقة .

ان عدونا هو الذي يزدهر في مناخ التوتر كما تزدهر الطفيليات في الماء العكر وحذار من ان تخدعنا دعاواه السلمية ، فهو متربص بشخصيتنا القومية ، طامع بمواردنا يحلم بالسيطرة علينا سيطرة الطليعة الواعية في زعمه على القطيع السائب ، لأنه يقرن ازدهاره بضمورنا على صعيد الفكر وصعيد الحرب ، على صعيد الاقتصاد وصعيد التكنولوجيا ، يبني اسطورته على تخلفنا، والقوى اليمينية فيه على الأخص التي لاترى مستقبلاً لأحلام الصهيونية الا على أنقاض ابناء العروبة لتحفز للوثوب، وغالباً ماتسفر الأزمات المستحكمة — واسرائيل غارقة فيها الآن — عن تغلب النزوات العصبية العنصرية على محاكمات العقل ودروس الحكمة . ثم ان اسرائيل عدوة الانفراج لأنها هي بحد ذاتها وليدة الحرب الباردة ، خلقت لتؤدي مأرباً استراتيجياً مناهضاً لنهضة العربية ، يدخل في حساب العداء بين الغرب والمعسكر الاشتراكي دعمته القوى الامبريالية لقلة اعتمادها على العرب لما عرف عن هؤلاء من نزعات استقلالية غرستها فيهم شخصيتهم وثقافتهم وتاريخهم.

واذا زال التوتر فأي مغزى يبقى لطغيان اقلية عنصرية على منطقة برمتها وأية مصالح يمكن ادراكها على يد عميل مكلف الادامنة ، عقيم الدور سوى دور التهديم ونشر القلق والاضطراب .

إما أن يكون لنا رأي وموقف فذلك ان الانفراج لم يصر بعد الى الوفاق كما قدمت، وحين يقول قادتنا في مؤتمرات عدم الانحياز بانهم يرحبون بالانفراج ان لم يكن على حساب الدول النامية فمعنى ذلك ان يكون مسار الانفراج نحو الوفاق مسار السلام القائم على الحق والعدل والمساواة لا مسار استقطاب السيطرة ثنائياً كان ام ثلاثياً ام رباعياً ، وأي قوى اقمن بالتأثير بهذه المسيرة من القوى العربية الصاعدة التي تملك سعة من الموارد الاولية وسعة في الخامات البشرية ، وسعة في مقومات التضامن والوحدة ، وسعة في التراث الحضاري ووضعاً استراتيجياً فريداً وقدرات كامنة هائلة ولا تحتاج من أجل تركيز هذا الثقل والاعتماد على هذا الوزن الا لتنمية هذه الطاقات وايجاد المناخ الصالح لاقتباس التكنولوجيا واستئناف رسالتها الحضارية التي كانت في منزلة المنطلق الاساسي لعصر النهضة في اوروبا كما اصبح يشهد بذلك البحاثة الموضوعيون من اتباع مدرسة التاريخ الاستقرائية .

« لن يبلغ ابداً حد الكفاية تكرارنا لمدى عمق تأثير الثقافة العربيـة في الحضارة الغربية . لقد كان هذا الاسهام ثميناً ، مضاعفاً ، قيماً بما لا يمكن الحساب حتى ليبلغ بعض الاحيان درجة الحسم وكان التجمع البطيء لهذا الاسهام ، وانتقاله دون توقف ، بين القرن الثامن والقرن الرابع عشر ، من تلك المدن العربية المغمورة آنذاك في تفتح عارم حتى يصل الى المثقفين علمانييهم ومتدينيهم في القرون الوسطى الاوروبية هما اللذان فتحا أبواب السعد أمام قارة متعثرة متهدمة كادت تفرغها بأكلها من جوهرها اليوناني — الرومي الغزوات المتتاليـة للبرابره ، المفترس منهم والغبي ، والفوضى المستديمة التي اسفرت عنها هذه الغزوات . فهذا الاسهام العربي هو الذي فسح المجال التألق عصر النهضة الباهر وليس لبلادنا — التي لم تعد بعدئذ لتعرف التوقف — نحو مستقبل من الازدهار الفني والتفتح الفلسفي ، والاشعاع الادبي ، وكذلك التقدم العلمي » .

هذا مايقوله في مطلع الفصل الأخير من كتابهما : الساعات الغنية جداً من الحضارة العربية Les très riches heures de la Civilisat Arabo الكاتبان جان وولف وبيير هايم ، والفصل بعنوان الحضارة العربية من دمشق وبغـداد والقاهرة الى فاس ومراكش وقرطبة ، من القرن السابع الى القرن الخامس عشر . ولكيلا ينساق القارىء مع ماينعى ظلماً على الانسان العربي من ميله حصراً للرؤى والخيال والشعر والأساطير وابتعاده عن الواقعية وكرهه العمل اليدوي أو الجهد البناء وعدم التلاقه مع الفنون التقنية فقد سارع الكاتبان يقولان ان الاسهام العربي لايكمن في هذا الدور الوسيط بين الحضارة اليونانية والحضارة الحديثة ولا في دور مجرد الحفاظ على المعرفة اليونانية الروسية كما كانت تؤكد اطروحة العدد الأكبر من المستشرقين ولا حتى في دور اكتشاف صيغ أدبية جديدة كما أقرت مدرسة الانتربولوجيا الثقافية العالمية ان اسهام العرب الحقيقي يكمن على الأخص في الفكر الجديد ، في الديناميكية التي أضفوها على التقاليد البشرية ، أي في فكر البحث العلمي والطريقة التجريبية .

معذرة ان أسهبت في الاستشهاد فلا أوقع منه في هذه الحقبة من العلاقات الدولية التي تسعى فيها القارة الاوربية — والغربية منها على الأخص — للتماسك ، وتهم في هـذا المعرض بفتح حوار جديد مع مجموعة البلاد العربية ، حوار الند للند ، حوار المصالح

المتبادلة والأمن المتوسطي المشترك ، والذهنية التي تطرح جانباً أو يجب أن تطرح كل بقايا التعصب - ولم يكن العرب هم الذين جاؤوا به اصلا كما يجزم البحاثة المنصفون اليوم وما ظهر لدى العرب منه لم يكن سوى ردود فعل للآثام التي ارتكبت بحقهم ، فأصابت سيادتهم واستقلالهم وانتهكت سلامتهم الاقليمية ودمرت الكثير من تراثهم الحضاري .

أو ندخل هذا الحوار التاريخي من باب ضيق وبصف مشتت فنجازف بالمكاسب الدولية التي عجلت بتحقيقها ثورة تشرين فكشفت عن حقائق الدور العربي المنتظر ، ام ندخل كعنصر قابض على مفاتيح الامن في المنطقة ، قادر على تعزيز التماسك الاوروبي، نابذ من العلاقات الاوروبية - العربية التاريخية وجهها السلبي ، مركز على وجهها الايجابي ، مستند الى رؤوس الاموال العربية لتفجير النهضة العلمية والتقنية والانبعاث الخلقي والروحي والحضاري ، مستلهم من سياسة الوحدة العربية القوة والنفوذ ، ومن قومية المعركة التسابق على العمل البناء . ان سبيلنا الى هذه المنعة والتقدم سبيل التضامن والتخطيط ، سبيل التكامل الاقتصادي العربي ، وتحقيق السوق العربية المشتركة حتى تكتمل لنا شخصية المفاوض القوي المدرك الذي يؤثر في تطورات الانفراج ونحن أول من ولج بابه عندما اشتركنا في مؤتمر باندونغ وكان مندوبنا فيه الكلمة المأثورة : التعايش او الفناء Co Existence or nonexistence ثم ثبتنا لنا دوراً في كيان عدم الانحياز تدعو فيه للانفراج ونفرق بينه وبين السيطرة والاثرة وغمط حقوق الشعوب ولئن لم تسفر الجهود النظرية للأمم المتحدة زهاء ربع قرن عن نتيجة محسوسة في قضية نزع السلاح الذي قرنته شعوب عدم الانحياز بقيام عهد صحيح من التنمية والتقدم والرخاء، فان هذا التعثر هو بالذات دافع للعرب في يقظتهم الجديدة لأن يتحملوا مزيداً من مسؤوليات المشاركة في رعاية مسار الخط بين الانفراج والوفاق بما يكفل مصالحهم ومصالح العالم الثالث الذين هم منه بمنزلة العصب الحساس بل ومصالح العالم الانساني أجمع .

ان مناخ التوتر سهل ولادة اسرائيل العنيفة التي شردت شعب فلسطين ولكن قمة الانفراج هي التي حملت الولايات المتحدة لأول مرة على المطالبة - بالحاح من الاتحاد السوفييتي - في بلاغ واشنطن المشترك سنة ١٩٧٣ على « الاعتراف بمصالح

الشعب الفلسطيني العربي المشروعة » أن قوتنا التي يجب ان تكون منيعة ، وصمودالشعب العربي الفلسطيني الذي يجب ان يكون مستمراً ، ودبلوماسيتنا التي يجب ان تكون يقظة ناشطة ، تسير جنباً الى جنب مع المجهود الحربي والبناء الاقتصادي ، كل ذلك هو الذي سيحمل الجميع على الاعتراف لا بالمصالح المشروعة وحسب بل بالحقوق القومية للشعب العربي الفلسطيني ، يحمل الجميع على نقل المبادىء التي قام عليهـا الميثاق في السيادة والسلامة الاقليمية وعدم جواز اكتساب الاراضي بالقوة وتحريم الاحتلال وحق الشعوب بتقرير مصيرها من حيز النظريات الاكاديمية الى حيز الواقع الحي في العلاقات الدولية المعاصرة .

الدكتور جورج طعمة

دور المنظمات الدولية وقيمتها في العلاقات الدولية

الموضوع الذي نحن بصدد بحثه ومناقشته أي « دور وقيمة المنظمات الدولية في العلاقات الدولية » يقسم بصورة ظاهرة الى قسمين رئيسين : (١) دور المنظمات الدولية (٢) قيمتها . لكن بحث الدور يستوجب بالضرورة والبداهة أن نبحث كيف تسعى هذه المنظمات للقيام بدورها مما يجعل بحثنا منقسما الى ثلاثة أقسام : (١) دور المنظمات (٢) وسائلها للقيام بهذا الدور (٣) تقييم هذا الدور .

مقدمـة :

ثمة تحديد أولي لابد منه قبل ولوج البحث ، فاصطلاح « المنظمات الدولية » يشمل منظمة الامم المتحدة الام والمنظمات والوكالات المتخصصة التابعة لها أو التي نشأت عنها بحكم ميثاق المنظمة والتي سنتعرض لدورها في القسم الثاني من بحثنا . ولذا كان لزاما علينا أن نبدأ ببحث الأصل قبل الفروع أي بحث منظمة الامم المتحدة بالذات .

كان عام ١٩٧٠ عاماً تاريخياً بالنسبة للمنظمة لانه كان قد مضى على تأسيسها ربع قرن . وعندما انعقدت الجمعية العامة في دورتها الخامسة والعشرين في ذلك العام فقد احتفلت احتفالاً خاصاً بهذه الذكرى التي جاء للتحدث فيها عـدد كبير من رؤساء الحكومات والوزارات ووزراء الخارجية . وفي العديد من الخطب والكلمات التي القوها فقد ناقشوا الى حد ما كثيراً من جوانب البحث الذي نحن بصدده اليـوم . وأثاروا شتى الأسئلة كما طرحوا العديد من التساؤلات حول المنظمة . وكتب الأمين العام يوثانت في مقدمة تقريره السنوي المرفوع للجمعية العامة قال : اننا إذ نقوم الماضي ونتطلع الى المستقبل بمناسبة مرور الذكرى الخامسة والعشرين على تأسيس المنظمة فان عـدداً من الأسئلة يجول في اذهاننا كما لاريب ان حكومات الدول الاعضاء تفكر فيها وان الكثيرين من الجماعات والافراد في أطراف الكرة الارضية كلها يفكرون فيها أيضاً انهم يتساءلون ما هي الوسائل التي تمكن منظمة الامم المتحدة أن تلعب دوراً متزايداً حيوياً في مستقبل العالم ؟ كيف تستطيع المنظمة أن تلعب دوراً أكثر فعالية بالاعتماد على الوسائل الموجودة لديها لكي توفق بين خلافات الدول الاعضاء بعضها مع بعض ؟ ما هي التغييرات التي يمكن ادخالها في وسائل عملها لتحسين الاوضاع الانسانية لتستفيد منها الى ابعد حد ممكن ؟ وبعد أن طرح الامين العام هذه الأسئلة عبر عن أمله في أن يتمكن المجتمع الدولي من ايجاد أجوبة عليها من أجل ضمان نجاح أكبر للمنظمة وتحقيق أهداف الميثاق . وواقع الامر أن جميع الذين خطبوا حينذاك تناولوا بشكل أو بآخر وبصورة مباشرة أو غير مباشرة هذه الاسئلة والعديد غيرها .

والاسئلة التي طرحها الامين العام تضعنا في قلب البحث الذي نريده وتظهر لنا بصورة مجسمة التفاعل الحي بين الذين يصرفون شؤون المنظمة والذين يمثلون حكوماتهم فيها والمشاكل الدولية الكبرى التي يتعرضون اليها .

وواضح أيضاً أنه بعد مضي ربع قرن وعامين الآن على قيام الامم المتحدة فانه يصعب بل يستحيل على أي باحث في العلاقات الدولية أن يرسم في ذهنه صورة لهذه العلاقات دون المنظمة وما يتصل بها من منظمات اختصاصية . فوجودها أمر بديهي مسلم به لابد أن يعطى حقه في أي بحث علمي للعلاقات الدولية في الوقت الذي نحن فيه . لكن مقدار تأثيرها ونفوذها وقيمتها ومستقبلها كلها امور لايوجد اجماع حولها . وهذا الخلاف في التقييم الذي يطرح ذاته منطقياً عند بحث دور المنظمة وقيمتها ليس بالجديد بل انه يعود بالضبط الى سنة تأسيسها ووضع ميثاقها وصياغته إذ اختلف واضعوه والمخططون للمنظمة حينذاك كما يختلفون الآن عن مدى الدور وحدود التأثير الفعال الذي يجب أن تلعبه المنظمة الجديدة . ولكن الفرق بين الذين بحثوه حينذاك وبين بحثنا له اليوم ان وراءنا سبعة وعشرين عاماً من الخبرة لابد أن تنعكس آثارها في ما نطلقه من أحكام .

العالم الجديد :

والفوارق حول الدور الذي يجب أن يكون للامم المتحدة هي في الواقع فوارق في النظر الى العلاقات الدولية في واقعها وكيف يجب أن تكون . فتأسيس المنظمة اعتبر في حينه بداية رائدة لنظام جديد في تصريف الدول للعلاقات بينها . تلك كانت رؤى المشرعين الذين وضعوا الميثاق في سان فرنسيسكو وأصبح نافذاً في ٢٤ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤٥ . لكننا حين نتحدث اليوم عن «النظام الدولي الجديد» الذي وضعوه المتشرعون عام ١٩٤٥ فانه لا يجوز أن ننسى الهزات الكونية الكبرى التي أدت اليه وما ألحقته الحرب العالمية الثانية من فواجع بالبشرية جمعاء والتي أدت كلها الى رؤيا ذلك النظام ووضعه . ويكفي أن نورد على سبيل المثال لا الحصر بعض الاحصاءات لنرى الخلفية التي أدت الى الميثاق . فالاتحاد السوفيتي مثلاً خسر اثني وعشرين مليوناً من أبنائه بين قتلى جيوش ومدنيين . والمانيا اثني عشر مليوناً . وبولونيا ستة ملايين ناهيك عن الخراب والتدمير حيثما وصلت الحرب والخسائر المادية التي بلغت ألوف المليارات من الدولارات . هذا كله يفسر لنا الفقرة الأولى من ديباجية الميثاق التي نصت :

« نحن شعوب الامم المتحدة ، وقد آلينا على ألفسنا : أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب التي في خلال جيل واحد جلبت على الانسانية مرتين أحزاناً يعجز

عنها الوصف » لكن هذه الديباجة للميثاق تكتسب ذات المعنى أيضاً بالنسبة لواقع العالم الذي نعيش فيه ، والذي يقوم على توازن الرعب . وللايضاح نأخذ أيضاً مثالاً واحداً وهو التسلح وأخطاره التي تهدد البشرية جمعاء . فقبل سبعة وعشرين عاماً حين ولدت المنظمة الدوليـة شهد الجنس البشري بداية العصر الذري . وقبل توقيع الميثاق في سان فرنسيسكو في ٢٦ حزيران ١٩٤٥ بأيام جرى تفجير القنبلة الذرية في هيروشيما وناكازاكي . ومنذ ذلك الحين اعتبر نزع السلاح شرطاً أساسياً لبقـاء الجنس البشري . وتفجير الذرة أعطى انسان العصر الحديث من القوة أكثر بكثير مما هو بحاجة اليه . وكنتيجة لسباق التسلح انتجت وخزنت كل من الدولتين الكبيرتين أميركا والاتحاد السوفيتي من الأسلحة النووية ما يكفي لافناء الدولة الاخرى أرضاً وسكاناً لا مرة واحدة فحسب بل من عشرة الى خمسة عشر مرة . ولتدمير الكرة الأرضية بكاملهـا مراراً . ولقد أصبح المخزون من القوة المدمرة يفوق أي هدف عسكري ممكن التصور . فقد وصل الرقم منذ عدة أعوام الى ما يعادل ١٥ طناً من مادة ت . ن . ت . T. N. T. لكل انسان . واذن فان رؤيا المخاطر التي تهدد البشرية بالفناء لا تزال قائمة .

الأهداف :

وهذا يعيدنا اليوم لتمعن في أهداف الميثاق بكل الجدية والمسؤولية التي تتطلبها معالجة الموضوع . وتحديد هذه الأهداف ضرورية لسببين : أولاً لفهم طبيعة دور الامم المتحدة وما دعيت وما هي مدعوة لتحقيقه وثانياً لنتمكن من المقارنة في ما بعد بين الأهداف والواقع أي لنتمكن من معالجة القسم التقييمي من البحث . وقد حددت هذه الاهداف تحديداً واضحاً في ديباجة الميثاق التي أوردت فقرتها الأولى فقط وجاءت مفصلة في الفصل الاول منه الذي بحث في « مقاصد الهيئة ومبادئها » وهي التالية :

١ — حفظ السلم والامن الدولي .

٢ — انماء العلاقات الودية بين الامم على أساس احترام المبدأ الذي يقضي بالتسوية في الحقوق بين الشعوب وبأن يكون لكل منها حق تقرير مصيرها .

٣ — تحقيق التعاون الدولي على حل المسائل الدولية ذات الصبغة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والانسانية .

٤ — تعزيز احترام حقوق الانسان والحريات الاساسية للناس جميعاً والتشجيع على ذلك اطلاقاً بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين ولا تفريق بين الرجال والنساء .

٥ — جعل المنظمة مرجعاً لتنسيق أعمال الامم وتوجيهها نحو ادراك هذه الغايات المشتركة .

وترتكز هذه الاهداف الى المبادىء السبعة التالية :

١ — المساواة التامة في السيادة بين جميع الاعضاء كبيرها وصغيرها .

٢ — تنفيذ جميع الدول الاعضاء التزاماتها في حسن نية .

٣ — تسوية المنازعات الدولية سلمياً .

٤ — الامتناع عن التهديد باستعمال القوة أو استخدامها ضد سلامة الاراضي أو الاستقلال السياسي لاية دولة .

٥ — تقديم الدول الاعضاء كل ما في وسعهم لمساعدة الامم المتحدة لتحقيق أهدافها .

٦ — حث الدول غير الاعضاء على أن تتصرف وفقاً لمبادىء الميثاق .

٧ — عدم تدخل « الامم المتحدة » في الشؤون الداخلية للدول الاعضاء . (المادة ١ و ٢) .

الوسائل :

كيف سعت وتسعى الامم المتحدة الى تحقيق هذه الاهداف ؟ ان الجواب المباشر على هذا السؤال هو البحث في الفروع والمجالس الرئيسية للأمم المتحدة واللجان المنبثقة عنها وهذا مالا بد لنا من القيام به . على أنه لابد من التنبيه قبل ذلك ان هذا العرض ليس مجرد عرض آلي أو استذكار لمواد الميثاق التي حددت هذه الفروع وعددها واختصاصاتها ووظائفها وعضويتها بل هي شيء أكثر منه وأبعد . انها أولاً دراسة في أشكال التعاون الدولي واعطاء صورة عنه وعن التنسيق الذي يجري ضمنه وبالاعتماد عليه والاستناد اليه . ثم ان هذه الصورة مركبة معقدة وليست بسيطة سهلة . فقد بلغ عدد أعضاء الامم المتحدة مائة واثني وثلاثين عضواً وليس من السهل ان تتسق آراء ومذاهب

هذا العدد الوافر من دول العالم . ولنتصور من أجل ذلك الصعوبات التي تنشأ في منظمات اقليمية كالجامعة العربية اومنظمة الدول الافريقية او اللاتينية عند معالجة مشكلة تهم قطراً واحداً فكيف يكون الامر اذا كانت الغاية جمع دول العالم كلها للاتفاق حول رأي واحد أو حل واحد لمعضلة . وهذا التصور ضروري لأنه يعطينا فكرة صحيحة غير خيالية عن واقع الامم المتحدة الذي يعكس ويصور واقع الدول الاعضاء . ثانياً لأن تكوين هذه الصورة الواقعية شرط ضروري أساسي لنتمكن من تقييم دور الأمم المتحدة في العلاقات الدولية . ان أية معالجة في القيمة لابد من أن تجيب بصورة مباشرة او غير مباشرة على الاسئلة التالية بعضها أو كلها :

ماهي طبيعة الامم المتحدة الآن ؟

ماهي العلاقات بينها وبين اطارات اوسع العلاقات الدولية ؟

كيف نفهم هذه العلاقة ؟

كيف نقيم اعمال الامم المتحدة وأية احكام يمكن اطلاقها عليها ؟

ماهي النتائج التي تحصل حين نطبق هذه الاحكام ؟

أي نوع من البحث العلمي يساعدنا على فهم احداث الماضي ووقائع المستقبل ؟

ومن الضروري ان تبقى هذه الاسئلة حاضرة في اذهاننا ونحن نحاول ان ندرس الوسائل المتوفرة لدى الامم المتحدة لتحقيق اهدافها .

ست أعمدة للحكمة الجماعية :

يقوم بناء الامم المتحدة وهيكليتها على ست أجهزة رئيسية : الجمعية العامة ، مجلس الامن ، المجلس الاقتصادي والاجتماعي ، مجلس الوصاية ، محكمة العدل الدولية والامانة التي يرئسها الامين العام للمنظمة . وقد أسميتها بالأعمدة الست للحكمة الجماعية لأنها وان يكن كل منها يقف على حدة فالمفروض وفقاً للميثاق ان ينشأ عليها وحولها بناء واحد .

يبلغ عدد موظفي الامانة الآن ١٠،٥٠٠ موظفاً من ١٣٢ دولة عضو منهم نحو ٥٧٠٠ يعملون بمقر الامم المتحدة في نيويورك. وقد بلغت ميزانية الامم المتحدة للسنة الفائتة ٢١٤ مليون دولار وانما تنفق اموال اضافية من تبرعات طوعيـة من الدول

الاعضاء وغير الاعضاء على برامج دولية اخرى كوكالة الامم المتحدة للاغاثة والتشغيل (الاونروا) . وعمليات حفظ السلام في الهند والباكستان والشرق الاوسط وقبرص . كما يعتمد عدد من العمليات على الاكتتاب مثل الوكالات والمنظمات الخمس عشرة المرتبطة بالامم المتحدة واليونسيف وبرنامج الغذاء العالمي

أمامنا الآن من جهة أهداف الامم المتحدة ومبادؤها ومن جهة اخرى الوسائل والاجهزة التي تعتمد عليها والتي سميناها بأعمدة الحكمة الجماعية الستة من اجل تحقيق تلك الاهداف والمبادىء . فالى أي حد نجحت الامم المتحدة في ماتطمح اليه ؟ وما هي قيمة الدور الذي لعبته . هل نجحت الامم المتحدة أم هل فشلت ؟ ماهو مدى فعالية الوسائل التي لديها ؟ ليس بوسعنا الاجابة على هذه الاسئلة بصورة مجردة ولا أن نطلق الأحكام اطلاقاً بل لا بد أن نأخذ قضايا معينة او مشاكل جابهتها المنظمة او قضايا طرحت عليها وحاولت ايجاد حلول لها او أوجهاً اخرى من العلاقات بين الدول أخذت المنظمة المبادهة فيها وسهلت الطريق أمام المجتمع الدولي لاتباعها . ويبدو اننا لن نستطيع أن نحيط بجميع ماتعالجه الامم المتحدة من قضايا . ان قضية واحدة كقضية فلسطين مثلاً او الهند والباكستان او التنمية الاقتصادية او التشريع الدولي او نزع السلاح ... يجد الباحث كتباً عديدة واحياناً مجلدات ضخمة حولها او حصول واحدة منها . وإذن فلا بد لنا أن نقصر بحثنا على عدد من أمهات القضايا الدولية في مختلف الحقول لنرى أي مجرى أخذته العلاقات الدولية . وهذه القضايا هي : حفظ السلام . نزع السلاح . تصفية الاستعمار . التشريع الدولي وحكم القانون .

حفظ السلام :

غالباً ماتشير إلى ربع القرن الذي انقضى بأنه زمن « ما بعد الحرب » كما نتحدث عن أمور نقول انها وقعت « قبل الحرب » . وحين نفعل ذلك فكأننا نقول اننا نعيش في زمن سلام . ومع وجود هذا السلام فاننا جميعاً نعرف ان حروباً كثيرة نشبت في انحاء كثيرة من العالم بل في جميع قارات العالم بعد الحرب العالمية الثانية ، وان الشيء الوحيد الذي استطعنا تجنبه هو وقوع حرب كونية شاملة .

ولقد رأينا كيف ان الميثاق جعل الهدف الاول للمنظمة حفظ السلم والأمن الدولي. ومهما كانت مواقف الدول المتنازعة من العودة للمنظمة وحل منازعاتها بالطرق السلمية

ومهما كان موقف بعض الدول سلبياً من المنظمة فان هذا لايقلل باي شكل من المسؤولية الاساسية للمنظمة في حفظ السلام والأمن الدولي .

وقد نص الميثاق على عدة اجراءات من أجل المحافظة على السلام منها ما اتخذ ومنها ما لم يتخذ . فالميثاق مثلاً خول مجلس الامن استعمال القوة من أجل حفظ السلام والامن أو لاعادتها لنصابها ، لكن مثل هذا الاجراء لم يتخذ الا مرة واحدة في كوريا وتعتبر حالة فريدة لها ظروف معقدة نادرة . كذلك خول الميثاق (المواد ٤٥-٤٧) الامم المتحدة ان يكون تحت تصرفها جيش ووحدات يمكن استخدامها فوراً لاعمال القمع الدولية المشتركة بمساعدة لجنة أركان الحرب التي نص عليها الميثاق أيضاً وان تتشكل من رؤساء أركان حرب الاعضاء الدائمين في مجلس الامن أو من يقوم مقامهم . لكن الاعضاء الدائمين في المجلس لم يتفقوا قط على تشكيل هذه القوى الرادعة أو التي تحول دون وقوع حرب أو اعتداء . وقد تخلى مجلس الامن عن محاولة وضع هذه الترتيبات خلال الاعوام الاولى للمنظمة حين فشلت الدول الكبرى في الاتفاق على مساهمات كل منها في تشكيل قوة تابعة للامم المتحدة . والذي تم في عمليات حفظ السلام التي نفذتها الامم المتحدة حتى الآن ان الجمعية العامة أو مجلس الامن أرسل قوات لمناطق أو أقاليم وقع فيها قتال تدخلت بعده المنظمة فأوقفته ثم أرسلت قوى أو مراقبين أو بعثات للمحافظة على السلام والحيلولة دون تجدد الحرب .

فعمليات حفظ السلام تمت بعد اختلال الامن والسلم الدولي ولم تكن هنالك قوات جاهزة تحول دون وقوع الاحداث التي أدت الى اختلاله .

على أنه قبل أن نذهب أكثر في التحدث عن حفظ السلام، يستحسن أن نعود للجدول التالي (رقم ١) في عمليات حفظ السلام للامم المتحدة .

الجـــدول رقم ١

عمليات حفظ السلام للامم المتحدة .

١ - اليونان : لجنة التحقيق في حوادث الحدود اليونانية ١٩٤٧ .
لجنة خاصة للمشكلة اليونانية ١٩٤٧ .
لجنة خاصة للبلقان ١٩٤٨ - ١٩٥٢

٢ – فلسطين : لجنة خاصة لفلسطين ١٩٤٧
الوسيط الدولي للامم المتحدة ١٩٤٨ .
المراقبون العسكريون لوقف اطلاق النار ١٩٤٩ – ١٩٦٧ .
اتفاقيات الهدنة وجهاز المراقبة للامم المتحدة ١٩٤٩–١٩٦٧ .
لجنة التوفيق الدولية ١٩٥٠ حتى الآن .

٣ – الهند والباكستان : لجنة الامم المتحدة للهند والباكستان ١٩٤٧ .
فريق المراقبين العسكريين للامم المتحدة في الهند وباكستان ١٩٤٨ .
الوسيط الدولي للامم المتحدة ١٩٥٨ .
بعثة الامم المتحدة للمراقبة في الهند وباكستان ١٩٦٥–١٩٦٦ .
المراقبون الدوليون لوقف اطلاق النار ١٩٦١ .

٤ – أزمة قناة السويس ووقف العمليات العسكرية : قوات الطوارىء للامم المتحدة ١٩٥٦ – ١٩٦٧ .

٥ – لبنان والاردن : فريق المراقبين للامم المتحدة في لبنان ١٩٥٨ .
الممثل الخاص للامين العام في عمان ١٩٥٩ .

٦ – الكونغو (كنشاسا قبلا وزائير الآن) عمليات الامم المتحدة في الكونغو ١٩٦٠ – ١٩٦٤
لجنة التوفيق ١٩٦٠ – ١٩٦١ .

٧ – ايريان الغربية : الهيأة التنفيذية الموقتة للامم المتحدة ١٩٦٢ – ١٩٦٣ .

٨ – اليمن : بعثة الامم المتحدة للمراقبة ١٩٦٣ – ١٩٦٤ .

٩ – قبرص : قوة الامم المتحدة في قبرص ١٩٦٤ .

١٠ – جمهورية الدومنيكان : ممثل خاص للامين العام بطلب من مجلس الامن ١٩٦٥ – ١٩٦٦ .

١١ – الشرق الأوسط : مراقبو الامم المتحدة لوقف اطلاق النار ١٩٦٧ .
الممثل الخاص للامين العام ١٩٦٧

١٢ – كوبا ومنطقة الكاريبي : ساعدت جهود الامين العام حكومتي الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة على تجنب الخطر الشديد على السلام كنتيجة لأزمة الصواريخ في كوبا نها في عام ١٩٦٢ .

١٣ – روديزيا الجنوبية : ١٩٦٦ فرض مجلس الامن عقوبات اقتصادية اجبارية منتقاة ضد حكومة الأقلية العنصرية في روديزيا الجنوبية .
١٩٦٨ وافق المجلس بالاجماع على أن تكون هذه العقوبات شاملة وللمرة الاولى يتخذ مثل هذا الاجراء تطبيقاً الفصل السابع من الميثاق

١٤ – غينيا : بعثة مجلس الامن لغينيا ١٩٧٠
للمرة الأولى مجلس الامن يعين البعثة .
وقد كان يرسل ممثلا شخصياً للامين العام .
بعثة ثانية لمجلس الامن بغينيا ١٩٧١ .

١٥ – السنغال : بعثة مجلس الامن للسنغال ١٩٧١ .

وواضح من الجدول السابق لعمليات حفظ السلام ان الامم المتحدة نجحت في ايقاف عدد من الحروب واعادة السلام حين كان السلام مهدداً بل ان بعض هذه الحروب وان تكون موضعية قد أوشكت أن تجر العالم الى شفا حرب جارفة .

٢ – وان دراسة الجدول السابق تظهر ان المنظمة استفادت من وسائلها كالجمعية العامة ومجلس الامن لاعادة السلام وان مجلس الامن خاصة الذي نظر في معظم هذه المنازعات ونجح في ايقافها وحال دون تكرورها قد استخدم احدى الطرق السبعة التي نصت عليها المادة ٣٣ من الميثاق وهي المفاوضة أو التحقيق أو الوساطة أو التوفيق أو التحكيم أو التسوية القضائية أو اللجوء الى الوكالات والتنظيمات الاقليمية .

٣ – وقد حدث خلال ربع القرن الماضي ان سويت بعض المنازعات بالطرق الواردة في الميثاق . ولم يستخدم التحكيم والتسوية القضائيـة الا نادراً اذ ان الدول الاعضاء رغم التزامها بالميثاق لم تكن كثيراً لتسمح لمحكمة العدل الدولية بحل منازعاتها القانونية .

٤ – لا بد من الاقرار ان الامم المتحدة اكتسبت خبرة عملية كبيرة بصدد ادارة عمليات حفظ السلام بالرغم من الصعوبات الكبيرة التي تعترض سبيلها . وفي طليعة هذه الصعوبات الاتفاق على البلاد التي تتشكل قوى الامم المتحدة لحفظ السلام فيها . وشرط موافقة الاطراف المعنية بالنزاع على وجودها في أراضيها ، وتمويلها الذي يتم بالتطوع من قبل الدول الاعضاء . ففي حالتي قـوة الطوارىء في مصر والكونغو رفضت بعض

الحكومات دفع حصتها من التكاليف مما جعل الجمعية العامة تحيل الموضوع هذا لمحكمة العدل الدولية لاعطاء رأي استشاري فيه : أي في ما اذ كان النهوض بالاعباء المالية لحفظ السلام ملزم على جميع الدول الاعضاء أم لا . وكان رأي محكمة العدل الدولية بالايجاب .

لكن هذا الخلاف في الدفع أو عدم الدفع يخفي وراءه خلافاً أعمق حول صلاحية كل من الجمعية العامة أو مجلس الامن أو الامين العام وشكل اتخاذ هذه الاجراءات ومن يتخذها وكيفية تنفيذها ، وهو ما سبق ان أشرنا اليه في مطلع هـذا البحث عن خلاف الدول الاعضاء في مقدار الدور الذي يريدون للمنظمة أن تلعبه في مجال العلاقات الدولية .

٥ — من وسائل حفظ السلام ، بالاضافة الى ما نصت عليه المادة ٣٣ من الميثاق التي سبق أن أشرت اليها ، « الوساطة الحميدة » للامين العام لحل النزاعات بطريقة سلمية وهادئة . ويشمل تعبير الوساطة الحميدة نشاطاً خصوصياً وغير رسمي واسع المدى ، ويشكل جانباً كبيراً من عبء العمل الملقى على عاتق الامين العـام ، وكثيراً ما لا يطلع الجمهور على نشاطات معينة . وفي أحيان كثيرة تطلب الحكومات التي تواجه مشكلات صعبة ودقيقة من الامين العام ان يستعمل وساطته . وفي أحيان اخرى يأخذ بنفسه المبادءة المساعدة في حل مشكلة قد تهدد السلام أو يعمد الى استعمال الحق الذي كما سبق وأشرنا يعطيه اياه الميثاق (المادة ٩٩) لتنبيه مجلس الامن الى اية مسألة يرى انها قد تهـدد حفظ السلم والامن الدولي .

٦ — لا بد من الاشارة أخيراً الى ما ورد في الجدول السابق من ايفاد مجلس الامن بعثة تمثل المجلس للتحقيق واقتراح اجراءات عليه . فقد اعتبر ذلك تطوراً جديداً وهاماً في اضطلاع مجلس الامن بمسؤولياته . فبعد أن كان المجلس يكلف الامين العام ان يرسل ممثلاً واحداً عنه أو لجنة أو وسيطاً فقد قام رئيس مجلس الامن في ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠ هو ذاته بتشكيل الوفد بالتشاور مع الامين العـام الذهاب لغينيا ثم للسنغال للتحقيق بعد أن صوت مجلس الامن على قرار بهذا المعنى . هذا بدوره يخفي خلافاً حول مدى صلاحية المجلس والجمعية العامة والامين العام . فحين ترغب أميركا اعطاء صلاحية أوسع للامين العام أو للجمعية العـامة على حساب مجلس الامن يذهب كل من الاتحاد السوفيتي وفرنسا الى تقوية سلطة مجلس الامن وجعلها هي الاعلى . واذا تساءلنا هل نجح مجلس الامن في المحافظة على الامن العالمي أم لا فالجواب هو مزيج من النجاح أحياناً

والفشل أحياناً أخرى لأن بعض الحروب التي شبت وفي طليعتها حرب فيتنام والحروب الدائرة رحاها في أجزاء أخرى من الهند الصينية تقع خارج صلاحية مجلس الامن .

واذ نحن بصدد تقييم دور الامم المتحدة، لنستمع مرة ثانية الى الامين العام يوثانت يقول في مقدمة تقريره عن أعمال المنظمة في ايلول (سبتمبر) ١٩٧١ ما يلي :

٧ – انني اخالف بشدة اولئك الذين يحاولون أن يغضوا من انجازات المنظمة الدولية ، فما بوسع الامم المتحدة أن تكون إلا ما يريد لها اعضاؤها أن تكون . وقد كان تأثيرها على اتجاهات عصرنا الكبرى ، رغم الكثير من العوائق والعراقيل ، تأثيراً لايستهان به . فلقد حدث مثلا ، خلال السنوات العشر الاخيرة ، أن ثارت عدة نزاعات، بعضها مسلح ، كانت الدول الاعضاء أطرافاً فيها ، فتمكنت الامم المتحدة في حالات عديدة ان تعاون في ايجاد حل سلمي ، كما حدث مثلا في الكونغو ، وفي النزاع بين هولندا واندونيسيا حول ايريان الغربية، وفي ازمة الصواريخ الكوبية ، وفي الحرب التي قامت بين باكستان والهند عام ١٩٦٥.

٨ – وحتى حين تعذر الوصول الى تسوية دائمة ، ساعدت الامم المتحدة على تخفيض مدة القتال وتخفيف حدته ، فنظمت وراقبت من قرارات الهدنة ووقف اطلاق النار ما أدى ، أيا كان مبلغه من التقلقل ، الى أن يسود الهدوء في كشمير وقبرص والشرق الاوسط . وللامم المتحدة أن تفخر بأن عدداً كبيراً من الارواح البشرية تقدر له النجاة كل يوم بفضل هذه الجهود ، وان المناقشة تستبدل بالنزاع المسلح ، وان السبيل يمهد لتسويات أطول أمداً. كذلك فكثيراً ما كانت المنظمة تستخدم كحلقة اتصال في المفاوضات، كما انها تشارك في تسوية كثير من المنازعات تسوية سلمية ، بطريقة لعل الميثاق لم يأخذ بها في حرفية نصه الا انها تتمشى كل التمشي مع روحه .

٩ – وكما سبق لي ان أشرت في مناسبات اخرى ، فان النزاعات التي تحدث خارج اطار الامم المتحدة هي التي يبدو عادة ان الامل ضئيل بامكان انهاء اراقة الدماء فيها على الفور . ويصدق هذا على الحرب المدمرة الناشبة في الهند الصينية ، وهي حرب تشتبك فيها عدة اطراف لاتنتمي الى المنظمة . ولو كان شعبا الصين والفييتنام ممثلين في هذه المنظمة لكانت هناك ، فيما اعتقد ، فرص لاجراء المفاوضات في تاريخ أسبق وبثمرة أكبر .

نزع السلاح :

رأينا أن بين أول أهداف المنظمة حفظ السلام والامن الدولي . وبين الخطوات الرئيسية المؤدية لذلك نزع السلاح أو تنظيم التسلح وهذا ما عهد به الميثاق الى كل من الجمعية العامة ومجلس الامن . ورأينا أيضاً في القسم الاول من هذا البحث مقدار ماتهدد الانسانية كلها من جراء سباق التسلح، ويكفي أن نستذكر هنا . ان كل دولة من الدولتين الكبريين تستطيع بما خزنته من أسلحة تدمير الاخرى وتدمير الكرة الارضيـة لا مرة واحدة بل مرات . ومنذ الخمسينات صوتت الجمعية العامة على عدة قرارات وعقدت المنظمة وما زالت عدة مؤتمرات ووضعت عدة اتفاقيات للحد من التسلح . وأهم انجازاتها في هذا المضمار هي الآتية :

في عام ١٩٥٩ قبلت الامم المتحدة بالاجماع النزع العام والشامل للسلاح هـدفاً للمنظمة . وفي عام ١٩٦١ اتفق كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة على وضع صياغة للبيان المشترك الخاص بالمبادىء المتفق عليها لمفاوضات نزع السلاح . وفي عام ١٩٦٣ وقع الاتحاد السوفيتي وبريطانيا والولايات المتحدة اتفاقية موسكو لحظر تجارب الاسلحة النووية ، وفي العام ذاته وافقت الجمعية العامة بالاجماع على اتخـاذ قرار بمنع استخدام الاسلحة النووية في الفضاء الخارجي . وفي عام ١٩٦٦ ابرمت اتفاقية خاصة بالفضاء الخارجي تعترف بالمصالح المشتركة للبشرية في استخدام الفضاء الخارجي للاغراض السلمية . وفي عام ١٩٦٧ وقعت في عاصمة المكسيك اتفاقية منع الاسلحة النووية في امريكا اللاتينية . وفي عام ١٩٦٨ أوصت الجمعية العامة بالموافقة على اتفاقية منع انتشار الاسلحـة النووية وأصبحت هـذه الاتفاقية نافذة المفعول اعتباراً من يوم ٥ (مارس) آذار ١٩٧٠ . وفي عام ١٩٧٠ أعلنت الجمعية العامة أن عقد السبعينات هو عقد نزع السلاح ودعت الحكومات الاعضاء الى عقد اتفاقية لنزع السلاح نزعاً عاماً وكاملاً في ظل رقابة دولية صارمة وفعالة . وفي عام ١٩٧٠ تم الاتفاق على معاهدة تحظر وضع الاسلحة النووية وغيرها من أسلحة الافناء بالجملة في قاع البحار والمحيطات والتربة التحتية لها . وفي عام ١٩٧١ وضعت الجمعية العامة اتفاقية خاصة بحظر تطوير وانتاج وتخزين الاسلحة البكتريولوجية والسامة وبتدميرها وهي أول اتفاقية من نوعها . وفي ١٠ نيسان (ابريل) ١٩٧٢ وقع عليها اكثر من ٧٠ دولة بينها الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة وبريطانيا .

على انه بالرغم من هذه الخطوات والاتفاقيات والمعاهدات كلها فان سباق التسلح لم يتوقف وهو مازال آخذاً بالاضطراد . ورغم التحذيرات المتنوعة والمتكررة والعديد من القرارات التي صوتت عليها الجمعية العامة بأغلبية وبالاجماع أحياناً ونداءات الكثيرين من قادة العالم لوقف تسابق التسلح ورغم شعور القلق العميق الذي يسود البشرية جمعاء فان اولئك الذين يريدون وقف حركة التسلح الولبية لم يتمكنوا للآن حتى من منافسة اولئك الذين يجعلون الاسلحة موضع اهتمامهم الاول باعتبارها وسيلة لاقرار الامن على الصعيدين القومي والدولي .

التسلح والتنمية :

أعارت المنظمة اهتماماً خاصاً للعلاقة بين التسلح وما ينفق عليه وتأثير ذلك على التنمية . ووضعت من أجل ذلك دراستين في الموضوع الاول لعقد الستينات والثانية لعقد السبعينات . ومن الدراسة الثانية ظهر ان مصروفات العالم ارتفعت في العقد الماضي من ١٢٠ مليار سنوياً (بليون) دولار الى ٣٠٠ مليار (بليون) دولار سنوياً أي ما يعادل مجموع الدخول السنوية للدول النامية وما يعادل حجم ميزانية الامم المتحدة الف مرة . ان ست دول عظمى فقط وهي الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين الشعبية وفرنسا وبريطانيا والمانيا الغربية تنفق أربعة اخماس مصروفات العالم كلها . واذا قارنا نفقات التسلح بما ينفق على التنمية لوجدنا مفارقات قوية . فالمصروفات العسكرية تبلغ ثلاثة أضعاف ما تنفقه كافة الحكومات على الصحة ونحو ضعف ما ينفق على التعليم، واكثر بثلاثين مرة من كل المساعدات الاقتصادية الرسمية التي تقدمها الدول المتقدمة للدول النامية . ان نحو ٤ (بليون) مليار دولار تنفق مثلاً على الابحاث الطبية في العالم بينما تنفق ٢٥ (بليون) مليار دولار في السنة الواحدة على البحوث العسكرية وتطوير الاسلحة . وأظهرت الدراسات بشكل قاطع مقدار ما يسيء سباق التسلح للتجارة الدولية ويخفض من حجم المساعدات للدول النامية . وتبلغ مساعدات التنمية الرسمية « وهي نحو ٧ بليون (مليار) دولار سنوياً ، أي $\frac{1}{20}$ من مصروفات الدفاع » ثلثا من واحد في المائة من مجموع الانتاج القومي الكلي لكل الدول مقدمة العون . فان حول ٥٪ من المصروفات الحالية من التسلح الى التنمية ، لاقترب من تحقيق الهدف الذي رسم لعقد التنمية الثاني للامم المتحدة (أي ٠٫٧٪ من الانتاج القومي

الكلي للدول مقدمة العون) . ولذا فان هناك علاقة وثيقة بين برنامجي الامم المتحدة التوأمين للسبعينات : وهما عقد نزع السلاح وعقد التنمية (راجع : نفقات سباق التسلح : ٢٠ سؤالاً وجواباً من نشرات مركز المعلومات الاقتصادية والاجتماعية التابع للامم المتحدة) كل هذا جعل الامين العام يوثانت يقارن في تقريره السنوي لعام ١٩٧١ بين الحاجات الصارخة في جميع مجالات الصحة والتغذية والتعليم وضروريات الحياة الاساسية في البلاد النامية وبين ما ينفق على التسلح . وتحدث عن البؤس الصارخ في العالم الثالث وما يجب أن يلقاه من تفهم وتعاطف وكان من جملة ما قاله :

« اذا اريد للعالم البقاء والازدهار فلا بد من احراز تقدم في السبعينات في كل من مجالي نزع السلاح والانماء ، فان أهداف عقد نزع السلاح وأهداف عقد الامم المتحدة الانمائي الثاني متصلة ببعضها البعض ، والتقدم المحرز في أي منها ستكون له آثار طيبة على الآخر وسيسهل خلق ظروف مواتية للسلم والعدالة والتقدم في العالم » .

تصفية الاستعمار :

لقد رأينا كيف أفرد الميثاق فصلين يتعلقان بالاقاليم والبلدان التي لم تنل استقلالها : الحادي عشر المتضمن التصريح المتعلق بالاقاليم التي لا تتمتع بالحكم الذاتي ، والثاني عشر « في نظام الوصاية الدولي » لاخراج الشعوب غير المستقلة من التبعية الى الاستقلال .

وتعتبر انجازات الامم المتحدة في هذا المضمار من أهم انجازاتها . ويكفي أن نذكر أن عدد الدول الأعضاء في الامم المتحدة قد ارتفع من ٥١ سنة تأسيس الأمم المتحدة الى ١٣٢ في نهاية الدورة الاخيرة (٢٧) التي انقضت . وان بين أولى مميزات النصف الثاني من القرن الذي نعيش فيه هو ان الاغلبية الساحقة من العالم الثالث الذي نحن جزء منه قد وجدت طريقها الى الاستقلال والسيادة وتقرير المصير وحلت الدول المستقلة حديثاً محل الامبراطوريات الاستعمارية ، وأخذت مراكزها في الهيئة العالمية . ان شعوب العالم الثالث هذا خرجت من دور الانفعال الى دور الفعل واصبحت واعية لذاتها وقدرها تساهم في صنع الاحداث وتكوين حياتها بعد أن كانت تعيش في الاهمال والنسيان . واصبحت بالتالي موضع اهتمام التاريخ والمؤرخين المعاصرين بعد أن كانت مجرد مشكلة ادارية للحاكم المستعمر .

وقد لعبت الامم المتحدة دوراً هاماً في تصفية الاستعمار . فتوقيع الميثاق بالذات الذي تضمن بين مبادئه الأساسية مبدأ التساوي في السيادة والحقوق والحريات الاساسية للناس جميعاً بما في ذلك حق تقرير المصير أعطى في وقت واحد سنداً وحافزاً قويين لتحرير الشعوب . وبين أهم القرارات التي صوتت عليها الجمعية العامة القرار رقم ١٤١٥ تاريخ ١٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٠ الذي يشار اليه بـ « الاعلان الخاص بمنح الاستقلال للاقطار والشعوب المستعمرة » والذي أكدت فيه المنظمة وجوب تحقيق تصفية سريعة وغير مشروطة للاستعمار بكافة اشكاله ومظاهره ، وان اخضاع الشعوب للسيطرة الاجنبية هو انكار للحقوق الأساسية للانسان » وانه يجب أن يجري على الفور « في جميع الأقاليم المشمولة بالوصاية وغير المتمتعة بالحكم الذاتي أو كل الاقاليم الاخرى التي لم تحصل بعد على الاستقلال ، اتخاذ خطوات تقل جميع السلطات الى شعوب تلك الاقاليم دون أية شروط أو تحفظات وذلك وفقاً لارادتها ورغبتها التين تعبر عنهما في حرية دون أي تمييز بسبب العنصر أو العقيدة أو اللون حتى تتمكن من التمتع بكامل الاستقلال والحرية » .

وتنفيذاً لهذا الاعلان شكلت الجمعية العامة في عام ١٩٦١ « لجنة تصفية الاستعمار » التخبت في الأصل لها سبعة عشر عضواً ثم وسعتها عام ١٩٦٢ الى اربعة وعشرين عضواً .

واللجنة هذه تظل في حالة انعقاد دائم مابين اختتام دورة الجمعية العامة وبدء افتتاحها . ومنذ تشكيلها حتى السنة الماضية عقدت اجتماعات في افريقيا وآسيا والشرق الأوسط وزارت العديد من الأقاليم التي لم تستقل وساهمت عملياً في انجاز استقلال عدد منها . نذكر على سبيل المثال لا الحصر اليمن الجنوبية ومسقط وعمان التي أصبحت أعضاء في الأمم المتحدة . ومن أهم النواحي التي تعرضت لها اللجنة دراسة المصالح الاقتصادية الأجنبية وتأثيرها في اعاقة منح الاستقلال .

وفي عام ١٩٧٠ احتفلت الجمعية العامة بمرور عشر سنوات على الاعلان الخاص بشأن تصفية الاستعمار وأصدرت قراراً جديداً يتضمن برنامجاً للعمل من أجل التنفيذ الكامل للاعلان أكدت فيه أن بقاء الاستعمار بأي شكل « يعتبر جريمة ضد الميثاق وضد القانون الدولي » . كما أكدت أيضاً حق الشعوب المستعمرة « في النضال بكل الوسائل الضرورية » ضد الدول الاستعمارية التي تمارس القمع ، وتأييدها لهذا النضال ودعوتها لجميع الدول الأعضاء لتأييده ومناصرته باعتباره حقاً مشروعاً . وتضمن البرنامج بين

ماتضمنه الدعوة أيضاً لشن حملة ضد جميع النشاطات الاقتصادية والعسكرية للدول الاستعمارية التي تعرقل تقرير المصير والقيام بحملة اعلامية لتوعية الشعوب من أجل العمل الفعال لتحقيق تصفية الاستعمار .

ولو نحن تساءلنا عن مدى نجاح المنظمة الدولية في هذا المضمار لأوردنا في النواحي الايجابية ماسبق أن أشرنا اليه من تحقيق الاستقلال لعدد غير قليل من الدول الاعضاء. ولم تشكل هذه الزيادة فارقاً كمياً في المنظمة فحسب بل ونوعياً أيضاً . ذلك انه كان لهذه البلدان الجديدة تأثير بليغ على المنظمة ليس فقط من حيث التصويت وامكان دول العالم الثالث أن تنجح أو تفشل أي قرار تريده عندما تتفق كلمتها وتوحد صفها بل أيضاً في ما يتعلق بمفهوم دور الأمم المتحدة وأهدافها . وفي طليعتها ما أثارته دول العالم الثالث من تساؤلات وتشكيك في سلامة النظام الدولي القائم بكامله وما ذهبت اليه من ضرورة اعادة النظر فيه . ويتضح ذلك أكثر ما يتضح في نقدها النظام الاقتصادي الدولي القائم والفجوة بين الدول الغنية والفقيرة الآخذة بالاتساع ومحاولة سدها بتصحيح النظام الاقتصادي الدولي . ومثل ذلك يتضح أيضاً في معالجة المنظمة القضايا الاجتماعية وبسط سيطرة القانون الدولي بحيث جاءت النتيجة في مجموع عمل المنظمة انها أصبحت أصدق تمثيلاً للعالم وأكثر توازناً . ونذكر كمثال أيضاً أن عودة الصين الشعبية لاستعادة مقعدها الشرعي وحقوق عضويتها في الامم المتحدة — مما أعطى المنظمة توازناً أكثر — ما كان ليتم لولا أصوات دول العالم الثالث التي خلقت نمطاً جديداً للتصويت يختلف عن النمط الذي ساد المنظمة حين كان لأميركا مثلاً أكثرية عددية « آلية » (أي ما عرف بـ : Mechanical Majority) تستطيع بالاعتماد عليها أن تحصل على أية نتيجة كانت تريدها من المنظمة .

وجدير بالذكر أيضاً مما يهمنا خاصة وكنتيجة لسعي الوفود العربية في الجمعية العامة ولجانها ان قضية فلسطين وضعت في اطار استعماري وقرنت الهيئة الدولية بين نضال شعب فلسطين العربي من أجل حق تقرير المصير ونضال الشعوب التي لم تستقل بعد كشعوب جنوب افريقيا والمستعمرات البرتغالية . فقد صوتت الجمعية العامة في ١٠ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٦٩ على قرار (رقم ٢٥٣٥) أكدت بموجبه « ان مشكلة اللاجئين العرب نشأت من انكار حقوقهم الاساسية التي لايمكن التنازل عنها » . وأولها حق تقرير المصير وفقاً لميثاق المنظمة وللاعلان العالمي لحقوق الانسان . وقد أكدت الجمعية

العامة هذا القرار مشددة انه « لايمكن تحقيق سلام عادل دائم في الشرق الاوسط دون اقراره » في كل سنة بعد التصويت عليه ، وزاد من قوته ماصوتت عليه الجمعية العامة في ١٩٧٠/١١/٣٠ من قرار « تدين بموجبه تلك الحكومات التي تنكر حق تقرير المصير للشعوب المعترف لها بهذا الحق خصوصاً شعبا افريقيا الجنوبية وفلسطين » .

اما من الناحية السلبية فنشير الى وجود أقاليم واسعة وملايين من الناس مازالت ترزح تحت عبء الاستعمار وتعيش في قيوده دون ان تسترد حقوقها بعد كشعوب افريقيا الجنوبية وجنوب غرب افريقيا المعروفة « بناميبيا » والمستعمرات البورتغالية انجولا وموزامبيق وغينيا « بيساو » وروديزيا الجنوبية وفلسطين حيث تقوم الانظمة الاستيطانية في هذه المناطق كلها على التمييز العنصري و « الابارتهايد » الذي ادانته المنظمة بشدة واعتبرته جريمة ضد الانسانية . لكن حكومة جنوب افريقيا مستمرة في تطبيقه . وقد اعتبر مجلس الامن ان هذه السياسة العنصرية تشكل خطراً على المجتمع الدولي ففرض حظر ارسال الاسلحة لجنوب أفريقيا وعاد فأكد هذا الحظر عام ١٩٧٠ ، كما ان الجمعية العامة دعت في آخر دورة لها لفرض الحظر الشامل لارسال الاسلحة الى جنوب افريقيا ، ومع ذلك تمكنت حكومة جنوب افريقيا من زيادة تسلحها لأن العديد من الدول وبينها بعض الاعضاء الدائمين في مجلس الامن يبيعونها الاسلحة . كذلك لايزال نظام الاقلية البيضاء مستولياً على الحكم في روديزيا الجنوبية . ومع ان مجلس الامن فرض العقوبات الاقتصادية على حكومتها وأدى ذلك الى خفض حجم تجارتها الخارجية ، لكنه لم يؤد الى اسقاط نظام الحكم فيها .

التشريع الدولي وحكم القانون :

يعتبر ميثاق الامم المتحدة من حيث أنه يضع الأسس والقواعد الكلية لتنظيم العلاقات بين الدول ، حجر الزاوية لنظام دولي يقوم على القانون ويدعو الى احترامه . والميثاق تبنى كل ماسبقه من قواعد واعراف وتقاليد في القانون الدولي ونص على ذلك في المادة ٣٨ من النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية – وهي جزء لايتجزأ من الميثاق – اذ عرفت القانون الدولي بأنه يتشكل مما يلي :

أ – الاتفاقات الدولية العامة والخاصة التي تضع قواعد معترفاً بها صراحة من جانب الدول المتنازعة .

ب ـ العادات الدولية المرعية المعتبرة بمثابة قانون دل عليه تواتر الاستعمال .

ج ـ مبادىء القانون العامة التي اقرتها الامم المتمدنة .

د ـ احكام المحاكم ومذاهب كبار المؤلفين في القانون العام في مختلف الامم .

فالميثاق من حيث أنه تبقى كل ما أقرته الأمم من قانون دولي حسبما عرفه في المادة السابقة يعتبر نهاية وبداية . نهاية لكل ماسبقه وبداية لكل مالحقه . وهكذا يصبح الميثاق أكبر معاهدة متعددة الأطراف عرفها التاريخ البشري حتى الآن . وهو من حيث الهدف يطمح لأن يصبح نظاماً يحكم العلاقات بين الدول الاعضاء بدليل مانصت عليه المادة ١٠٣ : « اذا تعارضت الالتزامات التي يرتبط بها أعضاء الامم المتحدة وفقاً لأحكام هذا الميثاق مع أي التزام دولي آخر يرتبطون به فالعبرة بالتزاماتهم ، المترتبة على هذا الميثاق » .

بيروت

الدكتور عبد السلام العجيلي

رسائل قديمة جديدة

اشبيلية ٧ شباط - فبراير ١٩٥٧

عزيزي سلام

لم أكتب اليك قط قبل الآن . إلا أن رسالتك الاخيرة الى جيري دفعتني الى الاجابة شخصياً على شروحك السياسية وعلى نبوءاتك .

هل تعتقد حقاً يا صديقي أن الولايات المتحدة جادة في تهديم استقلالكم القومي وفي تحويلكم الى عبيد مثلما تفعل ، فيما أرى ، روسيا ؟ فلنتأمل قليلاً في تصرفات البلدين منذ الحرب العالمية الثانية ، ولنحكم .

لقد منحت الولايات المتحدة الفيليبين استقلالاً غير مشروط (وكنت أنا شخصياً هناك في ذلك اليوم المشهود ، يوم ٤ تموز من عام ١٩٤٦) ، بينما كانت روسيا في الوقت نفسه تقسم المانيا وتلقي المانيا الشرقية في اغلال العبودية .

وقد تولت الولايات المتحدة بالحماية اندونسيا ضد صديقتنا الاستعمارية العتيقة ، هولاندا ، بدون أية ارتباطات ملزمة .

وفي الوقت الذي تدين فيه الولايات المتحدة حليفتيها انكلترا وفرنسا لاجتياحهما أراضي مصر ، يأتي قمع روسيا للثورة المجرية من أحسن الأمثلة التي تعيننا في رؤية الفارق وأين يكون .

لقد كان من حظي أني عملت في الجامعة الامريكية في بيروت في سنة ١٩٥٢ . ان هذه المؤسسة شجعت كثيراً « يقظة العرب » ، بل انها كانت مسؤولة بعض الشيء عن هذه اليقظة . هل تذكر كتاب جورج انطونيوس ؟ لقد أعطتني هذه الجامعة شعوراً بالاعتزاز وأنا بين أصدقائي الحقيقيين ، العرب ، بكوني أمريكياً . ولكني الآن متخوف بعض الشيء من تحول النقمة والحقد على اسرائيل ، ولهما في الواقع ما يبررهما ، ومن تحول الارتيابات المبالغ فيها بالغرب الاستعماري ، الى فكرة ثابتة ومتعصبة شوشت الرؤية على عقلكم النير وأوهمتكم بأنكم قادرون على أن تستخدموا الروس في غاياتكم القومية .

لأقل لك : ما من انسان استطاع أن يستخدم الشيوعيين في ذات يوم ، وانما هم الذين استخدموا الآخرين . والتاريخ المعاصر مليء بالأمثلة : الهند الصينية ، غواتيمالا ، كوبا ، المجر .. فلنسأل الله أن لايكون لسورية نفس الحظ .

هل تعرف أن عندكم الآن ضباطاً شيوعيين يتولون اعداد جيشكم وتدريبه ؟ وان التحقيق الوحيد الذي نشرته صحف دمشق عن قمع ثورة المجر هو التقرير الذي نشرته وكالة تاس السوفييتية ؟

اننا طبعاً لانتصور انكم أمسيتم شيوعيين ، ولكني قلق من أنكم خولتم الروس في بلادكم سلطاناً سيكون عسيراً عليكم استرداده حين تريدون ذلك .

وبالعكس ، فأنا متأكد من أن مشاكل الشرق الأوسط المعقدة يمكن أن تحل بصورة تدريجية لو أن حليفكم كان الولايات المتحدة ، لاسيا اذا اخذنا بعين الاعتبار أن الولايات المتحدة كانت مستعمرة في القديم .

ولأنفي كل شك يتبادر الى ذهنك أيها الصديق عند قراءة هذه الرسالة ، أود أن تعرف اني احمل مودة كبيرة للعرب . لقد امضيت عامين في مراكش في عهد حافل بالاضطرابات وكنت سعيداً حقاً في كل خطوة خطاها ذلك البلد نحو الاستقلال . كما اني اشاركك الوثوق باستقلال الجزائر المحتوم . ولكن ، من خلال المناورات الصعبة التي تدار لطرد الفرنسيين المعتصمين في بلادكم ، فلنحاول أن نبعد الخطر الذي يتأتى من الشيوعيين، بالابتعاد عن الاستعانة بهم (كما استعان بهم حزب الاستقلال المنكود الحظ). انكم لو استعنتم بهم لن تستطيعوا التخلص منهم أبداً ، وأنا واثق من انهم سيكونون أسوأ من الفرنسيين بما لايقاس . ألا توافقني على هذا ؟

رجاء ، سأكون كثير الامتنان لو اني تلقيت جواباً على هذه الرسالة ، ذلك لاني أرى وجهة نظرك جد مهمة بالنسبة الي .

وتفضل بقبول تحياتي الودية والخلصة

مايكل س . ب .

هذه الرسالة القديمة ، وهي مكتوبة في الأصل بالانكليزية ، المرسلة من أشبيلية في اسبانيا ، والتي كنت تلقيتها في أوائل عام ١٩٥٧ ، عثرت عليها منذ أيام في أوراقي مع مثيلات لها تبادلتها مع مايكل ب . ، أو مع زوجته جير الدين (جيري) . لما أعدت قراءة تلك الرسائل تبينت كم هي ، على قدمها ، جديدة ومعاصرة في المواضيع التي تحدثنا فيها ، أنا وجيري ومايكل ب . بل اني تبينت كم هي سابقة لزمنها في التقديرات التي تضمنتها ، بالنسبة الى الفترة التي كتبت فيها . ولذا فاني لم استطع مقاومة الاغراء الذي اثارته في قراءة تلك الرسائل للحديث عنها ، ولترجمة بعض ما دار بيني وبين صديقي الامريكيين فيها من مناقشات ولايراد ما سماه مايكل ب . شروحي السياسية وتنبؤاتي التي أطلقتها في ذلك الوقت . ولقد تمنيت في الواقع لو اني ملكت العنوان الحالي

لصديقي الامريكيين كي اكتب اليها مجدداً ، ولا سيما بعد أن وضع الرئيس نيكسون العالم في ذات يوم على شفير الهاوية بتأهبه النووي المشهور ، اذن لكتبت الى مايكل ب . : ألم أقل لك ؟ ارجع يا صديقي الى رسالتي الأخيرة لتدرك ان تقديراتي التي سميتها تنبؤات ستصح في يوم مقبل بالنسبة الى فلسطين وأرضها وشعبها ، مثلما صحت بالنسبة لاستقلال المغرب ولاستقلال الجزائر ، وكما صحت بالنسبة للاختيار الخطير الذي قلت لك ان الولايات المتحدة ستجد نفسها أمامه عاجلاً أو آجلاً .

والصحيح أنه لم يكن بيني وبين مايكل ب . ، مرسل الرسالة التي ترجمتها آنفاً ، معرفة شخصية . لقد توثقت بيننا الصلة ودارت بيننا المراسلات عن طريق معرفتي بالآنسة جين الدين ل . (جيري) ، التي لقيتها في باريس منذ أكثر من عشرين عاماً . كانت هذه الفتاة الامريكية ، الجميلة والذكية ، قد امت في ذلك الحين باريس لقضاء عطلة الصيف فيها كسائحة ، فجمعتنا في العاصمة الفرنسية موائد مقاهي الحي اللاتيني حيث تبادلنا الاحاديث والآراء، ثم افترقنا كل الى بلده وما في ظننا أن أحدنا سيسمع باسم الآخر بعدها . غير اني عدت في السنة اللاحقة الى بلدي ، بعد جولة أخرى لي في أوروبا، فلقيت في انتظاري رسالة من جين الدين ل. تعلمني فيها بأنها أصبحت مسز ب. بعد أن تزوجت السيد مايكل ب . ، وبأنها أغرت زوجها بأن يقضيا رحلة الزواج بين سورية ولبنان وفي نيتها أن تعرف أحدنا بالآخر ، أنا وزوجها ، ثم تبدي أسفها لأنها لم تجدني في بلدي . وتتالت بيننا ، بعد ذلك ، الرسائل. لم تكن رسائلنا المتبادلة كثيرة، ولكنها كانت ذات قيمة خاصة . فقد تبين لي أن الزوجين مايكل وجين الدين كانا كثيري التجوال ، وان اهتمامها ، أو بالاحرى أن اهتمام مايكل الذي يبدو وكأنه هو الذي كان يملي الرسائل على زوجته، ان اهتمام مايكل بالسياسة كان كبيراً، وهو أمر لم يكن مألوفاً من أمريكي عادي ، ولا سيما اذا كان يعمل مهندس تصميم بحري ، كما هو أمر زوج صديقتي هذا . كانت رسائل جيري إلي تحوي ملاحظات قد تكون سيقت بعفوية ، غير اني كنت أجد بعضها شديد الاثارة للجدل مما كان يدفعني الى أن أجيب عليه بردود أو توضيحات يبدو أنها كانت تحظى باهتمام مراسلتي ، أو باهتمام زوجها على الأصح . وكمثال على ذلك أسوق رسالة من جيري الي أترجم نصها فيما يلي :

بورت ليوتي ، مراكش الفرنسية

١٤ كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٥٣

عزيزي سلام

ها قد مضى عام كامل منذ سلوكنا طريق العودة الى الولايات المتحدة من بيروت. أرجو أن تصل اليك هذه التحيات وانت في أحسن حال ، سعيداً ومنجزاً أشياء عظيمة في الرقة ، بلدتك .

أنا آسفة لأني لم أتمكن من الكتابة اليك قبل الآن ، ولكننا ذهبنا من باريس الى لندن ، ثم الى نيويورك ، والى سان فرنسيسكو ، والى نيويورك ثانية . وبعدئذ سافر مايك ، زوجي ، الى بيرو في امريكا الجنوبية على أن ألحق به الى هناك . الا أنه عاد في أيار الى الولايات المتحدة . وفي تموز جئنا الى هنا ، الى بورت ليوتي في مراكش الفرنسية ، حيث نعتزم البقاء حتى تموز – يوليو المقبل .

لقد وجدنا مراكش بلاداً غريبة ومثيرة للاهتمام . زرنا فيها طنجة وفاس ومدينة مراكش ، وبلغنا حتى ورزازات على الجانب الآخر من الأطلس الأكبر . وقد فضلنا القسم الداخلي من البلاد على مدن الساحل ، ووجدنا حي المدينة في فاس مثيراً حقاً . الا أني أعتقد أن هواءنا الأول يظل هو الشرق الأوسط . وبالطبع فان أكثر وقتنا هنا ننفقه في العمل في القاعدة البحرية : مايك يعمل مهندس تصميم ، وأنا أعمل في قسم المحاسبة . والأهم من هذا ، اننا ننتظر طفلا في حزيران .

هذه ، باختصار ، أخبارنا . الرجاء أن تعلمنا من ناحيتك عن حالك وعن أمورك : هل قمت برحلة في الصيف الفائت ؟ هل توسعت في عملك في عيادتك ؟ وعن كتاباتك ، وربما بكلمة عن السياسة . نحن مهتمون كثيراً بالشيشكلي عندكم . اني أعتقد أنك من أكثر أصدقائنا في الشرق الأوسط اطلاعاً ، ونحن نقدر أية وجهة نظر تبديها لنا بصفتنا متعاطفين مع العالم العربي ومهتمين بكل قضاياه. لقد وجدنا هنا أن مايدعون بالعرب ، أي المغاربة م من طراز آخر . ومع أننا لانوافق على كل مايفعله الفرنسيون هنا ، فاننا نتساءل عن معقولية استقلالهم في هذا الزمن .

وأطيب التمنيات اليك من ،

المخلصة

جيري ب .

العنوان : بواسطة ستير زغروف ـ القاعدة البحرية ـ بورت ليوتي ـ مراكش الفرنسية ـ

تلقيت هذه الرسالة من جيرالدين في نهاية عام ١٩٥٣ ، مع بطاقة عيد الميلاد لذلك العام ، وكانت جديرة بأن تدعوني الى اجابة ودية أشكر لها ولزوجها فيها عواطفهاالطيبة نحو بلادنا ، لولا الجملة الأخيرة التي انتهت بها الرسالة : ومع أننا لانوافق على كل مايفعله الفرنسيون هنا ، فاننا نتساءل عن معقولية استقلالهم (استقلال المغاربة تعني) في هذا الزمن .

أثارتني هذه الجملة . كنت واثقاً من أن صديقتي الامريكية كتبتها بعفوية ، وعن رأي تعتقد بصحته ، ودون أن تتقصد به الاساءة إليّ . غير أن هذه العفوية في الحكم على شعب عربي ، هو الشعب المغربي ، بأنه غير جدير بالاستقلال ، أغاظتني . أذكرأني رددت عليها يومئذ برسالة حاولت أن أبتعد فيها عن الانفعال . بدأت فقلت لها أن ماذكرته عن اهتمامهاواهتمام الأمريكيين بصورة عامة بالشيشكلي ، الذي كان يحكم سورية في تلك الأيام ، جدير بأن يسوقني الى شكري لها ولهم . فالشيشكلي صديق شخصي لي ، وأنا أقدّر كثيراً من خصاله ، ولكني أعتقد أن اهتمام الامريكيين واعجابهم به يعني بالنسبة اليه بداية النهاية . أما عن رأيها في معقولية استقلال شعب المغرب ، فقد قلت لها انها لو زارت سورية ولبنان حين كانا خاضعين للانتداب الفرنسي لحكمت على شعبنا فيها بحكمها اليوم على شعب المغرب الذي تراه مقيداً بقيود الحماية الفرنسية . ان الاستعمار يملك من القوة مايستطيع به أن يقمع من ارادة الشعب للحرية مظاهرها . ولكن الارادة نفسها لاتقمع . قلت لها ان شعب المغرب ، مثل كل شعب عربي يكبله الاستعمار بقيوده ، يريد حريته واستقلاله ، ولهذا فانه سيحصل عليها حتماً ، وفي وقت أقرب مما يظنه الغربيون فلن تنقضي على الأرجح ثلاث سنوات أو أربع إلا ويكون المغرب العربي حراً مستقلاً .

لم يكن قصدي في تعيين الأمد الذي رجحت أن تستقل فيه مراكش أن أطلق نبوءة واسوقها الى جيرالدين ب . بل كان هذا تقديري المستند الى تتبعاتي لنضال شعب المغرب والى تخبط فرنسا في سياستها الاستعمارية حين نفت السلطان محمد الخامس من بلاده ونصبت مكانه السلطان بن عرفة . ولقد صح التقدير . فما انقضت ثلاث سنوات حتى اعلن استقلال المغرب العربي في ٢ آذار — مارس عام ١٩٥٦ ، وهذا مادعا جيرالدين ب . الى أن تضمن بطاقة عيد الميلاد لعام ١٩٥٦ رسالة تهنئني فيها باستقلال هذا البلد العربي ، وتضيف ممازحة أنها أصبحت تترقب تنبؤاتي باهتمام زائد . لقد أزيح الشيشكلي عن الحكم في سورية قبل مرور شهرين على تاريخ قولي لها ان نهايته بدأت ، وخرج

الفرنسيون من المغرب في الفترة التي عينتها لاستقلاله ! أجيت في هذه المرة على رسالة صديقتي الاميركية بمزاح مثل مزاحها في الظاهر ، غير أني ماكنت أعني به الا الجد . فقد قلت لها في رسالة بعثت بها اليها في مطلع عام ١٩٥٧ أنها مادامت تريد تنبؤاتي فاني سأسوق اليها بعضها . ولما كانت صولة فرنسا على الثوار الجزائريين المطالبين باستقلال بلادهم على أشدها في تلك الأيام ، فقد قلت لها اني أتنبأ بأن الجزائر ستقهر قوة فرنسا العسكرية وستنتصر بأن تنال استقلالها التام ، ربما ليس بالسرعة التي نال بها المغرب استقلاله ، ولكنها ستناله حتماً . وأهم من ذلك ، وهذا ماقلته في تلك الرسالة ، أهم من ذلك أن فلسطين ستتحرر من احتلال اليهود لبعض أرضها وأن اسرائيل سوف تتلاشى من الوجود . صحيح أن ما أقوله لن يتم بسهولة وانه سيكلفنا كثيراً ، غير أنه سيحصل ، ستزول اسرائيل على الرغم من كل ماتصنعه الولايات المتحدة ضد العرب وأمانيهم القومية وعن كل ماتضعه الولايات المتحدة من ثقل في الكفة المناوئة للعرب .

هذا فحوى رسالتي الى جيرالدين ب . في مطلع عام ١٩٥٧ . ويبدو أن لهجتي في ما أردته مزاحاً كانت أقسى مما كانت تنتظر صديقتي ، أو مما كان ينتظر مايكل ب . زوج تلك الصديقة ، فتولى هو بنفسه الرد علي لأول مرة ، بأن كتب الي الرسالة التي حملت خاتم بريد اشبيلية في اسبانيا ، والتي أوردت نصها في مطلع هذا المقال . ولا بد من التذكير بأن جمهوريتنا السورية كانت ، في تلك الفترة من الخمسينات ، هدف دعاة صهيونية استعمارية تصفها بأنها أمست بلداً تابعاً للشيوعيين ونقطة ارتكاز للاتحاد السوفييتي في الشرق الأوسط بل اني تلقيت في تلك الاثناء رسائل من أصدقائي الاوروبيين كانوا يسألونني فيها عن المطارات العسكرية السوفييتية التي كانت صحفهم تذكر انها أقيمت في البادية السورية قرب الرقة ، بلدتي أنا . وهكذا كانت رسالة مايكل ب . الي انعكاساً لما كان يتصوره الرأي العام في العالم الغربي عن الوضع في سورية بشكل خاص وفي المنطقة العربية من الشرق الاوسط بشكل عام . ربما كان صاحبي هذا مخلصاً في ما يقوله عن تعاطفه مع العالم العربي ، ولكنه بلا شك مضلل ومغشوش في المعلومات التي يبني عليها آراءه ويطلق منها أحكامه . ثم اني لا أنكر ان الريبة قد ساورتني في حقيقة العمل الذي يمارسه هذا الصاحب : مهندس تصميم بحري ، يتنقل بين الفيليبين وبيرو ومراكش ووسط اسبانيا ، من أين جاء اليه الاهتمام بالقضايا العربية وقراءته لجورج أنطونيوس ؟ وماذا يصنع مهندس تصميم بحري في اقامته بأشبيلية الكائنة على

نهر غواد لكيفير وليس على البحر المحيط ؟ وما هذا الاهتمام بآراء رجل مثلي ، لم يره ولا تربطه به الا رابطة معرفة بسيطة وغير مباشرة؟ أتراه أحد عيون أمريكا المبثوثة في أنحاء العالم تراقب فيه التطورات وتستقرىء كل تغير فيه تحسباً لما يمكن أن يمس مصالحها وسياساتها في القريب والبعيد ؟

ولكن مايكل ب . ، أياً كانت مكانته وكانت حقيقة اهتماماته ، يريد متابعة الحوار معي ، مع عربي يعتقد بحسن اطلاعه وبإحسانه التعبير عما يريد التعبير عنه . علي اذن أن أجيب على ما ساقه إلي في رسالته من آراء حمل بعضها عتباً وديا وحمل بعضها نصحاً وحمل باقيها تساؤلات ونذراً . وحقاً لقد أجبت على رسالته تلك برسالة مطولة ، مؤرخة في ٢١ شباط – فبراير من عام ١٩٥٧ ، هي الوحيدة من رسائلي الى جيري وزوجها التي احتفظ بنسخة عنها كاملة . انها ، كما قلت ، تحمل تاريخ الشهر الثاني من عام ١٩٥٧ ، أعني أنها ترجع الى سبعة عشر عاماً ، إلا أنها كرسالة موجهة من عربي الى أمريكي تمت الى الحاضر والى احداث عالمنا اليومية بصلات كثيرة ، سواء بإعادتها الى الأذهان أسس المنطلقات التي تولدت منها التطورات الكبيرة الحاضرة أو بمعالجتها قضايا اليوم على ضوء مسيرة التاريخ خلال عقدين من السنين مرا منذ كتابتها .

وفيما يلي ترجمة هذه الرسالة التي كانت ردي على رسالة مايكل ب. إلي في ٧ شباط – فبراير ١٩٥٧ ، وهي التي افتتحت بها مقالي الطويل هذا :

الرقة في ٢١ شباط – فبراير ١٩٥٧ .

عزيزي مايكل :

سعدت كثيراً بتلقي رسالتك اللطيفة والقيمة . هذه الصلة الشخصية بيننا ، أنت وأنا ، أدين بها الى العزيزة جيري ، ولذا فاني أتوجه اليها بكل شكري .

أنا واثق أيها الصديق من تعاطفك الشخصي مع العرب ، وسعيد به . كما اني أثق بالنوايا الطيبة لشعب الولايات المتحدة الأمريكية في جهوده المتصلة نحو السلام ورفاهية العالم . لقد كان اسم الولايات المتحدة الامريكية ، عند عرب الشرق الأوسط ، يعني دوماً الارادة الطيبة المقرونة بالتجرد . وكدليل على هذا أذكر لك أنه لما جاءت لجنة كراين بعد الحرب العالمية الأولى لتستشير شعب سورية – وسورية في ذلك الحين تعني سورية الحالية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن – أقول انه لما جاءت لجنة كراين

لتستشير شعب سورية في نظام الحكم الذي يختاره ، طلب كافة السوريين الاستقلال ، وفي حالة تعذر الحصول الآني على الاستقلال رضوا بوصاية أمريكا الوقتية ريثما تتم تهيئة بلادهم للاستقلال التام . هذا كان في الماضي ، أما بعد الحرب العالمية الثانية فان تقديرنا الكبير للولايات المتحدة قد ناله بعض التصدع بسبب الاحداث التي مرت فغيرت نظرتنا الى المثالية الامريكية . نحن لم نتسبب في واحد من تلك الاحداث . كل ما حصل أن الولايات المتحدة خرجت من تلك الحرب ظافرة ، قوية جداً ، ومالكة في كل الميادين امكانيات هائلة أرادت استخدامها لخير البشرية . غير أن هذه الدولة الجبارة في تطلعها الى الأعالي لم تجد وقتاً تتطلع فيه الى ما دونها . فهي ، بدون انتباه على ما يبدو ، فعلت ما فعله فيل الاسطورة الذي كان منهمكاً في التطلع الى النجوم ، أعني أنها سحقت أعشاش الضفادع التي تمثلها نحن عرب الشرق الاوسط ، نحن الذين بياض جلدتنا ليس ناصعاً ولسنا من سلالة تلمودية خالصة . ومع ذلك فاننا لم نتهم نية أمريكا بالسوء أثر ما حل بنا من مصائب سببها تدخلها في قضايانا . نسبنا أول الأمر تلك المصائب الى سوء دعايتنا ، والى جهل المواطن الامريكي العادي لمشاكل الآخرين ، والى تصرفات بعض ذوي النفوس الشريرة من حكام أمريكا . لم نشعر بالحقد تجاه الولايات المتحدة ، بل شعرنا بالمرارة لأن دولة في هذه العظمة لا تملك المعلومات الأساسية أو الخبرة أو بعد النظر في ما يمس مستقبل العالم الذي تريد هذه الدولة أن تكون قائدته . هكذا كان شعورنا في الماضي ، اما اذا ظلت الولايات المتحدة ، على الرغم من الأحداث المتتالية التي تظهر بصورة تفقأ العيون ان العرب هم دوماً ضحايا الظلم والعدوان دون مبرر ، اذا ظلت الولايات المتحدة مصرة على أن لا ترى في محاولاتنا للتحرر غير الخطر الوهمي في انضمامنا الى الشيوعية ، وهو خطر تحالفت الصهيونية والاستعمار والرأسمالية على اذاعته دوماً وفي كل مكان ، فاننا نكون معذورين في تغير نظرتنا الى الولايات المتحدة واعجابنا بها . ستكون الولايات المتحدة الاميركية عندئذ في نظرنا مجرد سلطة كبيرة ، مروعة في كبرها ، نوعاً من القنبلة الذرية ، تمتلكها عصابة من الجهلة أو من القتلة الذين لا يستطيع أمثال المرحوم السيد فورستال أو الرئيس ايزنهاور من العقلاء أن يحولوا دون استخدامها في غاياتهم الشريرة . لقد ألقى جيمس فورستال نفسه من نافذة المستشفى منتحراً ، أما الرئيس ايزنهاور فأخشى عليه أن تقتله صمامة تسد أحد شرايين قلبه لطول ما أذل نفسه وهو يرجو السيد بن غوريون أن يتنازل فيلقي نظرة على هذا العالم الذي يسترحمه تطبيق العدالة .

لقد كانت مواقفنا وكانت عواطفنا نحو الاتحاد السوفييتي متعارضة بصورة فطرية مع مواقفنا وعواطفنا نحو الولايات المتحدة الامريكية كل شيء كان حاضراً ومهيئاً لابعادنا عن السوفييت ، وعن الشيوعية : تقاليدنا ، وتمسكنا بالدين ، ومزاجنا الفردي الذي لايحتمل النظم التوتاليتارية ، وحتى تخلفنا الذي نجم عن بقائنا قروناتحت الاحتلال الاجنبي كان يبعدنا عن هضم الافكار التي توصف بالتقدمية . لم نطلب أي شيء من الروس ، ولم نكن ننتظر منهم (الروح الهدامة) – ان يعطونا شيئاً . وبالعكس ، كنا ننحي باللائمة على الغربيين ونحملهم مسؤولية الالحاد والفالدالية اللذين كنا نتصورهما في الشيوعية. وحين اعترف الاتحاد السوفييتي بدولة اسرائيل بعد دقائق من تطبيق قرار الامم المتحدة بقيامها ، مسجلاً لنفسه المقام الثاني في هذا المجال ، اذ أن المقام الاول في الاعتراف احتفظ به المستر ترومان لنفسه، حين فعل الاتحادالسوفييتي ذلك لم نصب بالدهشة ، فقد كنا نعرف أن العامل الشخصي يلعب في النظم التوتاليتارية دوراً كبيراً ، وان ستالين كان ميالاً الى اليهود ، وأن مولوتوف متزوج من يهودية ، وان لازار كاغانوفيتش ، المهيمن على الكرملين من وراء ستار والذي يمت الى ستالين بصلة الصهر ، هو يهودي أيضاً .وفوق هذا فقد كان العرب والاسلام معدودين عدوين طبيعيين للشيوعية . ومع ذلك ، وبعد بضع سنوات ، وعلى الرغم من تباعدنا وحذرنا ، جاء الينا الروس معترفين ببعض حقوقنا الاولية ومساعدين لنا في مواقف حرجة . ستقول ان هذا لم يكن حباً بسواد عيوننا ، بل لمصلحتهم هم . فليكن . لقد تصرفوا بطريقة جعلوا بها مصالحهم تسير في الاتجاه الذي تسير فيه العدالة والحق الانساني. فلماذا تتصرف الولايات المتحدة الامريكية، التي تقول عن نفسها انها طيبة وعادلة، بالطريقةالمعاكسة ، أعني ضد العدالة والحق الانساني وضد مصالحها الخاصة فوق ذلك ؟

قد تجدني ليها الصديق متحاملاً على الولايات المتحدة ، قليل الانصاف لها ، فتروح تعدد المساعدات التي قدمتها الولايات المتحدة للعرب ، أو عرضت تقديمها اليهم في الآونة الاخيرة . اسمح لي ان أقول لك أنه حتى لو تأكد العرب من جدية هذه المساعدات فانها تظل ضئيلة القيمة أمام الظلم الذي الحقته أمريكا بهم في قضيةفلسطين ، والذي تبذل جهدها للابقاء عليه . ان الاميريكيين يبدون كأنهم يجهلون ، أو أنهم يتجاهلون أهمية فلسطين في نظرنا وعلى وجودنا . إن قيام اسرائيل هي بالنسبة الينا قضية حياة وموت ، وليست مجرد قضية حقد ونقمة كما يحلو لبعض اصدقائنا ان يتصوروها . لقد بني وجود اسرائيل على وعد بلفور ثم على تصويت من هيئة الامم المتحدة ، وكلا الأمرين هيئا ودعما

عن طريق الرشاوى والابتزاز وباحتقار الغرب لشعوب الشرق المتخلفة . اما حق اليهود في الارض التي سميت موعودة فليس غير حجة مضحكة لتبرير هذا الظلم الذي لامثيل له: سكن اليهود منذ الفي عام الاراضي المقدسة لمدة بضع مئات من السنين ، لذلك فان لهم ملء الحق بطرد العرب من بيوتهم ليسكنها ابناء اسحق ، لأن اولئك العرب البائسين لاحق لهم في هذه الاماكن مادامو لم يسكنوها سوى الفي عام !.. غير ان وعداً من لورد انكليزي وتصويتاً من مؤسسة دولية لايكفيان ليصنعا من الباطل حقاً . فلكي تستولي على أرض الآخرين يجب ان تنفيهم أو تفنيهم وهذا مافعلوه بمليون من العرب كانوا يسكنون الارض التي تحتلها الآن اسرائيل . إلا أن العرب ليسوا هؤلاء المليون الوحيد من القتلى أو اللاجئين في بلاد عربية أخرى ، فهناك ثلاثون مليون عربي في البلاد المتاخمة يهددون أمن اسرائيل ويسدون الطريق أمام توسعها ويحولون دون تحقيق حلم صهيون ... وافناء ثلاثين مليون انسان أمر عسير ، فلنروضهم إذن ، ولنصعقهم . لنجردهم من السلاح حتى لايعودوا فيمثلوا أي خطر على أطماع الصهيونية المقدسة !

ان من يعتقد بأن اسرائيل تكتفي بالأرض التي تحتلها الآن وتريد حقاً ان تعيش فيها بأمان يجب ان يكون مغفلاً أو قليل المعرفة . وحتى إذا لم نأخذ جداً أحلام حكماء صهيون في بروتوكولاتهم حول السيطرة على العالم ، فان خطة اسرائيل هي غزو ضفتي الاردن وكل الارض الفلسطينية لتكون منها نواة لمملكة اسرائيل الممتدة بين النيل والفرات. هذا التحديد لتخوم تلك المملكة مسجل ، على مايقال ، على جدار البرلمان الاسرائيلي ، كشعار يذكر كل الناس بأن اسرائيل الحالية ليست سوى رأس جسر لتحقيق حلم صهيون الكبير . ومنذ عام ١٩٤٨ دخل مليون يهودي الى هذا الشريط الضيق المحاذي للبحر المتوسط . أما من أجل سبعة عشر مليوناً من اليهود المبعثرين في انحاء العالم والذين تحلم الصهيونية بتجميعهم في دولة اسرائيل فالأمر يحتاج الى أكثر من هذا الشريط . انه يستلزم كل الارض بين النيل والفرات . وكل الوسائل ، على الطريقة اليهودية ، قابلة للاستخدام لبلوغ هذه الغاية . المساعدة والدعم مضمونان ، مبدئياً ، لاسرائيل من قبل العالم الغربي ، ولا سيما من قبل الولايات المتحدة التي تعهدت بضمان بقاء هذه الدولة على قيد الحياة ، ولو بقاء اصطناعياً عن طريق مال المكلفين الأمريكيين . ففي كل عام تقبض اسرائيل من امريكا مايقارب ٤٠٠ مليون دولار من المساعدات المختلفة ، هذا عدا المساعدات غير المباشرة وعدا رؤوس الأموال المستثمرة . وفوق هذا فان الولايات المتحدة دفعت المانيا الدكتور اديناور الى أن تعطي اسرائيل ٧٠٠ مليون دولار ، مقسطة على اثنتي

عشرة سنة ، كتعويض على ما انزل هتلر باليهود من مصائب . واذا كانت اسرائيل واثقة من دعم حماتها لها ، فانها تمضي في العدوان والنهب والتقتيل ، وتخرج من كل ذلك سالمة غانمة . واذا حدث وادينت مرة على جرائمها ، فانها تكون ادانة بالكلام الذي لاتأثير له على هذا الطفل المدلل الذي سرعان مايعاود اعتداءاته . أما ضحايا هذه الاعتداءات ، اعني سورية والاردن ومصر فانها مضطرة الى ان تقف دوماً موقف الدفاع . أنها بلاد فقيرة وضعيفة ، وبلاد مفتقرة الى السلاح قبل كل ذلك . ما من بلد من بلدان العالم الذي يسمونه العالم الحر قبل ان يبيع العرب سلاحاً ، حفاظاً ، على مايقولون ، على التوازن في الشرق الاوسط . وهو توازن يقضي بأن يبقى العرب دون قدرة على المقاومة كلما أرادت اسرائيل ان تضم اليها رقعة جديدة من الارض . حاولنا بكافة الطرق ان نحصل لجنودنا على سلاح من البلاد الغربية فذهبت محاولاتنا عبثاً . ولما كان بقاء الحال على هذا المنوال يضع بلادنا وأمننا ووجودنا في خطر دائم وأكيد فقد وازنا بين كل الاعتبارات وذهبنا نبحث عن السلاح عند دول الشرق . إبتداء من هذه اللحظة امسينا نعتبر ، في أعين الغربيين ، شيوعيين . لقد اشترينا الاسلحة السوفييتية والتشيكية بمبادلة تجارية حرة ، وبدون أية اشتراطات سياسية ، غير ان الغربيين يأبون ان يصدقوا هذا ويصرون على اعتبار العرب ، ولا سيا عرب سورية ، شيوعيين ! كأن كلمة شيوعي أصبحت صفة لكل شعب يناضل في سبيل وجوده وأمنه وسيادته في أرضه .

ان من يقرأ ماتكتبه جرائد العالم الحر ويستمع الى اذاعاته يتصور سورية وقد أصبحت بلداً تابعاً للشيوعية داخلاً في نطاق الستار الحديدي . فالكلام كثير عن الدبابات الروسية التي تقوم بالدوريات في شوارع دمشق ، وعن الضباط الشيوعيين الذين يحكموننا ، وعن الطيارات السوفيتية التي تملأ بالآلاف صحراء سورية ، وعن وكالة تاس التي تحتكر في سورية اذاعة الأخبار . كل هذا لاصحة له في الواقع . وعندما أعلنت علينا حرب الاشاعات هذه عقد وزير خارجيتنا مؤتمراً صحفياً دعا خلاله كل الصحفيين الأجانب الى التجول في أنحاء البلاد للتحقق من كذب هذه الأخبار المذاعة من مصادر الأعداء . وهذه الدعوة نفسها وجهت الى كل البعثات الأجنبية المعتمدة في سورية . وعندما جرت احداث المجر نشرت صحف سورية كثيرة بخطوط عريضة مايحدث هناك حسب الرواية الغربية للأمور . ولكن ، في الحقيقة ، ان هذا الذي نشر ما كان ليؤثر في أحـد ، لسببين على الأقل . الأول أن الناس كانوا يعلمون أن هذه الجرائد مشتراة من قبل مكتب معلومات حلف بغداد الذي يمثل في نظرنا الرجعية والقوى المتآمرة على حريتنا . والسبب الثاني

هو أننا ، في ذلك الحين ، كنا مشغولين بالبكاء على ضحايانا نحن . كان لنا في آلاف القتلى والجرحى في بور سعيد مايشغلنا عن التفكير في مصير آلاف اللاجئين المجريين ، لاسيما حين نذكر أن عندنا من شعبنا مليون لاجيء ألقتهم في البؤس أيدي الدول التي تطالبنا بالبكاء معها على لاجئي شعوب أخرى . أما عن الضباط الروس الذين يقومون على تدريب جيشنا فاني آسف على أني لم أصطدم بواحدمنهم حتى الآن ، على الرغم من صداقاتي لكثير من ضباطنا ومن ترددي الكثير على المواقع العسكرية في بلادنا . صحيح أن هذا لايقوم دليلاً على عدم وجود أولئك الضباط الروس ، ولكنه قد يكون دليلاً على قلة عددهم . ومن ناحيتي ، أجد من الغباء أن أشتري وأمتلك أسلحة شيوعية دون أن يكون لدي مدربون يعلمون جنودي كيفية استخدام هذه الأسلحة. وقطعاً لن يكون هؤلاء المدربون سويسريين ولا سويديين . ومن ناحية أخرى ، أذكر أني في عام ١٩٥١ كنت في زيارة للكلية العسكرية في استانبول ، فشاهدت في تلك الكلية ضباطاً أمريكيين كثرا مهمتهم معاونة تركيا في اعداد جيشها . وفي الوقت الحاضر يوجد جيش أفرنسي كامل في اسرائيل، عدا عدد كبير جداً من الجنود البريطانيين الموجودين فيها بحجة قضاء عطلات لانهاية لها فلماذا اذن لايتركز التباهكم إلا على الضباط الأجانب الذين يقيمون لدينا ليدربونا على استخدام الأسلحة التي اشتريناها من بلادهم ؟.

يبقى بعد هذا شيء واحد ، هو الخوف من تحول معونة شيوعية ظاهرها في الوقت الحاضر بعيد عن الاستغلال ، الخوف من تحولها الى تدخل أو الى ضرب من الاحتلال . انه خوف توحيه الينا بصورة دائمة دعاية العالم الحر . في الواقع ، ان كثيراً من الشكوك أصبح يداخلنا في السنين الأخيرة حول صحة ماتذيعه علينا الدمقراطيات الغربية : ففي خلال العدوان على مصر كانت فرنسا وانكلترا تذيقاننا أهوال الحرب مدعيتين انهما تحافظان على السلام ، وتقومان بأعمال همجية صارختين بأن هذه هي المدنية ، ومع ذلك ، وحتى اذا كان الخوف من التدخل الشيوعي يستند الى وقائع صادقة ، فان وضعنا يمكن وصفه واجماله كما يلي « الغرب بحمايته وتقويته لاسرائيل يهدد وجودنا ، والشيوعية بتسللها الى بلادنا تهدد حريتنا . فاذا سلم لنا وجودنا فانه تظل لنا امكانية أن نسترد حريتنا ، أما اذا فقدنا الوجود فاننا نفقد كل شيء ، نفقد الحياة ومعها الحرية » .

اننا نأمل من الولايات المتحدة الأمريكية التي هي أقوى دول العالم الغربي بلا شك، بل التي هي على أكثر الاحتمالات أقوى دول العالم كله ، أن لاتتركنا طويلاً أمام هذا الاختيار الصعب . صحيح انها ، أعني الولايات المتحدة ، وقفت مواقف نبيلة في

الفيلبين واندونسيا ، الا أن هذا لايعطيها الحق في أن تهب بلاد العرب ليهود نيويورك .
ان عودة هذه البلاد الكبيرة الى القيم الصحيحة التي خلقت مجدها يوفر على العالم كوارث لاحصر لها ومروعة . ذلك لأن الولايات المتحدةستجد نفسها عاجلاً أو آجلاً أمام اختيار محدد : الاختيار بين نهاية الظلم أو نهاية البشرية .

أيها العزيز ما يكل ، حين بدأت هذه الرسالة لم أظن انها ستطول الى هذا القدر .
يبدو أن الحديث في السياسة يعيدني الى ماضي كنائب في البرلمان ويسوقني الى الثرثرة بلا نهاية . أرجو أن يتسع لك الوقت لتقرأ كل ما كتبته ، وان تغتفر لي قسوة الكلمات ، ذلك لأنها تتعلق ببلادي وبالأمة التي اليها انتمائي .

وتفضل بقبول أخلص تمنياتي اليك والى جيري مع أصدق تقديري .

عبد السلام

هذه هي الرسالة التي كتبتها منذ سبعة عشر عاماً جواباً على كتاب مايكل ب .
واسئلته الموجهة الي من اشبيلية . كأني ، في بعض مقاطع الرسالة ، لم اكتبها إلا امس ، وكأني في مقاطع اخرى منها كنت استشف عبر الزمن ما جرى امس وما يجري اليوم .
ما أمر على النفس أن تجد القوي في هذه الدنيا من الاصرار على الشر بحيث تتحطم أمامه كل القناعات العقلية وتفشل كل النذر ! لهذا تمنيت أن أعرف عنوان مايكل ب .
الحالي لابعث اليه بنسخة من رسالتي القديمة هذه ، ولاذكره بكل ما مر على دنيانا في الأعوام السبعة عشر الفائتة ، وبحرب ٦٧ وحرب ٦ تشرين الأول ٧٣ ، وبالتأهب النووي وجسر امريكا الجوي الى اسرائيل ، ثم لأذيل كل هذا بكلمة فحواها : ألم أقل لك ؟

ولكني لسوء الحظ لا أعرف اليوم عنوان مايكل ب . لأفعل ذلك . فهو لم يجبني في حينها على رسالتي الطويلة ، على حرصه قبل ذلك هو وزوجته على التعليق على كل ما أكتب وعلى الاستزادة مني والاستيضاح . لماذا ؟ الاحتمالات في عدم اجابته علي كثيرة . ثمة احتمال ضعيف ، هو ان مراسلي الامريكي وجدني عسير الاقتناع بما يعتقد هو انه مسلمات لاجدال فيها . لعله قرأ رسالتي ثم هز رأسه مردداً لنفسه كلاماً مثل كلام المتنبي الذي قال فيه : ومن البلية عذل من لايرعوي عن جهله ، وخطاب من لايفهم ! وهناك احتمال آخر ، فلعل صاحبنا هذا كان صادقاً في تعاطفه مع العرب وفي

بحثه عن مصلحة بلاده في صلاتها بهم ، فلقي ما يلقاه من يحمل وداً للعرب ويجاهر بذلك الود في امريكا ، من جفاء ومقاطعة واضطهـاد . ان مصير جيمس فورستال ، وزير الدفاع الامريكي الذي المعت اليه في رسالتي ، ماثل لعيني كل من يصر على اعلان اخطاء السياسة الامريكية في مجافاة العرب ونصرة اسرائيل : لقد حورب هـذا الوزير نفسياً حتى تحطمت أعصابه، واتهم بالجنون ، ثم انتحر . أو انه ، على ما تردده بعض الأوساط العلميـة ، القي من نافذة المستشفى الذي كان يعالج فيه واشيع انه انتحر . واحتمالات اخرى يمكن تصورها لتفسير امتناع مايكل وجيرالدين ب . عن مكاتبتي بعـد ما دأبا عليها سنوات عديدة ، ليس أضعفها أن رسالتي لم تصل اليهما . فأنا أعرف أن رسائلي، مثل رسائل كثير من المواطنين ، كانت تقرأ في طريقهـا الى المرسل اليهم أيامذاك . فلعل قارىء تلك الرسالة في ذلك الحين كان من حسن الادراك ومن الغيرة على المصلحة العامة بحيث انه قدر أن محتواها فيه خطر على النظام أو فيه مساس بالمصالح الوطنية، فعمد آنئذ الى مصادرتها او احتجازها ، أو الى الحيلولة بطريقة ما دون مواصلة سيرها الى من كتبت اليه ..

انها احتمالات كثيرة لست أدري أيها الراجح . كل ما أعرفه أن مايكل ب . لم يرد على جوابي اليه ، وان رسالتي التي صدقت الاحداث المتتابعة توقعاتها ظلت واحدة من ملايين الصرخات بالحق، القيت في آذان الامريكيين فضاعت في صحراء عنجهية الولايات المتحدة الامريكية . هذه الدولة التي أخذتها العزة بالاثم فصعرت خدها للعدالة ، وصمت اذنها عن الحقيقة ، وتشامخت على المبادىء الانسانية الرفيعة .

★ ★ ★

صفوان قدسي

وجوه وتيارات في الفكر العربي الحديث *

سوريّة

الحقيقة التي سرعان ما تتكشف عنها المحاولة المبذولة لاستقصاء تفاصيل المشهد الفكري في سورية منذ البدايات الأولى لهذا القرن ، هي غياب المؤلفات التي يمكن العودة اليها لوضع اليد على التيارات الفكرية التي ظهرت خلال هذه الحقبة من الزمن .

(*) ربما كان من المفيد الاشارة الى أن هذه الدراسة تحاول أن ترصد وتسجل الوجوه والتيارات الرئيسية في الفكر العربي الحديث « سورية » دون أن تحاول تقويم هذه الوجوه والتيارات . أي انها تحاول أن تسجل الوقائع كما هي دون أن تلقي عليه أي حكم من أحكام القيمة . ص . ق

ويمكن رد هذه الظاهرة الى مجموعة أسباب ، منها أن الأمية ظلت الى عهد غير بعيد تحتل مساحة غير محدودة من الأرض . ومنها أن التيارات الفكرية كانت في الجزء الأعظم منها تيارات سياسية ظهرت في الأساس لمجابهة حقيقة استعمارية كانت تعيش على أرض الوطن بدءاً من الاستبداد العثماني وطغيانه ، ومروراً بالاستعمار الفرنسي ، الأمر الذي جعل الكتاب أشبه ما يكون بالسلعة المهربة. ومنها ان هذه التيارات الفكرية لم تكن قد بلغت بعد سن الرشد ، بمعنى انها لم تكن قد تبلورت بشكل واضح يسمح بأن تعبر عن نفسها في مؤلفات فكرية .

وفيما عدا استثناءات معدودة،فان هذه التيارات الفكرية لجأت الى وسائل أخرى غير الكتاب للوصول الى المواطن والتأثير فيه . من ذلك مثلاً اللجوء الى ما يمكن تسميته بالفكر الشفوي الذي وجد في المساجد والمعابد ملاذاً يحتمي به من استبداد السلطة وأرضاً يقف عليها ويمارس تأثيره من فوقها في قطاعات واسعة من الجماهير التي كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأماكن العبادة . ومن ذلك مثلاً اللجوء الى ما يمكن تسميته بالفكر الجزأ المتمثل في الصحف باعتبارها أداة من أدوات الاتصال بالجماهير وباعتبار الأثر الذي يمكن أن تتركه الكلمة المكتوبة في الصحف . ومن ذلك مثلاً اللجوء الى ما يمكن تسميته بالفكر الكلي المتمثل في الأحزاب باعتبارها هي الأخرى وسيلة من وسائل الاتصال بالجماهير .

وعلى وجه الاجمال ، فان هذه التيارات الفكرية التي عبرت عن نفسها بالفكر الشفوي والفكر الجزأ والفكر الكلي ، كانت تيارات معادية للاستعمار . وقد حدث في كثير من الأحيان أن اضطر المفكرون السوريون لاختيار المنفى وطناً لهم ، أو ارغموا على ذلك . وفي المنفى كان هؤلاء المفكرون يغذون الفكر العربي بالدعوة الى الحرية، هذه الدعوة التي سرعان ما كانت تعود الى سورية مرة أخرى وتترك أثرها المطلوب .

وقد لجأ المفكر المكبوت الى وسائل متعددة للتعبير عن نفسه ، وكان من جملة هذه الوسائل ، الدعوة الى احياء التراث واستعادة الأيام الخوالي والتغني بالأمجاد القديمة وبعثها

من مرقدها . كذلك فان قيام مايسمى بالحركات التعليمية كان يمثل احدى هذه الوسائل . والمقصود بالحركات التعليمية هو تلك المحاولات التي بذلت من أجل انشاء مدارس خاصة تعنى بالتعليم لمواجهة النقص في المدارس أيام الانتداب الفرنسي حيث لم تعر سلطات الانتداب أي اهتمام لمسألة التعليم . وعلى سبيل المثال فانه لم يكن يوجد في سورية كلها غير مدرستين ثانويتين ، احداهما في دمشق والأخرى في حلب . كذلك فقد برزت محاولات لمواجهة الارساليات الأجنبية التي عمدت الى افتتاح مدارس خاصة بها .

ومنذ البدايات الأولى لهذا القرن ، نشأ شكل من أشكال الاتصال بين سورية وبين الحضارة الأوربية ، وظهرت في الحياة العامة تجليات هذا الاتصال . وكان من أثر ذلك أن برز اتجاهان فكريان متضادان يقول عنهما الدكتور جميل صليبا في كتابه «الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام وأثرها في الأدب الحديث » (جامعة الدول العربية — معهد الدراسات العربية العالية — القاهرة ١٩٥٨) ان أحدهما « يدعو الى الأخذ بالحضارة الأوربية ، مادية كانت أم روحية ، والآخر يدعو الى اقتباس العلوم والصناعات الاوربية ولكنه يدعو في الوقت نفسه الى الاعراض عن الفلسفة الأوربية لان العالم العربي لايحتاج في نظره الى فلسفة جديدة أو عقيدة جديدة ، بل يحتاج الى تجهيز علمي جديد وصناعة جديدة » .

وفي حين حاول الفريق الأول أن يظهر مخاطر القبول بالحضارة الأوربية ، فان الفريق الآخر عمد الى تفنيد حجج الفريق الأول عن طريق إظهار مايمكن أن يلحق بالعرب من فوائد إذا هم قبلوا بالحضارة الأوربية وفتحوا أبوابهم لها . وقد كتب الدكتور قسطنطين زريق في كتابه « الوعي القومي » (١٩٣٨) مؤكداً على ان العناصر الثلاثة التي تتألف منها حقيقة الغرب هي : النظام الاقتصادي ، والعلم ، والفلسفة ، وهي العناصر التي يقول عنها انه « خليق بمن أشرقت نفسه بالوعي القومي الواضح أن يفهم هذه العناصر الثلاثة فهماً صحيحاً فيلمس بذلك روح الحضارة المتدفقة علينا ، فاذا جمع هذا الفهم إلى إدراك شخصية الأمة الداخلية في مناحي قوتها وضعفها ، نظر نظرة صائبة الى الحياة

العربية الحاضرة المتكونة من تفاعل هاتين القوتين العظيمتين ، أعني الشخصية العربية المتكونة من محيط هذه البلاد الطبيعي وميدانها الاجتماعي والثقافي ، والحضارة الغربية المسيطرة على المجتمع الحديث » . وشبيه بذلك موقف محمد كرد علي في كتابه « أقوالنا وأفعالنا » وكتابه « غرائب الغرب » (١٩٢٣) .

وعلى الرغم من أن في رد التيارات الفكرية الى أوضاع اقتصادية واجتماعية محددة ، تعسفاً تنكره النظرة العلمية المدققة ، فان انكار التأثير المتبادل بين الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية وبين التيارات الفكرية يشكل بدوره مجافاة للواقع . وعلى هذا الأساس يمكن رسم خارطة للتيارات الفكرية الرئيسية التي ظهرت في خلال الحقبة الممتدة بين الحربين العالميتين ، وربط هذه الخارطة بالحقائق الاقتصادية والاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك الوقت .

وعلى سبيل المثال فان الاقطاع أخفق في أن يصنع لنفسه تياراً فكرياً واضح المعالم ، إن لم نقل إنه أخفق في أن يصنع لنفسه كتاباً ومفكرين أساساً . وكل ما قدمه الاقطاع في هذا المضمار لايعدو أن يكون بعض المقالات الصحفية المتناثرة . في حين أن التيار البورجوازي الممتدة جذوره الى قلب الاقطاع ، وهو تيار نشأ بين الحربين العالميتين واستمر حتى نهاية الخمسينات ، استطاع أن يفرز كتابه ومفكريه . وكان محمد كرد علي في معظم ما يكتب يصدر عن هذه المواقع . كذلك فان البيانات التي كان يصدرهاسياسيون من أمثال لطفي الحفار وفارس الخوري يمكن أن يقال فيها انها كانت تعبر عن هذا التيار البورجوازي الممتدة جذوره الى قلب الاقطاع . وظهر في الفترة نفسها تيار يمثل البورجوازية الخالصة التي قطعت صلتها بالاقطاع وحاولت أن تصنع لنفسها شخصيتها المتميزة ، وكانت الكتلة الوطنية هي التعبير السياسي عن هذا التيار الذي قويت مراكزه بعد الحرب العالمية الثانية ، خصوصاً مع ظهور بوادر للنمو الصناعي ويكفي النظر الى مناهج التدريس في تلك الحقبة لادراك الحقيقة القائلة ان هذه المناهج كانت في قسمها الأعظم تعبر عن وجهة نظر هذا التيار .

أما البورجوازية الصغيرة فقد أفرزت مجموعة تيارات فكرية تراوحت بين معاداة العروبة وبين الدعوة الى تكريس الحقيقة القومية باعتبارها أكثر الحقائق أهمية في الحياة العربية . وتمثلت التيارات المعادية للعروبة في الدعوة الى الفكرة المتوسطية والفينيقية والقومية السورية . في حين أن التيارات الاسلامية تراوحت بين معاداة الفكر القومي انطلاقاً من الاعتقاد القائل ان الاسلام قد نزل للبشر أجمعين وليس لقوم دون قوم ، وان الاسلام في حقيقته عقيدة أممية ، وبين الاقتراب من الفكر القومي ومحاولة استكشاف العلاقات المشتركة بين الاسلام وبين القومية .

وقد وجدت التيارات القومية وعاءها التنظيمي في عصبة العمل القومي التي ظهرت في الثلاثينات والتي يمكن اعتبارها بشكل من الأشكال المحاولة المنظمة الاولى لبعث الروح القومية في سورية . وقد تعرضت هذه العصبة في الاربعينات الى انقسامات أساسية كان من نتيجتها أن توزعت القوى التي تؤلفها على التنظيمات السياسية التي كانت قد بدأت بالظهور في ذلك الوقت . فقد ذهب من ذهب الى الحزب الوطني ، وذهب من ذهب الى التنظيمات الشيوعية ، في حين شكلت الغالبية العظمى من عصبة العمل القومي البدايات الأولى لحزب البعث . ولعل خير ما يوضح هذه الحقيقة هو ان زكي الارسوزي الذي يعتبر من المؤسسين الأوائل لحزب البعث كان يعمل في عصبة العمل القومي . أما الفكر الاشتراكي الديمقراطي الوثيق الصلة بالفكر الاشتراكي الديمقراطي الذي ظهر في أوربا والذي تبلورت بموجبه الأممية الثانية التي تنتمي اليها الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية الأوربية ، فقد وجد وسيلة للتعبير عن نفسه من خلال مجلة « الطليعة » الدمشقية الشهرية التي صدرت بين عامي ١٩٣٥ و ١٩٣٩ ، وكان هذا الفكر خليطاً من معاداة الاقطاع والامبريالية ومن الاقتراب من الفكر الماركسي الذي ما لبث أن طبع هذا التيار بطابعه. ويمكن اكتشاف بذور حركة القوميين العرب منذ عام ١٩٣٨ حين ظهر كتاب قسطنطين زريق « الوعي القومي » . ولعب خريجو الجامعة الأمريكية في بيروت دوراً بارزاً في ظهور هذه الحركة التي بدأت حركة قومية خالصة ثم ما لبثت بمرور الزمن أن تحولت الى حركة تدعو الى تعريب الماركسية ، وكان ذلك في الستينات .

على أن أبرز مفكرين قوميين في تلك المرحلة كانا ساطع الحصري وزكي الأرسوزي. كان ساطع الحصري علامة متميزة في تطور الفكر القومي ، ولعله ما من مؤلف من مؤلفاته العديدة إلا وفيه الشيء الكثير عن قضية الوحدة العربية والحركة القومية . وتكفي معرفة اسماء بعض مؤلفاته لكي يتضح الدور الذي قام به هذا المفكر القومي : آراء وأحاديث في القومية العربية ، العروبة بين دعاتها ومعارضيها ، آراء وأحاديث في الوطنية والقومية ، نشوء الفكرة القومية ، العروبة أولاً ، دفاع عن العروبة ، وغيرها كثير . ويكاد الفكر القومي في تلك المرحلة أن يكون مطبوعاً بطابع ساطع الحصري ، ولم تظهر محاولة جادة لنقد هذا المفكر الا في النصف الثاني من الستينات حين أصدر الياس مرقص كتابه « نقد الفكر القومي : ساطع الحصري » ، وكان ذلك عام ١٩٦٦ (دار الطليعة ، بيروت) .

وكما أن تأثير ساطع الحصري امتد الى الخمسينات والستينات ، كذلك كان تأثير زكي الأرسوزي الذي كان في حياته مثالاً للتوفيق بين الكلمة المنطوقة والمكتوبة وبين الجهد المبذول من أجل الانتقال بالكلمة الى عالم الفعل . وإذا كان كتابه « العبقرية العربية في لسانها » الذي ظهر في بداية الأربعينات قد أماط اللثام عن الدور الخطير الذي تلعبه اللغة العربية في الحياة العربية ، وترك أثراً بالغ العمق في تطور الفكر القومي ، خصوصاً فيما يتعلق بدور اللغة في الكشف عن العبقرية العربية ، فان مؤلفاته اللاحقة لم تكن أقل أثراً في هذا المضمار . وعلى الرغم من أن معظم مؤلفاته قد ظهرت في الخمسينات والستينات ، فان هذه المؤلفات كانت امتداداً للفكر الذي بشر به منذ الثلاثينات والأربعينات : الاخلاق والفلسفة (١٩٤٨) ، رسالة عن الفن (١٩٥٣) ، المدنية والثقافة (١٩٥٤) ، رسالة عن الفلسفة (١٩٥٤) ، الامة العربية (١٩٥٥) ، مشاكلنا القومية وموقف الأحزاب منها (١٩٥٥) ، صوت العروبة في لواء الاسكندرونة (١٩٦١) ، متى يكون الحكم ديمقراطياً (١٩٦١) ، بعث الأمة العربية ورسالتها الى العالم : اللسان العربي (١٩٦٣) ، الجمهورية المثلى (١٩٦٤) ، وغيرها من المؤلفات .

ولنقرأ النص التالي الذي يفصح عن نظرة الأرسوزي الى عبقرية اللغة العربية ودورها في الارتقاء بالأمة العربية الى حيث ينبغي لها أن تكون ، « ان لغتنا التي هي أبلغ مظهر لتجلي عبقرية أمتنا هي مستودع لتراثنا فما لنا الا أن نعود ونحياها عن وعي حتى نبلغ ما بلغه أجدادنا من سؤدد وعزة ... ولما كان صرح ثقافتنا من فقه وآداب وفنون قد شيد على المعاني المنطوية في الكلمات ، وكانت المعاني ذات جذور في صميم الحياة ، مستقلة كل الاستقلال عن خطل العقل في اجتهاد المجتهدين ، فقد أصبح البعث عندنا في العودة الى الينبوع ، الى الحدس المتضمن في الكلمات ، كالعدالة والنظام والشعر والجمال .. الخ والذي تدل عليه الكلمات المعبرة عن المحسوس في نفس أسرة الكلمة. كدلالة ذكاء الشمس على الذكاء ودلالة العقل – الرباط على العقل ، ودلالة الشارع على الشريعة ... وفضلا عن ذلك ، تجمع اللغة العربية مقومات الحياة الانسانية .. الصبوة الى المثل الأعلى ، والنزعة الى ينبوع الحياة . وان الاختلاف بين الفصحى والعامية ، خلود الأولى وخضوع الثانية لاراجيف البيئة ، انما هو بيان الاختلاف بين المثل الاعلى والواقع(١) » .

* * *

في أعقاب الاستقلال (١٩٤٥) ، تحددت العلاقة بين المسألة القومية وبين المسألة الاجتماعية بحيث أصبحت المسألة القومية جزءاً من النضال الاجتماعي ، وتحرر المفكرون القوميون ، بنسب متفاوتة ، من بقايا التأثيرات التي تلقوها من الفكر القومي الأوربي الذي كان يقوم في الأساس على مفهوم الصفاء العرقي . ولعب مفكرو البعث دوراً هاماً في الوصول بالفكر القومي إلى هذه النتيجة . وفي النصف الثاني من الخمسينات برز شاب هو مطاع صفدي ، أسهم في الوصول بالفكر القومي الى مواقع أكثر تقدماً ، وكان كتابه « الثوري والعربي الثوري » (دار الطليعة – بيروت – ١٩٥٩) خطوة متقدمة على طريق الكشف عن جذور الثورة في الحضارة العربية . ويقول المؤلف ان كتابه لايدعي أنه يقدم نظرية في الثورية ، فهو أبعد مايكون عن هذا الهدف . كما أنه

(١) المؤلفات الكاملة – المجلد الأول – ص ٢٩٧ – ٢٩٨ .

لايعلو الى مستوى اعطاء دراسة كاملة للنماذج الثورية ، وهو بالتالي لايقترح ايديولوجية ثورية معينة ، إلا أنه قد ينبثق عن نزوع نحو فهم الذهنية الثورية لدى الجيل العربي ، يقارنها بما قدمت الحضارة الغربية ببعض نماذج هذه الذهنية الثورية(١) . وفي الفصل الثالث من القسم الأول من هذا الكتاب ، يميز المؤلف بين الثوري القومي والثوري المراهق، باعتبار أن الفارق بينهما هو فارق في النوعية وليس في الدرجة . فالثوري القومي يمتاز بأنه رجل ذو موقف معين ، بينما يتعثر الثوري المراهق في انطلاقات مواقف لن تتحدد قط ، وهذا الموقف المعين انما هو محصلة تقييم شامل لمعطيات الواقع القومي (٢).

ويشكل كتابه الآخر « مصير الايديولوجيات الثورة : الثورة في التجربة » (دار الطليعة – بيروت – ١٩٦٣) خطوة أخرى على هذا الطريق . ومنذ السطور الأولى نلمس لدى المؤلف توجساً من المستقبل وخوفاً على مصير الايديولوجية العربية القومية ، وهو يكتب قائلاً : « اننا ونحن في غمرة الأحداث التي يفجأنا بها تاريخنا ، ونحس وكأنها بادهت قبل أن نعد لها الامكانيات الانسانية التي نستطيع أن نلتزم نتائج عملها ، وهي مازالت في مرحلة التمهيد ... اننا ونحن في غمرة الأحداث نحاول أن نتبين ثانية طريقنا . واذا كان لابد دائماً من أن نتحمل مسؤولية هذه الحاجة في تلمس الطريق ، فليس ذلك لأننا لانعرف الطريق ، ولكن معرفته شيء والسير عليه شيء آخر . وبذلك فاننا لانود مطلقاً أن نجعل من أحداثنا مادة منفعلة بقدر غيبي لاندري له منطلقاً ولا مآلاً .. إلا أن ارادة الانسان هي وحدها كفيلة بأن تقشع الغموض وأن تستثمر مادة الظلمة نفسها لكي تشعل منها النقاط الضوئية الضرورية لأن نمشي على الطريق لا أن نعرفه فحسب (٣) » .

كما برز صدقي اسماعيل الذي يعد كتابه « العرب وتجربة المأساة » (دار الطليعة بيروت – ١٩٦٣) أول دراسة من نوعها في البحث عن جذور الشخصية

(١) الثوري والعربي الثوري – ص ٥ .
(٢) المصدر السابق – ص ١٣٣ .
(٣) الثورة في التجربة – ص ١١ .

العربية وفي البحث عن دور المأساة في تكوين هذه الشخصية المتميزة التي طبعت تاريخنا الحضاري والقومي بخصائصها الفريدة. وأسهم انطون مقدسي من خلال دراسات متفرقة نشرها في الصحف والمجلات ، في الدعوة الى تأسيس فكر عربي يأخذ من تراثنا دون ان يصد عنه ، بالتعصب ، التأثيرات الحضارية الاخرى . ولمع اسم الدكتور بديع الكسم ليس باعتباره استاذاً قديراً للفلسفة في جامعة دمشق ، وانما ايضاً باعتباره مفكراً قومياً أصيلاً أسس فكره على قواعد راسخة سمحت له بأن يسهم في تطور الفكر القومي وفي أن يرتفع به الى المستوى اللائق ، وكانت دراساته المنشورة في الصحف والمجلات علامة بارزة من علامات تلك الفترة . وبعد انفصام وحدة مصر وسوريا عام ١٩٦١ ، ظهرت مجلة ، أو شبه كتاب ، تحت اسم « في الفكر السياسي » لعبت دوراً هاماً على صعيد الفكر السياسي ، برغم أن هذه المجلة ـ الكتاب لم يتح لها الاستمرار ، وصدر منها عددان فقط ، أما العدد الثالث فكان عبارة عن كتاب مترجم . في العدد الأول كتب الدكتور جمال أتاسي دراسة تحت عنوان : « الاشتراكية العربية وأسطورة الخصائص » ، وهي محاولة للتأكيد على أن ثمة طريقاً عربياً للاشتراكية وليس ثمة اشتراكية عربية ، على ما بين المفهومين من تباين وتفاوت . وتسخر هذه الدراسة من شعار الاشتراكية العربية الذي رفع كبديل للاشتراكية العلمية بمفهومها الماركسي ، وتقول عنه ان البعض أخذ به « ليعطوه محتوى غيبياً غامضاً وليفصلوه عن لحمته الاجتماعية والطبقية والانسانية ، فأخذوا يتحدثون عن نظرية عربية للاشتراكية وفلسفة عربية خاصة لها ، وقالوا بخصائص عربية ومزايا أصيلة لابد أن تتميز بها الاشتراكية العربية ، وإذا كان من المتعذر اعطاء محتوى واضح للاشتراكية بدءاً من هذه الكلمات والمسميات العاطفية ، فقد ظلوا يدورون في الفراغ ، بانتظار الفيلسوف الملهم الذي يستطيع أن يبتكر هذه النظرية الجديدة » . غير أن هذا الرفض لفكرة وجود اشتراكية عربية متميزة بخصائص قومية ، تفرضها طبيعة التكوين الحضاري والقومي للأمة العربية ، هذا الرفض لايخلو من فجوات لم تتمكن الدراسة من سدها . وفي العدد الثاني كتب دراسة تحت عنوان ، «مسائل في النضال

الاشتراكي » تتضمن فصلاً تحت عنوان : «مستوى جديد لحركة القومية العربية» يستهدف التأكيد على أن حركة القومية العربية قد ارتقت الى مستوى جديد ربطت فيه بين هدف التحرر القومي في الوحدة وهدف التحرر الاجتماعي في الاشتراكية .

وكان هؤلاء جميعاً يمثلون الكادر الثقافي والفكري لحزب البعث في الخمسينات ، في الوقت الذي كان حزب البعث يقف في طليعة التنظيمات التي جعلت الوحدة العربية هدفاً يسمو على كل الأهداف الأخرى . وكانت بيانات الحزب السياسية ، ومقالات كتابه ومفكريه ، منذ بداية الأربعينات ، تؤكد على حقيقة مفادها ان العرب أمة واحدة وان القومية هي الحقيقة الاكثر بقاء وخلوداً في الحياة العربية . ومنذ عام ١٩٤٧ ، نص دستور الحزب على ان العرب أمة واحدة لها حقها الطبيعي في أن تحيا في دولة واحدة وأن تكون حرة في توجيه مقدراتها .

والى جانب هذا التيار القومي الذي ربط النضال من أجل الوحدة القومية بالنضال من أجل العدالة الاجتماعية ، ظهر تيار يمكن أن يطلق عليه اسم تيار « تحديث الاسلام » . ولعل أبرز مفكري هذا التيار هو الدكتور مصطفى السباعي . ويمثل كتابه الذي يحمل هذا العنوان «اشتراكية الاسلام» (١٩٥٩) خطوة هامة على طريق التحديث . يكتب المؤلف في مقدمة الكتاب : « لقد اخترت القول باشتراكية الاسلام لأنني لا اعتقد ان الاشتراكية موضة ستزول ، بل هي نزعة انسانية تتجلى في تعاليم الأنبياء ومحاولات المصلحين منذ أقدم العصور ، وتسعى شعوب العالم الحاضر ، وخاصة الشعوب المتخلفة، إلى تحقيقها لتخلص من مواجع الظلم الاجتماعي والتفاوت الطبقي الفاحش المزري بكرامة الانسان ... ان مانعرضه في هذا البحث هو التشريع الاسلامي الذي جاء لتحقيق ذلك الهدف ، لاتزويق فيه ولا تحريف ... » . وقيمة هذا الكتاب تصدر عن كونه من المحاولات القليلة للكشف عن صلاحية التشريع الاسلامي للتوافق مع ضرورات التطور ، وهو بصورة عامة محاولة لتحديث الاسلام والكشف عما فيه من عناصر صالحة للبقاء والاستمرار .

وفي خلال الخمسينات ، بدأ التيار الماركسي يقوى ويجمع من حوله انصاراً ومؤيدين . وعلى الرغم من أن هذا التيار نشأ قبل هذه الفترة بسنوات طويلة ، وعلى الرغم من ان البيان الشيوعي قد ترجم منذ عام ١٩٣٢ ، فان الفكر الماركسي بقي لفترة طويلة مقصوراً على فئة محدودة من المثقفين . وتفسير ذلك هو ان هذا التيار لم تصنعه ضرورات التطور الداخلي والحقائق الاجتماعية التي تملي هذا التطور ، بمثل ما أنه كان مرتبطاً بما يتناقض مع التراث الثقافي ومع التقاليد العميقة الجذور التي كانت سائدة في المجتمع السوري . غير أن هذا التيار سرعان مابدأ يخاطب الجماهير بلغة أقرب الى الفهم وأكثر مقدرة على الوصول الى عقلها وتفكيرها. وبعد أن كان الحزب الشيوعي . وهو الممثل الرئيسي لهذا التيار ، يقف بصورة صريحة ضد الحل القومي لمسألة التجزئة العربية والتخلف العربي ، وضد الحل القومي لمسألة التحرر الوطني ، وبعد أن جاهر بعدائه للوحدة العربية سواء في صورتها النظرية أو في صورتها العملية التي عبرت عنها وحدة عام ١٩٥٨ بين مصر وسورية ، بدأ الحزب يقوم بمراجعة مواقفه ، وجرت عملية نقد ذاتي أدت في نهاية المطاف إلى ادانة هذه المواقف التي جرت الحزب إلى مواقع معادية للحركة الجماهيرية في تطلعها نحو بناء الدولة العربية القومية الواحدة .

ولم يكن هذا التيار ممثلاً في الحزب الشيوعي فحسب ، وانما تبلور هذا التيار على أيدي مفكرين وجدوا في الماركسية منهجاً في العمل والتفكير يساعد في حل مشكلات المجتمع العربي . وكان الياس مرقص الذي ترك الحزب الشيوعي في النصف الأول من الخمسينات ، أبرز مفكري هذا التيار . ويعد كتابه « الماركسية [في عصرنا » (دار الطليعة — بيروت — ١٩٦٥) علامة بارزة في هذا التيار ، وهو يشكل نقداً مريراً لتجربة الأحزاب الشيوعية العربية التي يصفها المؤلف بانها أحزاب ستالينية ، ودفاعاً عن الماركسية « الحية ، الخلاقة ، المتفتحة على الحياة ، لا الماركسية الجامدة المتعصبة المغلقة المنفصلة عن الحياة » . وهو يكتب في مقدمة هذا الكتاب : « في الوطن العربي ،

هزمت الأحزاب الشيوعية الستالينية ، أما الماركسية الحية فهي تغرس جذوراً في الأرض العربية مع نمو الثورة الاشتراكية – الوحدوية . لقد هزمت الثورة القومية الاشتراكية الأحزاب الشيوعية المحلية ، ولكن الاشتراكية القومية لم تهزم الاشتراكية العلمية » .

★ ★ ★

هذه ملامح عامة عن التيارات الفكرية في سورية . والاسماء الواردة فيها ليست أكثر من شواهد على ظواهر لايمكن حصر جميع الذين أسهموا في ابرازها .

• • •

الدكتور حسام الخطيب

«في المنفى» و «المحاكمة»

نظرة مقارنة

بين يدي البحث :

قبل ثلاث سنوات نشرت في مجلة «المعرفة»(١) دراسة مبدئية حول (المؤثرات الاجنبية في القصة السورية) واتخذت يومذاك من قصة (في المنفى) لجورج سالم مثالاً لاستمرار المؤثرات الاجنبية المباشرة ؛ وكان هذا المثال نسخة مختصرة عن

(١) الخطيب ، د . حسام : « المؤثرات الأجنبية في القصة السورية » ، المعرفة ع ١٠٨ ، شباط ١٩٧١ .

المقارنة الاوسع (التي أنشرها اليوم بين (في المنفى) و « المحاكمة »(١) لفرانز كافكا . وقد تعمدت يومذاك الاختصار وضبط اللهجة حتى لا يكون المقال مجالاً للاستغلال أو مثاراً لجدال أدبي غير قائم على الانصاف ، وشجعتني على هذا التدبير يومذاك لفتة من صديق كريم في رأس المشرفين على مجلة (المعرفة) .

كانت الاستنتاجات التي توصلت اليها تدفعني باستمرار الى اعتبار « في المنفى » مثالاً كلاسياً للتأثر المباشر ، ولم أرَ في ذلك ما يضير الكاتب أو الرواية ، كما أنني لم أعرض الموضوع على طريقة مكتشفي السرقات الادبية ، لانني أصلاً لا أنظر اليه هذه النظرة .

وقد سرني أن رأيت في عدد (المعرفة) السابق (١٤٦) قراءة جديدة لقصة (في المنفى) ، اذ كنت دائماً أتمنى أن يتاح لهذا العمل من يكتشف فيه ما عجزت عن اكتشافه ، وبكلمة أخرى عن مسوغ فكري لما قامت عليه القصة من تقليد شكلي لرواية فرانز كافكا ولكن قراء الاستاذ موريس جانجي الجديدة أثارت لدي عدداً من التساؤلات المهمة وحفزتني على اعادة فتح الموضوع من جديد ، مع الحرص في هذه المرة أيضاً على ابقاء الموضوع في حدود مفتاح النغمة الواطئة ، لئلا يتحول الى زوبعة في فنجان يستفيد منها فقط النقاد الطفيليون ، على حساب القصة ومؤلفها . وقد لفت نظري في عدد (المعرفة) السابق أن مؤلف القصة له وجهة نظر تختلف عن وجهة نظر الناقد المدافع عن القصة ، وهو أمر يجب أن لايمر بسهولة لسبب بسيط هو أن الكاتبين يعيشان في بيئة ثقافية ومكانية واحدة وينتظر المرء أن يكون حَيّز الفهم المشترك بينهما للقصة اكبر بكثير مما بدا في كلامهما ؛ وسوف نرى أن تأويل ذلك كامن في طبيعة القصة نفسها .

تساؤلات حول مقال السيد جانجي :

١ — يفسر السيد جانجي القصة تفسيراً اجتماعياً محدداً : « تعبير صادق عن مأساة البرجوازية الصغيرة السورية في مطلع الستينات » .

---

(١) أو (القضية) ، حسب الترجمة العربية. ومعظم أعمال كافكا تحمل عنوانات المحاكمة والقضاء ، ومنها بالاضافة الى (المحاكمة) التي نشرت بالانكليزية تحت عنوان The Trial ، « في الحكم » ، و « تحقيقات كلب » و « القلعة » .

– كيف تسنى للسيد جانجي أن يهتدي الى مثل هـذا التحديد الحاسم ، فبطل القصة ، المعلم ، كما يقول هو نفسه :

« إنسان لا اسم له ولا هوية سوى أنه معلم » ، كما يشير في نهاية مقاله الى « قلة وضوح فكرة الزمان في ذهن الكاتب » : فاذا أضفنا الى ذلك أن المكان أيضاً غير محدد ، حق لنا أن نسأل: لماذا البرجوازية الصغيرة ؟ ، ولماذا سورية ؟ ولماذا في مطلع الستينات؟ هل في العمل ذاته ما يساعد على هـذا التحديد ؛ وهل هناك قصة اجتماعية ليس فيها ملامح للبطل ولا للزمان ولا للمكان .

– ثم ماذا قدم المعلم من قيم البرجوازية الصغيرة – إن وجدت – سوى المحبة – كما يذكر كاتب المقال . ومتى كانت المحبة رسالة البرجوازية الصغيرة ؟

(في كلمة جورج سالم المنشورة في ص ١٨٥ من العدد نفسه ينفي نفيـاً قاطعاً مثل هذا التفسير الاجتماعي) .

– يبقى احتمال وحيد هو أن الناقد يستعين بمعلوماته عن الكاتب (كما هو واضح في مقاله) لتفسير القصة ، وهو منهج لا تقره معظم الاتجاهات النقدية لأنه بكل بساطة يوحي بأن بعض الأعمال الأدبيـة تحتاج الى مذكرات ايضاحية مرافقة وهو أمر ليس في صالح أية رواية .

٢ – يقول السيد جانجي :

« لقـد صور جورج سالم في روايتـه اغتراب الانسان في المجتمع البرجوازي الرأسمالي تصويراً لا أصدق ولا أذكى، تصويراً ينم عن فهم عميق لطبيعة هذا المجتمع .. »

ويستشهد لذلك بمقطع لجورج لوكاتش حول انغلاق النـاس على أنفسهـم في ذلك المجتمع .

وان الانسان ليتساءل :

أين المجتمع البرجوازي الرأسمالي في قرية جورج سالم الرمزية ؟ أين ملامحه ؟حتى لو افترضنا أن القرية هي سورية في مطلع الستينات فهل المجتمع السوري في ذلك الحين هو المجتمع البرجوازي الرأسمالي ؛ وهـل هو يشبه في شيء مجتمع نيويورك وباريس ولندن ؟ (اتق الله يا أخي . كم مدينة في سورية وكم مصنعاً في ذلك الحين ؟) .

وأخشى أن يكون الاستشهاد بلوكاتش هنا مضللاً بعض الشيء . ان الاستشهاد بكاتب ما في هذا المجال يجب أن يتعلق بالمعالجة لا بالادانة ، فكل الكتاب حتى كتاب الرأسمالية يدينون المجتمع البرجوازي الرأسمالي ومنهم فرانز كافكا . وليس هذا هو المهم . المهم أن جورج لوكاتش يرفض المذاهب الأدبية التي تقوم على نفي الواقع الخارجي ويعتبر ذلك سبباً أساسياً فيما يؤول إليه انتاجها من تخبط وهو يتحدث عنها بادانة كاملة ويعتقد أن أديها يعني : « انتفاء الفن » و « هزال الواقع » و « انحلال الشخصية » و « تفتيت الانسان الى خبرات جزئية لا يربط بينها رابط ، واذ ذاك يصبح غير قابل للتفسير سواء عند نفسه أو عند الآخرين »(١) .

وهذا الحكم لجورج لوكاتش ينطبق على رواية كافكا بالدرجة الأولى ولكنه أيضاً يشمل قصة (في المنفى) . إن جورج سالم يرفض تصوير العالم الخارجي (المكان المرئي وزمان التقويم)(٢) ، ولوكاتش لا يقبل بذلك . وسواء كنا مع لوكاتش أو ضده يبدو لنا الاستشهاد به في مجال الدفاع عن (في المنفى) غير مبرأ من المغالطة .

٣ – يصر السيد جانجي على « أن نقاط التشابه بين (في المنفى) و (القضية) إن وجدت(٣) فهي لاتعدو أن تكون نقاط تشابه والتقاء في الطريقة والإطار فقط » .

وإن القارىء ليتساءل : هل يمكن الفصل مابين الأمرين على طريقة (فصل القوات) ومن أجل التبسيط وتسهيل الأمور كذلك ؟

الجواب في مقدمة مقال السيد جانجي :

« ...هما أولاً الدلالة الاجتماعية للرواية ، وثانياً الدلالة الفنية الصياغية فيها . ولا بد من التنويه إلى أن هذا التقسيم ينطوي على قدر كبير من الافتعال ، فلا نستطيع أبداً أن

---

(١) انظر ص ٢٥ – ٢٦ من :

Lukacs , The Meaning of Contemporary Realism , tr by J . and M . Mander hondon , 1960 .

(٢) انظر ص ١٨٥ من العدد ١٤٦ من المعرفة . مع العلم أن أعمال جورج سالم الأخرى تختلف عن (في المنفى) .

(٣) هذا ماحداني للتأكيد على أنها موجودة .

نعزل في أي عمل فني أو أدبي المضمون عن الصياغة ، لأن العلاقة بينها جدلية ، ولم نعمد الى هذا التقسيم إلا لغرض تبسيط البحث وتوضيحه ... »

لوكان المرء في مجال مماحكة لسأل : كيف تكون العلاقة جدلية ثم نقول إن التأثر بالشكل لاشأن له بالمضمون .

لكن المسألة غير ذلك ، إن جورج سالم استعار شكلاً معيناً أعجب به ليصل الى نتائج مختلفة ولكن قصته باعتبارها رائدة وتجربة أولى لم تستطع أن (توصل) وجهة نظره بدرجة مقبولة من الوضوح ، ولعل حديثه في (المعرفة) غير بعيد عن هذا الاستنتاج .

٤ — في تقييمه العام لقصة (في المنفى) يذكر السيد جانجي :

— « أنها رواية ذهنية وسيكولوجية حافلة بالرموز » ..

— « وأسلوبها هو الأسلوب الأمثل للرواية »

ويعتبرها : « رواية فكرية ذهنية على مستوى رفيع ونموذجاً (١) حياً للرواية السيكولوجية » .

— ويمدح مافيها من « الابتعاد عن المباشرة التي تسيء الى العمل الروائي الصحيح » .

— وقبل ذلك تحدث عن « الدلالة الاجتماعية للرواية » .

ويتساءل القارىء هنا :

هل نجح جورج سالم فيما أخفق فيه كل روائيي العالم من الجمع بين الابداع الذهني والسيكولوجي والتحليل الاجتماعي ؟ مع العلم أنها الرواية الأولى لا لأديب شاب وفتذاك بل لأديب روائي ناشيء كذلك (سنة ١٩٦٢) .

ان اطلاق مثل هذه الأوصاف من قبل ناقد ليس مسألة بسيطة . على أنه في هذه المرة أيضاً نجد الجواب في مقال السيد جانجي نفسه :

آ — فهو يذكر بعض هفوات الرواية ومنها :

« أن شخصية البطل بشكل عام شخصية مستوية ... يعوزها عنصر النمو

---

(١) التشديد مني .

والتطور والحركة ... وكذلك الأمر بالنسبة لبقية الشخصيات فقد غلب عليها طابع الجمود ... »

ــ والسؤال الآن : كيف تكون الرواية « نموذجاً حياً للرواية السيكولوجية » وأشخاصها جامدون لايتطورون ؟ ومن أين تأتي السيكولوجيا إن لم تأت من « النمو والتطور والحركة » ؟

هل أقول : اتق الله . إنني بالكاد أضبط عباراتي .

ب ــ ثم يذكر أن الشخصيات « لاتتطور بل تتحرك حركة فكرية محسوبة مرسومة ، ولعل هذا هو السبب الذي جعل عنصر العفوية في الرواية ضئيلاً ان لم تقل معدوماً فيها كما أننا لا نحس بحركة الاحداث نفسها فهي كذلك محسوبة مرسومة .. وقد يكون مرد ذلك من جهة الى الطابع الذهني الفكري للرواية الذي يعتمد على الحوار المجرد والمنطق التحليلي .. »

ــ ألا يتعارض هذا الكلام تعارضاً تاماً مع وصف الرواية « بالابتعاد عن المباشرة التي تسيء عادة الى العمل الروائي الصحيح » .

ماهي المباشرة ان لم تكن المنطق و التحليل ، و الحوار المجرد، وهل هناك صورة للمباشرة أقوى من الصورة التي تمثلت في قصة جورج سالم ؟

أخشى أن يكون اندفاع السيد جانجي للدفاع عن « في المنفى » هو المسؤول عن هذه التناقضات التي كلما تأملها الانسان أدرك مدى حدتها ، والجدير بالذكر أن جورج سالم يتحدث في العدد نفسه عن قصته (في المنفى) فينفي كل تفسيرات موريس جانجي ويضع قصته في حجمها الطبيعي كمحاولة رائدة لها جوانب ايجابية ولا بد من أن تكون لها جوانب سلبية . وبالطبع لايعتبر الانسان كلام المؤلف حجة قاطعة ، ولكنه دليل قوي . يقول سالم :

« ومن خلال تجربتي الروائية (في المنفى) ففي وسعي أن اقول إن غايتي في هذه الرواية أن انقل روايتي للحياة ، ومن هنا فان رواية في المنفى ليست رواية تاريخية ولا رواية نفسية او اجتماعية ، بل رواية فكرية . فأنا لم اصور حقبة من التاريخ «أشخاصها ومشكلاتها ، ولا فئة من المجتمع ولا طبقة من الطبقات. كان هدفي أن أصور

وجود الانسان في هذا العالم وبحثه عن خلاص وعن معنى حياته. وربما لم يحالفني التوفيق في التعبير عن ذلك كله جميعاً ... »

وفي مكان آخر :

« تلك كانت غايتي من كتابة هذه الرواية ، ولست أزعم أني بلغت فيها ما أريد ، فما أكثر ماتقصر الوسائل عن الغايات » .

هكذا يكتب الناس عن الاعمال الرائدة ، وهو موقف يدل على أن جورج سالم سيتجاوز هذه القصة في رواياته القادمة ، أما حين تكون « نموذجاً حياً » و « مستوى رفيعاً » و « لا أصدق ولا أذكى » فانه من الصعب تجاوزها ، وتظل هي التجربة الاولى والأخيرة .

آ – « في المنفى » و « المحاكمة »

« في المنفى » لجورج سالم(١) ، رواية قصيرة رمزية تعالج مشكلة الغربة الروحية للانسان في إطار مفهوم البراءة والخطيئة الأصلية ، وتشابهها القوي جداً مع « المحاكمة » لفرانز كافكا يعتبر دليلاً على استمرار التأثير المباشر للادب الاوربي في القصة السورية .

ويقدم جورج سالم في المنفى قصة معلم المدرسة الذي يفد الى بلدة غريبة لا يتكلم فيها الناس بعضهم مع بعض ولا يتعاطفون . وتقع هذه البلدة الصغيرة جداً تحت سيطرة حاكم خفي لا يراه أحد ، وتلتف حول هذا الحاكم ذي السلطان المطلق طبقة مترفعة من الأعيان. ومعظم هؤلاء يسهرون عادة في ملهى بسيط تحيي أمسياته فيه مغنية غامضة. ويقتحم المعلم هذا الملهى المحرم على غير الاعيان ، ويحدث أن تقع المغنية في حبه ، ويتبع ذلك تطورات غامضة ، اذ يموت أحد تلامذة المعلم غرقاً في النهر ويتهم المعلم بقتله لأنه مشى معه بمحاذاة النهر في احدى المرات . وتحاول المغنية انقاذ المعلم وتبذل أقصى جهدها مع الحاكم ومع القاضي ، ولكن دون جدوى ، اذ يقاد المعلم الى مكان مهجور ويرجم بالحجارة والصخور حتى يقضي نحبه .

وبالطبع ، ان تلخيص قصة رمزية خيالية قد لا يعني شيئاً على الاطلاق ، بل قد

---

(١) بيروت ، كانون الأول ١٩٦٢ .

يتضمن تشويهاً للقصة ، والمرء يقدم على هذا العمل وهو راغب عنه ، ولكن يبدو أنه لا بد من ذلك حتى يتمكن القارىء من متابعة المناقشة . ويمكن أن يستنتج الانسان من هذه القصة أن هناك شيئاً غامضاً ربما كان السلطة أو الحقيقة أو الحب ، تحتكره فئة محدودة من النخبة وتضرب من حوله الستار ربما دون علم منها لمضمونه ، وكل من يحاول اقتحام أسرار هذا الشيء الغامض يوضع موضع الاتهام ويدان ويقضى عليه .
والحق أنه من الصعب الجزم بمرامي الكاتب لأن القصة يمكن أن تفسر بأشكال مختلفة ، ويبدو أن الكاتب لم يسيطر على عناصره الفنية سيطرة كافية تسمح له بتوجيهها لايصال وجهة نظر معينة . ولعله من المفيد أن نشير هنا الى أن الكاتب السوري وليد اخلاصي زميل جورج سالم تعرض لهذه القصة إبان صدورها في مجلة (المعرفة) وبدا حائراً ازاء تفسيرها وكذلك تقويمها وتجنب الايحاء بأي فهم معين لها .

وفيما يتعلق بالتفسير لا يذكر السيد اخلاصي سوى أن المعلم يرمز (للمعرفة) ويضيف :

« واذا كانت الرموز قد أثقلت القصة لكثرتها ، فانها تبقى مجالاً للدرس ، أهي مقصودة كل على حدة أم أن الجو العام للمنفى فرض تلك الرموز الكثيرة ؟ »

أما بالنسبة للتقويم فقد أشار السيد اخلاصي الى جدة هـذا الموضوع في الادب العربي وتجنب أن يضيف أي شيء سوى ذلك :

« إن الحكم على هذا العمل الادبي من زاوية واحدة قتل له . إنه برأيي عمل له وزن فلسفي ، وهو عمل جديد بالنسبة لما يكتب في العربية ، أما أمر تقييمه فمتروك للنقاد أنفسهم »(١) .

على أي حال هناك بعض الرموز التي يمكن تخمينها ، وهي تمثل العناصر الأساسية في الحياة . فالنهر ربما يمثل الزمن والبلدة تمثل المكان ، والحاكم يمثل السلطة الغيبية للأفكار والأوهام على الناس ، والمعبد المتهدم يمثل ضيعة العقيدة والوجدان ، والمغنية تمثل الغريزة وربما الحب ، والمكتبة تمثل المعرفة ، وغير ذلك .

وفي نهاية الرواية تتخذ القصة تلويناً معيناً ويبدو المعلم مسيحاً من نوع جديد أو رمزاً للمحبة . فالمغنية تحتج على قتله بقولها :

---

(١) انظر باب مراجعة الكتب في المعرفة ، ايلول ١٩٦٣ .

« اتقتلونه لأنه أحب كثيراً وأحب بعمق ! بالقسوة . » ص ١١٤ .

والكاتب يؤكد ذلك فيا بعد حين يصف تذكر المعلم ساعة احتضاره لصورة المسيح على الصليب (ص ١٣٠) ، ولا شك أن المعلم في الرواية يحمل كثيراً من معاني السيد المسيح ، وفي مقدمتها البراءة وهذه هي مشكلته . فأناس الرواية غارقون في الخطيئة ويقدمون على قتل المعلم لأنه بريء . يقول قاضي التحقيق :

« ليس هناك انسان بريء » . ص ١١٥ . وبعد أن يفكر قليلاً :

« ومن يدري ، لعل البلدة تريد ان تقتله لأنه بريء فعلاً » . ص ١١٦ .

وفي نهاية القصة نستنتج من موت المعلم ان هناك حقيقتين اساسيتين فقط في حياة الانسان هما : الانتساب الاجباري للحياة والموت الإجباري . وما يجري بين هذين الحدين فهو « قليل من الحب وكثير من الألم » ص ١٢٣ – ١٢٤ .

ويبدو للقارىء أحياناً أن هذه القصة تريد ان تعالج المشكلة الفلسفية للوجود الانساني هكذا دفعة واحدة ، ابتداء من الوجود الى الموت ومروراً بالبراءة والخطيئة والحب والتسامح والصلب والخلاص وطبيعة الحياة العصرية ورتابة الزمن وغير ذلك .

ومن الصعب التعليق على القيمة الفلسفية الخاصة لهذه المعالجة ، ويشعر القارىء أن المعالجة لاتستطيع ان تثير التساؤلات أو أن تدفع إلى تفحص أسرار الابواب المغلقة كما أنها تعجز عن إيصال وجهة نظر محددة لأمور الحياة ، وفيا عدا اقتراح مسألة المحبة كعلاج لمشكلة التفتت الفردي للناس لانكاد نجد ملامح فكرية أخرى . والجدير بالذكر أن هذا الحل نفسه يخفق في الرواية لأن صاحب المعلم يموت دون أن يترك أثراً في الناس . إن تأملات المعلم بوجه خاص تبدو مفتقرة الى أنفاس الحياة الحارة وتساؤلاته لاتحمل تحديات فكرية . هاهو يشكو من الرتابة :

(... ولكن العجيب ان النهر والبلد متشابهان ، فكلاهما رتيب الحياة ، رتيب الايقاع ، أملس السطح ، غامض الاعماق ، أية عوالم تخفي صفحة النهر هذه تحتها ؟ واية عوالم تخفي البلدة في حناياها ؟) ص ٢٦ .

وخلال صفحات (في المنفى) لايستطيع الانسان إلا ان يتذكر (المحاكمة) لفرانز كافكا . فمفهومات الخطيئة الأصلية والبراءة والنفي الكوني والعذاب الانساني والحتمية المفروضة وانسداد الرؤية هي مفهومات مشتركة بين الروايتين ، وان كانت عند جورج

سالم تأخذ طابعاً مسيحياً ظاهراً وتظهر ميلاً اقوى للقيم الايجابية . والمقارنة على اي حال ليست في صالح جورج سالم على الاطلاق . وتبدو روايته نسخة مبسطة من رواية «المحاكمة» تتبع خطواتها الأساسية من حيث الشكل ، ولكنها تفتقر الى التفصيلات الواقعية البارعة التي تصف الظروف الغريبة المعقدة التي احاطت ببطل الرواية جوزيف ك .

ولعله من الأفضل ان نترك جانباً المقارنة الفلسفية النظرية بين الروايتين لأن ذلك يثير احتمالات عديدة . ويستطيع الانسان من خلال المقارنة بين العناصر الفنية المختلفة ان يصل الى نوع من المقارنة الفكرية ، لأن الرواية عمل فني في الأصل وهي تحمل قيمتها الفكرية من خلال قيمها الفنية ، ولا يمكن ان تكون القيمة الفكرية شيئاً منسلخاً عنها ، لأنها حينذاك لاتبقى رواية .

١ – بطلا القصتين ، المعلم عند جورج سالم وجوزيف ك . عند كافكا . متشابهان مضموناً وشكلاً الى حد بعيد – فكلاهما غريبان ومدانان سلفاً دون ان يدركا السبب او يشعرا على نطاق الوعي العقلي بأنهما ارتكبا اية خطيئة جذرية . وتطارد جوزيف ك . سلطة محكمة محاطة بالأسرار وتسيطر على مجرى حياته ودقائقها سيطرة تامة . وكذلك المعلم في قصة جورج سالم مطارد من قبل حاكم القرية المجهول ومن المجتمع عامة ، وينتهي الى فقدان السيطرة على مجرى حياته .

ويعاني البطلان من معضلة مشتركة لايستطيعان ان يفهماها اذ يواجهان باقتناع السلطات والآخرين بأنهما مذنبان ، ويصبح شغلها الشاغل فيما بعد معرفة التهمة التي تلصق بهما . ان المعلم بريء اصلا ولكنه فيما بعد يخضع لفكرة الخطيئة :

« واستسلم آخر الأمر الى ان هناك جرماً يحوم حوله ولا شك ، وكاد يعتقد بأنه مذنب فعلاً ، وان كان يجهل هذا الذنب ، رغم الجهود المضنية التي كان يبذلها عبثا لاستبعاد هذه الفكرة عن نفسه » (١) . (في المنفى ص ٩٢) .

على أن هذه الناحية تبدو عند بطل كافكا أعمق وأبعد أثراً في حياته بل تصبح الهوس اليومي الذي يصرفه عن ممارسة حياته العادية ويسيطر على فكره وحواسه ، وعلى الرغم من أنه يترك طليقاً ويسمح له بممارسة عمله في (المصرف) كالمعتاد فانه لايستطيع أن يتخلص من فكره كونه معتقلاً ومتهماً ، وهو الذي يسعى الى المحكمة ليبرىء نفسه .

---

(١) وذلك خلافاً لما يشير اليه السيد جانجي من تأكد المعلم من براءته .

ثم ان كلا البطلين يظهران جرأة في تحدي السلطان الغامض للمؤسسات ، ويدخلان أماكن محظورة عليهما مما يضاعف من ذنبها وخطورتها . ان شخصية (المعلم) المحبة للاستطلاع المتخطية للمفهومات المفروضة تشبه شخصية جوزيف ك . في محاولتها التحدي الاشياء المفروضة عليها . فالمعلم يدخل المبنى خلسة ويقتحم مكتبة البلدة وينفض الغبار عن كتبها ويسير بحذاء النهر ويلاطف الطلبة وكلها أمور غير محرمة في حياة البلدة (ص ٤٨ – ٥٢ وغيرها) .

وبالمقابل تصور (المحاكمة) بالتفصيل كيف دخل جوزيف ك . أروقة المحكمة الغامضة وتسلل من مكتب الى مكتب وكيف اقتحم احدى الغرف المهجورة في الفندق ، ليكتشف عملية تعذيب سرية للجنديين اللذين اعتقلاه أصلا ، ويلح في التساؤل عن سبب تعذيبهما ويفهم أخيرا أنه هو الذي أفشى سر ارتباطهما بالمحكمة الغريبة وبذلك يزداد وزره ويحاول أن يدفع عنهما العذاب ولو عن طريق الرشوة . (الفصل الثالث من رواية كافكا) .

لقد كان من أخطر عيوب البطلين أن فضولهما لايقف عند حد بل ان جرأتهما تجاوزت الحدود . وبالاضافة الى هذا التشابه الرئيسي ، هناك تشابه في كثير من التفاصيل المتعلقة بالبطلين ، فالمعلم يتغيب عن المدرسة فلا يهتم أحد بغيابه ويقوم أحد المعلمين بتدريس صفه وصف (المعلم) معا (في المنفى ص ٩٢) وفي رواية كافكا لايهتم أحد لتغيب جوزيف ك . ويقوم (السكرتير بانجاز اعماله في المصرف ، وربما كانت هذه الواقعة تهدف الى الايحاء بعدم اكتراث مؤسسات المجتمع الحديث بالافراد ومصيرهم ، وتعكس عدم أهمية الافراد في نطاق العمل الدولابي للمؤسسات .

٢ – وقد كان مصير (المعلم) في المنفى مشابها لمصير جوزيف ك . ان لم يكن مطابقا . وتفصيلات مشهد الاعدام الاخير في رواية سالم تذكرنا بتفصيلات المشهد الاخير في رواية كافكا على الرغم من اختلاف وسيلة التنفيذ . ان (المعلم) يحبس في معبد مهجور بعيد عن القرية ثم يرجم رجما وحشيا بالحجارة والصخور حتى يقضي نحبه (في المنفى ١١٩ – ١٢١) ، وجوزيف ك . يؤخذ الى مقلع مهجور خارج المدينة وهناك في العراء يقوم مرافقا بعملية اغماد السكين في قلبه بوحشية مرعبة ومقززة . ان بطلي الروايتين يتعرضان كلاهما لحكم الاعدام دون أن يكون في مقدورهما الاعتراض، ويتم في النهاية تنفيذ الحكم بقسوة باردة في عراء بعيد عن المدينة . بل ان كلا منهما يرى قبل موته بقليل الفتاة التي تربطه بها علاقة تعاطف ومودة ، فالمعلم يحظى بزيارة

من المغنية (ص ١٠٦ – ١٠٩) ، وجوزيف ك . يرى فراولين بيرستنر قبل لحظات من موته (كافكا ص ٢٥٢) .

٣ – مشهدا القاء القبض على البطلين متطابقان تقريباً . وفي كلتا الروايتين يقصد رجلان غامضان صارمان مرتديان ملابس رسمية مسكن كل من البطلين في الصباح الباكر قبل تناول الفطور وقبل ارتداء الملابس ويلقيان القبض على البطلين دون اعطاء أية تفصيلات عن التهمة (كافكا ٧ – ٩ سالم ص ٨٧) .

مع العلم أن رواية كافكا تبدأ مباشرة بمشهد التوقيف وهو يعطي التوقيف تفصيلات ممتعة ويبذر فيه البذور الاولى للمواقف التي تلي في الرواية .

٤ – قاضي التحقيق هو نفسه في القصتين بفساده وغرابة أطواره ولا مبالاته وعدم استعداده للفهم . ان سالم يأخذ المصطلح نفسه (قاضي التحقيق) ،ومواصفاته، ويستعير من كافكا طريقته في وصف تصرف قاضي التحقيق واستهتاره بمشكلة الموقوف واعتباره منذ البدء ان الامور مقضية سلفاً (كافكا : الفصل الثاني – التحقيق وما بعده ، سالم ص ٩٥ – ٩٦) .

ثم ان فساد القضاة والرسميين الكبار (من رشوة ووساطات وعلاقات نسائية ومباذل) عنصر مشترك في الروايتين (كافكا : الفصل الثالث، سالم ص ٥٤ وبوجه خاص) .

٥ – تتقدم لمساعدة كلا البطلين امرأة لها علاقة مشبوهة بالسلطان الأعلى أو بالقاضي . ففي رواية كافكا تتعلق الغسالة زوجة محضر المحكمة بكافكا وتتيح له فرصة الاطلاع على سجلات قاضي التحقيق ويكتشف ان لها علاقة بالقاضي (الفصل الثالث ولاسيما ص ٦٢ ، ومابعدها) . وفي قصة سالم تتعلق المغنية ، التي كانت شبه محظية للحاكم ومهوى افئدة الاعيان ، بالمعلم وتتخطى الممنوعات في سبيله وتبذل جهدها لانقاذه (ص ٦٢ ، ص ١٠٥) . والوساطات التي تبذلها المغنية لانقاذ المعلم تذكر بالمساعي المتواصلة اللاهثة التي قدمت لمساعدة جوزيف ك .

٦ – (الحاكم) في رواية سالم ، كالقاضي في رواية كافكا ، ظل مختفياً ومجهولاً ولم يستطع أحد أن يعرفه او يتوصل اليه . وكان يعرف بأعماله وآثاره لا بشخصيته ، وفي رواية كافكا بوجه خاص تبذل جهود مضنية لمعرفته او التوصل اليه وتنتهي باخفاق تام .

وكلما دقق المرء النظر في الروايتين انتهى الى مزيد من الاقتناع بأن جورج سالم متأثر تأثراً شديداً بكافكا ، وهو يتتبع خطاه وينسج على منواله ، ولست أود أن

أوحي بأن مجرد النسج على منوال رواية مشهورة يشكل ادانة لكاتبها . ولكن هذه المحاكاة الشديدة تحتاج الى تسويغ كاف اما من ناحية اختلاف زاوية معالجة الموضوع المشترك او من ناحية اعطاء عمق جديد له . ويكاد المرء يشعر أن (في المنفى) تفرغ (المحاكمة) من محتواها الخاص ولا تقدم بديلاً معتبراً لها ، وهي تفتقر الى صفات الدقة والتنوع والايحاء والوصف المفصل ، تلك الصفات التي جعلت من المحاكمة رواية مقنعة ومثيرة لاهتمام مستمر في عالم الادب ، ومزيجاً فريداً من نوعه بين الدقة الفلوبيرية والايحائية الرمزية . ومن خلال مقارنة فنية خالصة نستطيع أن نلاحظ ان وصف الاشخاص في رواية سالم باهت جداً لايساعد على تصورهم كأناس موجودين ولو بشكل نسبي (وذلك بسبب اغراق الرواية في الرمزية ، والرواية خالية من التشويق أو المفاجأة بل مفتقرة الى المراوغة التي نجدها في (المحاكمة) . ثم ان شخصية (المعلم) ذات الطابع الفكري تبدو مفتقرة جداً الى الحياة وجامدة ، وتتضاءل أمام شخصية جوزيف ك. وذبذباته النفسية التي لم تتوقف عن الحركة ثانية واحدة خلال الرواية كلها والتي توحي للمرء طوال الرواية بأن المحكمة واقع حقيقي مجهول لا لغز رمزي . ويمكن المرء أن يقارن بين الفصول الطويلة التي تتابع الشكل التدريجي لعقدة الذنب عند جوزيف ك. بسذاجة التقريرية التي وصف بها شعور المعلم بالاثم (في المنفى ص ٩٢) .

وختاماً يود المرء أن يؤكد على أن هذه المقارنة يجب أن لا تعطي انطباعاً بالتقليل من شأن محاولة جورج سالم التي تظل لها مكانتها في مجال الرواية الفلسفية في الادب العربي السوري ، أو بالتقليل من شأن الاسهام الجدي الذي ما زال يقدمه هذا الكاتب المثقف في اعطاء القصة السورية لونها الفكري . إن جميع الروائيين عانوا الأمرين في أول تجاربهم مع فن الرواية الشموس ، وهذا لا يعيب أي كاتب على الاطلاق ، وفي حالة جورج سالم بالذات لم يكن يهدف الى التقليد كما ذكرنا في مطلع الكلام بل كان يهدف الى توجيه شكل فني معين لخدمة أغراض فكرية خاصة ، ويبدو أن البنية الفنية لقصته ناءت بحمل هذه القيم الفكرية .

بحثاً عن المجتمع الانساني

للمفكر اليوغسلافي : فليكو كوراتش
ترجمة : مجاهد عبد المنعم مجاهد

من الاعتراضات التي تتكرر مراراً على اشتراكية ماركس الزعم بأنه لا يمكن الدفاع عنها من وجهة النظر الانسانية ، وأنها ترد الانسان والمجتمع الى العوامل المادية

(*) فليكو كوراتش هو أستاذ الفلسفة بجامعة بلجراد حيث حصل على الدكتوراة بعد دراسة في زغرب وبراغ من ١٩٣٣ الى ١٩٣٨ وخلال الحرب العالمية حارب مع الأنصار اليوغوسلاف ، وقد قام بأبحاث في الولايات المتحدة الأمريكية في =

الصارمة وتحط من شأن القيم الروحية التي هي جوهر الانسانية الى مجرد ظل للحياة المادية . ويقال ان اشتراكية ماركس ينقصها المحتوى الانساني وأن مثالها ليس (الانسان) بل (الحيوان الصانع) . وهذه المسائل تفترض وجود نقص في اشتراكية ماركس ، وتعزى الى مادية ماركس ، حيث الهدف الأقصى هو الحط من الانسان وعدم الثقة به .

ومن أكبر الأمثلة الصارخة على مثل هذا النقد ما نجده لدى الفيلسوف الألماني ماكس شيلر ، فهو يشتط في كتابه « مكانة الإنسان في الكون » إلى حد أنه يوحّد بين تصور ماركس للإنسان والمجتمع والمادية الفجة لدى كارل فوخت. إن شيلر يقدم ماركس على أنه يذهب إلى أن « الانسان لايخلق التاريخ بل بدلاً من هذا يتشكل بالتاريخ في ظل الظروف المختلفة ، وهو يتشكل بصفة خاصة بالتاريخ الاقتصادي والبناء الاقتصادي » . وماركس — في رأي شيلر — يعتبر الإنسان هو نتاج الظروف الاقتصادية ويؤمن بأن الابداع الروحي — كما يتجلى في الفن والعلم والفلسفة والقانون .. الخ — هو بدون منطقه الباطن واستمراريته حيث أن أياً من مثل هذه الاستمرارية أو العلية الحقة تقتلعها تماماً الاشكال الاقتصادية .

ان نقدات شيلر ليست جديدة ولا أصيلة . وما كان يمكن أن تستحق نقداته لمفاهيم ماركس جدارة الانتباه لو لم يكن شيلر يعد مؤسس الأنثروبولوجيا الفلسفية المعاصرة، أي ذلك العلم الفلسفي الذي يبحث في التفسير الأساسي للبشر كبعد خاص للواقع . وعندما لايعلم مثل هذا الفيلسوف أية تفرقة بين مادية ماركس ومادية كارل فوخت فانه يصبح جديراً بالعناية أن نؤكد مافي مؤلفات ماركس مما فشل شيلر في التقاطه .

في « أطروحات عن فيورباخ » لماركس نجد الأطروحة الثالثة تسير على النحو التالي :

= الفترة من ١٩٦٢ الى ١٩٦٣ تحت رعاية مؤسسة فورد . وهو مهتم أساساً بتاريخ الفلسفة الحديثة والأنثروبولوجيا الفلسفية وعلم الاجتماع ، وهو مؤلف (نقد العقل المحض لكانت) و (أساس فلسفة التاريخ عند هيجل) و (الشخصية في الاشتراكية) و (ماركس وعلم الاجتماع المعاصر) وعدد كبير آخر من الكتب .

وهذا الفصل هو الفصل الأول في كتاب (الانسانية الاشتراكية) الذي أشرف على جمع مقالاته عالم النفس الأمريكي إريك فروم وقد ظهرت الطبعة الأولى للكتاب عام ١٩٦٥ .

« العقيدة المادية القائلة بأن الناس هم نتاج الظروف والتربية وأن المتغيرين هم لهذا نتاج الظروف الأخرى والتربية المتغيرة، تنسى أن الظروف إنما يغيرها الناس وأن المربي نفسه يجب أن يتربى . وبالتالي فان المادية تفضي بالضرورة الى تقسيم المجتمع الى قسمين يرتفع قسم منه فوق المجتمع (عند روبرت أوين مثلاً) ولا يمكن تصور تطابق تبديل الظروف والنشاط الانساني وفهمها عقلانياً إلا كممارسة (سلوك غرض) تصطبغ بالصبغة الثورية » .

من الصعب الاعتقاد بأن شيلر لم يكن يعرف هذا النص ، بالرغم من أن التجربة تبين أن اشد نقد وأعنفه على ماركس لا يأتي الا من جانب الخصوم الذين يجهلون كتاباته جهلاً مطبقاً . ولكن اذا افترضنا أن شيلر قد قرأ ماركس في الواقع ، بما في ذلك « أطروحات عن فيورباخ » فان الانسان يجب أن يستنتج أنه قد فشل ـ مثل كثير من الآخرين ـ فشلاً تاماً في التقاط الاستثناء النقدي الذي جعل ماركس كمادي يحمله على أحادية وضيق أفق المادية التقليدية . ان كتابات ماركس ـ على عكس الصورة التي يريد شيلر وكثير من الآخرين أن يرسموها ـ تشير بوضوح الى الدرجة التي أكد عندها أن التاريخ الانساني هو في الواقع من خلق الانسان . ألم يشر ماركس في الجزء الأول من « رأس المال » الى جيامباتيستا فيكو الذي كتب أن الفرق الجوهري بين تاريخ الانسانية والتاريخ الطبيعي انما يقوم في أن التاريخ الأول هو من عمل الانسان وأن التاريخ الثاني ليس من عمله ؟ غير أن ماركس لا ينصب الانسان فوق التاريخ ووراءه في دور الخالق الشامل القوة المتحلي بصفات إلهية ، بل بالأحرى أنه يدرس الانسان في التاريخ نفسه ويؤكد أن « كل ما يسمى تاريخ العالم ليس سوى خلق الانسان بالعمل الانساني » وهكذا نجد أن الانسان ليس نتاج عمل قوى « عليا » (ولديهم ما تتصوره عن هذه القوى) وليس من نتاج عمله محدداً دفعة واحدة للأبد . إن الانسان وهو يخلق التاريخ انما يخلق نفسه، وهو فيما يخلق نفسه انما يخلق التاريخ . وسر هذا الخلق هو العمل الانساني الذي لا يكون انسانياً الا بقدر ما يوجه ـ على نحو غرضي ـ القوى الطبيعية لتعمل في صالح الانسان . وبهذا يرفع الانسان نفسه فوق الضرورة الطبيعية كبعد خاص للواقع .

ان أولئك الذين يذهبون الى أن ماركس فهم وشرح الانسان بكل بساطة على أنه نتيجة الظروف المادية اما أنهم لا يفهمون أو لن يفهموا معنى الموقف الأساسي لماركس :

(ان جذور الانسان هو الانسان نفسه) . وهذا الموقف الذي هو موقف أساسي في تصور ماركس للانسان ، انما يبين بوضوح أين تختلف مادية ماركس عن المادية التقليدية. وهذا الموقف هو الذي خول لماركس أن يحتل تلك المكانة البارزة بين مؤسسي الانثروبولوجيا الفلسفية المعاصرة وعلى الاجتماع المعاصر وهو دحض لمحاولة شيلر أن يقدم تعريف ماركس للانسان على أنه النتاج البسيط والعرضي للظروف والأحوال المادية . ان ماركس لم يبحث عن جذر الانسان في الطبيعة التي يجري تصورها بشكل محض ، ولم يبحث عنه في كليــة المجتمع المتصورة بشكل مجرد ، إنه يبحث عن جذر الانسان في الممارسة الانسانية التي لا تكون انسانية الا بقدر ما ان العمل الانساني يختلف عن عمل كل مخلوق حي آخر (أي بقدر ما أن أسوأ مهندس انساني أرقى من أفضل نحلة ، بالرغم من أن النحلة في بنائها لخليتها انما تخجل العديدين من المهندسين) .

وليس هناك أي سر في التأكيد على أن طبيعة الانسان أو ماهيته تختلف عن طبيعة أو ماهية المخلوقات الحية الاخرى وان جذر الانسان هو الانسان . ولا يشير هذا إلا الى الحاجة الى اعتبار غرضية النشاط الانساني نقطة انطلاق أي بحث للانسان وجميع أنواع النشاط الانساني . والغرضية هي تلك الصفة الجوهرية للروح الانسانية التي تمكن الانسان من السيطرة على الطبيعة أو أنسنة الطبيعة على حد قول ماركس . وبينما نجد أن كل المخلوقات الاخرى – مهما كانت ذكية – لاتستطيع أن تتصرف الا في اطار نوعها، وتظل خاضعة بشكل أو بآخر للضرورة الطبيعيــة المباشرة ، فان الانسان قادر على تحرير نفسه من تلك الضرورة وانتحال صفات الأنواع الاخرى . وهكذا نجد أن الانسان وحده يستطيع أن يسيطر على نحو شامل على امكانية الطبيعة المبعثرة لأغراضه ومن ثم يصبح نوعاً مطلقاً ينتج كل الطبيعــة على حين أن المخلوقات الاخرى لاتنتج سوى نفسها . وبينما المخلوقات الأخرى مقيدة دائماً بالضرورة المباشرة ، فان الانسان يمكن أن يتحرر منها . وفي هذا ، وفي هذا فقط ، يعمل الانسان بالفعل كانسان

وهكذا ، عندما يقول ماكس شيلر إن فرادة الانسان قائمة في أنه يستطيع أن يقول « لا » حتى لاحتياجاته الحيوية وانه يستطيع أن يكون « انجذاباً روحياً مبدئياً للحياة » فانه يكرر بالفعل في سياق أكثر تضييقاً ماسبق أن قاله ماركس من قبل على نحو أعمق . وسواء جرى تفسير أصل الانسان بنعمة الرب أو كنتيجة عرضية للقوى الطبيعيــة ، فان التاريخ يبين أنه يشيد وجوده بالسيطرة العقلية للقوى « الأرقى »

التغلب العقلاني على الضرورة الطبيعية المباشرة . وبطبيعة الحال ، علينا ونحن نبحث عن الانسان أن نوضح جميع العوامل والمكونات الخاصة بوجوده الانساني وأن نفسر كل شيء يخلقه وهو يخلق نفسه ، كانسان ، غير أن واقعة كونه انساناً تظل معضلة الى أن نفسر غرضية سلوكه أو جذر ما هو « طبيعة » انسانية بصفة نوعية .

ان كثيراً من مفسري أفكار ماركس ، سواء اعتبروا أنفسهم من أتباعه أو من خصومه ، لم يبذلوا أية محاولة لاستيعاب الامكانات النظرية لتفسيره ماهية الانسان النوعية لعلم الاجتماع والعلوم الاجتماعية بصفة عامة والاشتراكية . زيادة على ذلك ،فان بعض من رغبوا في أن يقدموا أنفسهم على أنهم أكثر أتباع فكر ماركس تماسكاً أو حتى أكثرهم صدقاً أعلنوا أن الانسان لايستطيع ـ بروح فلسفة ماركس ـ أن يتحدث عن الانسان كانسان أو الانسان بصفة عامة أو الطبيعة الانسانية أو الماهية الانسانية ، بل يتحدث عنه على أنه يمت الى تشكل اجتماعي ـ اقتصادي نوعي ويمت الى طبقة خاصة الخ . وتبلغ نسبة الآخذين بهذه النظرة الأحادية الجانب نسبة كبيرة في الآداب الماركسية المعاصرة .

وعلى أية حال ، فان الألفة بفكر ماركس المستمدة من كماله لا من خلال كتابات ستالين أو الأفكار الستالينية تجعل من المسائل البسيطة التأسيس فيما يتجاوز الشك أن ماركس من مولده حتى نهاية حياته فكر وكتب عن الانسان كانسان وعمل على اعطاء أكمل تعريف يمكن للماهية الانسانية . وهو لم يستطع أن يفعل شيئاً آخر غير هذا لأن مشكلة الانسان كانت بالنسبة له جوهرية ويزداد الأمر حيث أن التعريفات التي كانت قائمة أيامه لم تكن مرضية . ولكي يمكن شرح المجتمع ، كان أول من أدرك أن الانسان كنقطة انطلاق يجب أن يعرف أولا بشكل جلي . وأولئك الذين لم يدرسوا بجدية كتابات ماركس يعتقدون أنه بعد مؤلفاته المبكرة تخلى عن بحث الانسان كانسان . ولكن ليس هذا صحيحاً بالنسبة لعمل ماركس اذا ما أخذ ككل .

لقد نوه بشكل واضح في المجلد الأول من « رأس المال » أننا في المجتمع الرأسمالي « نجد أن القائد والصيرفي لهما دور كبير لكن (الانسان) كانسان ليس له الادور تعس» . وهكذا نجد أن العنصر الانساني في الانسان غريب في الرأسمالية . انه وهو ينقد بنتام ويندد به على نزعته غير الروحية حيث يكرر ما سبق أن قاله هلفيتوس والفلاسفة الفرنسيون الآخرون في القرن الثامن عشر بفكاهة قال :

« لكي يعرف الانسان ماهو المفيد لكلب ، عليه أن يدرس الطبيعة الكلبية ،وهذه الطبيعة لاتشتق من (مبدأ الاستخدام) . وعندما يطبق المبدأ نفسه على الانسان ، أي عندما نريد أن نقيم كل النشاط الانساني والعلاقات الانسانية الخ ، فان المسألة الأولى هي الطبيعة الانسانية بصفة عامة والمسألة الثانية هي مايتغير مع كل حقبة تاريخية .وبنتام ليس معنياً بهذا على الاطلاق . إنه قانع ، بسذاجة وبرود ، بأخذ إنسان الطبقة الوسطى الانجليزي الحديث على أنه تمثل لنمط (الانسان السوي)

إن ماركس وهو أبعد مايكون عن إهمال مشكلة الطبيعة الانسانية بصفة عامة ، قد انتقد أولئك الذين لم ينظروا فيها . ولقد تحفظ أيضاً على تعريف الانسان ككائن يظل الى الأبد هو نفسه كما يبدو في نقطة من نقط التاريخ أو في نظام معين . إن اعتراض (إجراء التغيرات اللازمة) له ثقل على تلك النظريات الاشتراكية التي نقدها ماركس بشدة لأن هذه النظريات وهي تفترض ان الانسان ثابت ومعزول للأبد تقترح مجتمعاً مثالياً يتطابق — في رأي دعاتها — خير تطابق مع الانسان على نحو ماعرفوه . وعلى أية حال ، اعتبر ماركس أن للانسان مقدرة على تحقيق التحقق الذاتي من خلال عملية الخلق الذاتي . وبينما فشلت النظريات الاشتراكية الأخرى في بحث الأسباب التي تضم اغتراب الانسان عن الانسان وعن المجتمع الانساني ، فان نظرية ماركس وقد قامت على أساس مفهوم جديد للانسان اقترحت بحث ظاهرة المجتمع الطبقي المعاصر كشرط أساسي للسلوك الغرضي الانساني .

إن ماركس وقد تأسس من خلال التحليل النقدي لاغتراب الانسان عن الانسان وعن نتاج عمله حتى عن نشاطه الانساني الخاص قد طرح مشكلة استئصال كل هذه الأشكال الخاصة بالانحطاط الانساني وإمكانية استعادة المجتمع « الانساني » . هذه هي المشكلة الرئيسية . إن الاشتراكيين الآخرين كنقاد للمجتمع القائم عرفوا أيضاً أن مجتمع الملكية الخاصة ليس سوى مجتمع الاستغلال الذي لايرحم والانحطاط الانساني وتشويه الانسان ، لكنهم لم يحللوا إطلاقاً على نحو عميق أسباب مثل هذه الحالة . لقد آمنوا بأن المجتمع يمكن ان يتحول وفق خطة أنموذجية لشكل أكثر كمالاً للعلاقات الاجتماعية التي يمكن أن يتحقق بانتصار العقل بمجرد ان يتبين الناس فائدة هذه الخطة بالنسبة لهم . وتظل القوى المحررة الحقيقية داخل المجتمع مجهولة في نظرهم تماماً كما تظل المناهج الحقيقية لقهر الانحطاط واللا إنسانية القائمين مجهولة . ولهذا السبب تفضي كل المحاولات لتحقيق مثل هذه المشروعات إلى لاشيء .

ومع هذا ، فان فكرة الاشتراكية ليست فكرة تصالحية وسطية . ولقد كان ماركس على وعي تام بهذا عندما واجه المعتقدات الشيوعية والاشتراكية المختلفة . لقد فقدها جميعاً من أولها إلى آخرها بل لقد رفض بعضها بسبب معتقديها عن المساواة ونزعتها الوهمية وانحرافاتها الأخرى . وكل فكرة للمساواة الساذجة التي تلقى مقدماً اعتبرها معتقدية . وبدلاً من هذا اختار النقد المتماسك للا إنسانية في المجتمع القائم . لقد بحث عن جذر التناقضات الرئيسية في ذلك المجتمع ، وتوصل الى ظاهرة التعارض الذي لا تصالح فيه بين رأس المال والعمل . ولما ووجه بهذا شرع في البحث عن تفسير لماهية الانسان النوعية التي وجدها في غرضية العمل الانساني . لقد لاحظ أنه « والانسان يتحدث عن العمل إنما يتناول الانسان نفسه بشكل مباشر » وأضاف قائلاً : « وهـــذه الصياغة الجديدة للمشكلة تحتوي من قبل على حلها » . لقد أراد ان يكتشف لماذا ينتج العمل الأعاجيب للأثرياء لكنه ينتج المسغبة والتعاسة للعامل . ماهو التناقض في العمل نفسه ؟ إذا كان الانسان بعمله يخلق نفسه ، فلماذا إذن يكون عمله شيئاً غريباً ، ويكون مشقة بدلاً من أن يكون إشباعاً ؟ لماذا يكون الانسان مغترباً عن الانسان وعن إنسانيته ؟

فاذا كانت هذه الأسئلة جميعاً تتولد بالضرورة من مفهوم ماركس للانسان فإنهـــا تكون مسألة أكثر من واضحة ، والاجوبة التي أدلى بها لها معنى حاسم بالنسبة لنظريتـه كلها وممارستها - فمن هذه الاجوبة استمد نظريته الاشتراكية . ان محتواهـا الجوهري هو أن الانسان وهو يخلق نفسه من خلال العملية الاجتماعية - التاريخية يصبح بالامكان أكثر انسانية لان طريقته في الحياة في ظل الظروف السائدة لتقسيم العمـل والتطاحن الطبقي تسمح لانسانيته بأن تتجلى وتؤكد ذاتها في جانب فحسب . والانسان وهو يزيد من قدرته وسيطرته على الطبيعة إنما يطور بعد وجوده النوعي لكنه يظل عاجزاً عن توجيه وجوده الاجتماعي لان وجوده يظل غريباً ومجهولاً . وفي مجتمع الملكية الخاصة والاستغلال يتجلى الاغتراب الشامل نفسه كاغتراب لتلك الامكانات التي ترفع الانسان فوق كل الكائنات الحية الاخرى . وحتى مزايا العلم والتكنولوجيا تصبح أدوات للانسانية . وهذا هو السبب الذي يجعل مشكلة استئصال الاغتراب وضمان التطور الحر تبـدو على أنها مشكلة الحرية الاجتماعية .

إن هنالك تأكيداً بأن كل أشكال الاغتراب هي نتيجة اغتراب النشاط العامل للانسان

وان الملكية الخاصة باعتبارها « التعبير المادي الحسي لحياة الانسان المغترب تسبب العادة الغبية لاعتبار أن الشيء لايكون للانسان إلا بامتلاكه »، ولهذا استنتج ماركس أنه بدون تحرير العمل تحريراً كاملاً وحقيقياً لن يستطيع الانسان أن يصبح انساناً ولن يستطيع المجتمع أن يصبح مجتمعاً انسانياً ان القضاء على الملكية الخاصة والاستغلال ليس الا الخطوة الاولى في هذا الاتجاه ، وإن أنسنة العمل هي المهمة المباشرة الاولى للتطبيق الاشتراكي. ولكن حتى يمكن تحقيق هذا ، من الضروري معرفة أية قوى اجتماعية هي التي تستطيع أن تحقق هذه المهمة . إن ماركس وقد بدأ بواقعة الاغتراب بيّن أن الغربة الكلية والانحطاط الانساني الكلي (على حد تعبيره : « الفقد الكامل للانسان ») قد أصبحا شاملين في المجتمع الحديث مما يفضي الى المعاناة الشاملة . لقد كان هدف ماركس هو (الانسان) الحق ـ الذي يعيش في ظل الظروف المحررة للعمل والذي لايتجزأ بتقسيم العمل . وقد قامت رؤيته لمستقبل البشرية على أساس افتراض أن مثل هذا الانسان ليس ممكناً فحسب ، بل هو النتيجة الضرورية للتطور الاجتماعي وهو جوهري لوجود مجتمع انساني حقيقي . وبهذه الروح كتب قائلاً : « ان وجهة نظر المادية القديمة هي (المجتمع البورجوازي) ؛ ووجهة نظر المادية الجديدة هي (الانسان) أو الانسانية المصطبغة بالصبغة الاشتراكية » .

لهذا ليست الاشتراكية هي الهدف الاقصى لماركس بل هي اقتراب من هذا الهدف. إن هدفه الاقصى هو المجتمع (الانساني) ؛ المجتمع الذي لايعود فيه انحطاط انساني ، ويكون العمل فيه متحرراً حقاً وتتوفر لدى الانسان كل الظرف الضرورية لتطوره وتأكيد ذاته . ان ماركس لايقترح مجتمعاً مثالياً تتحقق فيه حرية الفرد بشكل آلي ، فهو يعرف أن هذا ضلال ، لان المجتمع الحر يظل تجريداً إذا لم يكن كل فرد من ذلك المجتمع ليس حراً كفرد . لهذا أوضح أن قيام مجتمع (انساني) جديد لايمكن أن يكون إلا كترابط بين الناس حيث (تصبح فيه حرية كل فرد شرط حرية الجميع) .

حرية الشخصية الانسانية هي عند ماركس ليست تجريداً أجوف كما أنها ليست مجرد حلم من أحلام الشباب كما يجب أن يذكر الذين يشوهون سمعته من المحافظين . يقول في « رأس المال » بوضوح ان الحرية في العلاقات الاجتماعية تكمن لدى الناس المترابطين الاحرار والمنتجين المترابطين الاحرار الذين ينظمون بشكل عقلاني تبادلهم للمادة مع الطبيعة ، ووضعها تحت السيطرة الاجتماعية حتى يمكن ان يحدث التبادل بأقل انفاق في

الطاقة قدر الامكان وفي ظل ظروف جديرة بطبيعتهم الانسانية . وبهـذه الطريقة يمكن للعمل المغترب الذي يسبب المسغبة والتفكك وسرقة العامل انسانيته ان ينتهي . ومن ثم عندما يتحدث ماركس عن المسغبة المطلقة بالنسبة للعامل في الرأسماليـة ويعلن أن تراكم رأس المال يتساوى مع تراكم البؤس فانه يفكر في حياة العامل اللاإنسانية في كل جوانبها ولا يفكر في فقره الاقتصادي فحسب. وهذا ما كان في باله عندما كتب أن تراكم الكدح والعبودية والوحشية والانحطاط الخلقي هو من نصيب الطبقة نفسها التي تخلق انتاجها على شكل رأس مال » .

إن العمل المحرر بشكل حقيقي سوف يهيء الظروف للحياة الاجتماعيـة الحرة فساعتها فقط سيصبح العمل بالفعل (انتاجاً) أي نشاطاً خلاقاً يبدل الفرد إلى شخصية. ولقد رأى ماركس تطور المجتمع على أنه تطور كل فرد ومن ثم فان الهدف الاقصى لتطور المجتمع أصبح الحرية الكاملة والحقة للشخصية التي هي الشرط الجوهري لحرية الجميع .

إن النظريات الاشتراكية والانسانية التي كان يتناولها ماركس أحياناً لاتوجه إلا انتباهاً بسيطاً للغاية لهذه المشكلة ؛ زيادة على ذلك ، فان معظم هـذه النظريات تفترض الاشتراكية أو الشيوعية المثالية بطريقة تتجاهل حرية الشخصية .

لقد كان ماركس خصماً وناقداً مليئـاً بالحيوية لكل من أمثال هذه الاشكال من الاشتراكية والشيوعية كما يتضح من موقفه من كابيه وويتلنج . لقد وصف ماركس مذهبيهما عن المجتمع المثالي بأنها « بدائيان » أو « فجان » ولاحظ أن ،

« هذه الشيوعية التي تنفي شخصية الانسان في كل مجال ليست الا التعبير المنطقي عن الملكية الخاصة التي هي هذا النفي . و (الحسد) الشامل الذي ينصب نفسه كقوة ليس الا شكلاً مضللاً من الطمع الذي يعيد تأسيس نفسه ويشبع نفسه بشكل مغاير . وان أفكار كل فرد مع الملكية الخاصة موجهة (على الأقل) ضد أية ملكية خاصة (أكثر ثراء) على شكل حسد ورغبة في رد كل شيء إلى مستوى عام مشترك ؛ حتى أن هذا الحسد والسواسية في الحقيقة يشكلان جوهر المنافسة . والشيوعية الفجة ليست الا ذروة مثل هذا الحسد والسواسية المنحطة على أساس حد أدنى (متصور من قبل) . ويتضح كيف أن ضآلة استئصال الملكية الخاصة انما يمثل تملكاً أصيلاً بالنفي المجرد للعالم

الكلي للثقافة والحضارة والقهقرى الى البساطة (اللاطبيعية) للفرد الفقير والمعوز الذي لم يتجاوز فحسب الملكية الخاصة ، بل لم يحصل عليها بعد »(١) .

ان اشتراكية ماركس معارضة بصفة كلية لكل شكل من أشكال البساطة اللاطبيعية ولكل سواسية وفقد كامل للفرد في النزعة الكلية اللاشخصية اللاصماء . وبدلا من هذا اقترح التطور الحر والشامل للفرد باعتباره (الشرط) الضمني للحرية من أجل الجميع ومثل هذا الترابط بين الناس يقضي أولا وقبل كل شيء الغاء الطبقات ولكن لا بمعنى السواسية البدائية كما عند كامبانيلا ، بل هو بالأحرى بالمعنى الذي أكده فريدريك انجلز : « ان الغاء الطبقات الاجتماعية يفترض مستوى من الانتاج عنده لا يكون تملك المنتجات ووسائل الانتاج ومعها القوة السياسية واحتكار التربية والهداية الروحية بطبقة اجتماعية خاصة من نافلة القول فحسب بل يكون اعاقة للتقدم الاقتصادي والسياسي والثقافي». وهذا هو السبب الذي جعل ماركس يتوقع أن الثورة الاشتراكية ستبدأ في أكثر بلدان العالم الرأسمالي تقدماً .

وعلى أية حال ، يبين التاريخ المعاصر أن الثورات الاشتراكية لم تحدث في الدول المتقدمة صناعياً بل في تلك الدول التي هي على حافة القيام بثورة صناعية ؛ كما أن التطبيق الاشتراكي المعاصر يحتوي في الغالب على استطرادات واضحة من بعض المبادىء الرئيسية للنظرية الاشتراكية عند ماركس ، زيادة على ذلك ، ان بعض التطورات الاشتراكية التي حدثت يصعب للغاية التوفيق بينها وبين أية اشتراكية اذا تجاوزنا عن اشتراكية ماركس . وبطبيعة الحال يؤخذ هذا على أنه حجة ضد الاشتراكية بصفة عامة وضد اشتراكية ماركس بصفة خاصة .

ان الفلسفة الجدلية التي أقام عليها ماركس نظريته الاشتراكية لاتستطيع أن تتجاهل هذه الانحرافات بمثل ما لايمكن تجاهل الاعتراضات على اشتراكيته . انفلسفة ماركس باعتبارها فلسفة نقدية وثورية تقرر أن نظرية ما ، لاتحيا في شعب من الشعوب إلا بقدر ماهي تحقق لاحتياجات ذلك الشعب

---

(١) المخطوطات الاقتصادية والفلسفية ، ترجمة انجليزية من وضع بوتومور في كتاب إريك فروم « مفهوم ماركس للانسان » [ترجمته أخيراً وهو قيد الطبع] نيويورك ، ١٩٦١ ، ص ١٢٥ .

وهكذا يثار السؤال عن ماهو القدر الكبير والكيف العظم من الاحتياج الى الاشتراكية في الدول المختلفة التي تجد نفسها على حافة ثورة صناعية . ماهي الاحتياجات الأولية لمثل هذه الدول ؟ سواء سمت نفسها دولاً اشتراكية أم رأسمالية ، فمما لاشك فيه أن احتياجاتها الأولية مرتبطة بتطور الانتاج المادي . ولهذا السبب فان مشكلات التصنيع تفوق في ثقلها كل المشكلات الأخرى حتى العلاقات الانسانية ؛ فالايمان بحياة أفضل الذي انبعث في جميع أنحاء العالم بعد الثورات الاشتراكية المنتصرة هو باعث قوي على الفعل وهو يصبح عنصراً مثمراً في التطبيق الاجتماعي ويضاعف من التطور الاجتماعي . غير أن هذا الايمان مع امكانيات محدودة لتحقيقه يجب بالضرورة أن يظل قاصراً على أيديولوجيات السعادة الانسانية . وهكذا كان الأمر في الماضي وهو الآن اليوم . إن الاعتبار الاول بالنسبة للمجتمع الفقير وكذلك بالنسبة للانسان الفقير هو إشباع الاحتياجات الأولية والاستمتاع بالمتعة المادية الأولية . ولما كان المثال الاشتراكي والشيوعي المعاصر للنظام الاجتماعي (كما صاغه ماركس وانجلز على أساس تحليلها الناقد للمجتمع القائم) يفترض مستوى عالياً من تطور قوى الانتاج ، فان الخطر ماثل في اعتبار الاشتراكية في الاطار الاقتصادي المحض هي الهدف الوحيد والاقصى للتقدم الاجتماعي .

إن الاتجاه الملاحظ كثيراً في الدول الاشتراكية نحو أخذ التقدم التقني والنمو في قوى الانتاج (هما في حد ذاتها ليسا العلامة المميزة للاشتراكية لانها صفة عامة من صفات الرأسمالية) على أنها معيار درجة الاشتراكية والتقدم الاجتماعي المتحصل دليل على هذا الخطر خاصة وأن تقدم الانسانية والحقوق الشخصية يظل في الوقت نفسه مسألة ثانوية . وكلما كانت البلد أقل تطوراً ، زاد اتجاهها – في أكثره – نحو النزعة الخاصة بالمساواة البدائية وكبت الحرية الشخصية . والامر يصل الى حد أن يتخذ مثال الاشتراكية – في بعض البلدان – الشكل الذي ينقده ماركس بالضبط بشكل عنيف باعتباره « ردة الى التبسيط (اللا طبيعي) عند الفرد الفقير والمعوز » وباعتباره « حسداً شاملاً » (الصين) . إن الرغبة في مضاعفة الانجاز التقني المادي تفضي الى التضحية البشرية المتعمدة ومحاولة تبرير مثل هذه التضحية بالضرورة التاريخية . ولكن يمكن جعل التبرير مقنعاً ، بحل التاريخ الخيالي المصطنع محل التاريخ الحقيقي : تجري التضحية بالحاضر باسم مستقبل باهر ؛ ويكون الناس الاحياء ضحايا سعادة الاجيال القادمة – تماماً مثلما وعدت الايديولوجيات المسيحية بمملكة السماء مكافأة للمعاناة الدنيوية .

ان الاهداف الخيالية المشتطة التي يجري تجنيدها فوق الاهداف المباشرة يجري عرضها على أنها مثل مطلقة يكون من الضروري التضحية من أجلها بكل شيء .. وهكذا نجد أن التفاؤل التاريخي الذي حرك الناس ولا يزال يحرك الناس للتشوق الى مستقبل أفضل يتناقص الى أداة مشتركة للسياسات الراهنة ويفقد كل ارتباط له بالمثل الاشتراكية .

هناك أكثر من مثال كاف لبيان كيف أن الانسان يصبح باسم الاشتراكية مجرد أداة لبعض الأهداف الثابتة بصرف النظر عن الواقع الموضوعي . ويصبح تقدم الانسان والبشرية ذيلا لتقدم ذاتية تقف فوق الانسان ويمكن أن تكون « المجتمع » أو « الدولة » أو « التكنولوجيا » الخ . وفي كل حالة ، يشلح الانسان الفرد ـ على نحو متزايد ـ شخصيته على حين تتأكد البشرية كهدف « أكبر » للتاريخ على نحو متزايد

وكل هذا يلقى تعبيراً عنه في الأنواع المختلفة للنزعة الآلية الايديولوجية ونزعة التطابق وفي الفلسفة والعلم والفن والادب ـ في كل ضرب من ضروب النشاط الروحي . ان الابداع الروحي يتحول الى أداة للايديولوجيا والسياسة حتى تصبح مغمورة في عناصر السلوك المعاصر الذي أصبح علامة من العلامات الجوهرية للبيوقراطية ودولة المؤسسات والنزعة الشمولية في عالم اليوم ويساء تطبيق المعايير الأخلاقية العليا للاشتراكية من أجل الأغراض الممتهنة ، وغالباً من أجل تلك الأغراض التي تتطابق مع مصالح البيوقراطية التي لاتفكر الا في ذاتها وتوحد بين النفس والمجتمع والاشتراكية وتتحدث عن مستقبل مثالي على حين تتمتع بملذات (اليوم) وتعتبر نفسها المفسر الوحيد للقوانين التاريخية .

وتتضح النسب التي وصل اليها هذا الاتجاه من التطبيق الستاليني الذي لم يكف بالطبع في اللحظة التي أبعد فيها جثمان ستالين من مقبرة لينين الى الميدان الأحمر . والموقف في الصين المعاصرة هو خير دليل على الاتجاه نحو إحياء نزعة الدولة الستالينية وتحويلها الى انموذج خاص لنزعة المساواة البدائية والبائسة . وهذا الانموذج هو الذي يريد أن يفرض نفسه بشكل قمع على البشرية المعاصرة باعتباره أنموذج الاشتراكية ـ والذي يعني أن التطبيق الستاليني يريد أن يفرض نفسه من مستوى أقل دونية عما اعتاد أن يحدث ، وهو مستوى ليس فيه أي شيء مشترك مع أفكار ماركس عن المجتمع (الانساني) . في التطبيق الستاليني يتحول الايمان بالاشتراكية الى ايمان بالواقع

الرئيسية لتعسف المستبد ويصبح باسم بعض الأهداف المستقبلية « الأعظم » و«السعادة المستقبلية للبشرية » مضاداً للانسانية ومضاداً للنقد بأقصى درجة الى أن يتحول في النهاية الى حالة قاسية من الصنمية .

ولقد صور أيديولوجيو الدولة البيروقراطية افتراقهم عن نظرية ماركس الاشتراكية في مناسبات عديدة . مثال صارخ على هذا التفسير التالي لحرية الشخصية في الاشتراكية :

« الشخصية في الاشتراكية حرة بفضل أن كل الناس أحرار . وفي ظل ظروف المزارع الجماعية الاشتراكية والديمقراطية الاشتراكية لاتهدد ولا تستطيع أن تهدد حرية عضو المجتمع حرية الآخر »(١) .

وهكذا نجد أن العلاقة بين الشخصية والمجتمع تفرض بشكل مطلق يذيب الشخصية في المجتمع أو في « الناس » ويتم هذا باسم المصالح « العليا » التي تسمى أيضاً بالمصالح الجماعية . إن هذه المصلحة « الجماعية » تكف عن أن تكون جماعية بمجرد استبعاد المصلحة الفردية أو الشخصية وهذا ما يجري نسيانه . ولكن هذا المنهج هو الذي تمثل به البيروقراطية مصالحها . والشيء الأكثر وضوحاً مع وجود شخصية كالتي رسمناها أنه لا يتبقى شيء من الترابط بين الناس ذلك الترابط الذي حدثنا عنه ماركس والذي تكون فيه حرية كل فرد (شرط) حرية الجميع . ومن الواضح – اذن – أن التطبيق قد أصبح في الحقيقة منفصلاً تماماً عن نظرية ماركس الاشتراكية لأن قضيته واضحة بما فيه الكفاية : حيث لا توجد حرية الشخصية لا توجد ولا يمكن أن توجد أية حرية « للناس » .

ويحب نقاد اشتراكية ماركس وخصومها أن يستخدموا مثل هذا التطبيق كسلاح ضد اشتراكية ماركس ، بمثل ما يستخدمون مادية كارل فوخت في جدالهم ضد مادية ماركس . انهم ينسون أن هذا التطبيق قد تخلى عن ماركس وأقام لنفسه أيديولوجيته التي ليس فيها شيء مشترك مع أفكار ماركس بصرف النظر عما ينسب اليه . وفي البلدان التي مارست الثورات الاشتراكية قبل أن تكون لديها ثورات صناعية ، اذا كانت كل أنواع تشويهات الأفكار الاشتراكية قد ظهرت فان هذا لا يقوم ذريعة ضد مبادىء اشتراكية ماركس أو امكان تحقيق هذه المبادىء في ظل ظروف أكثر تطوراً أو اختلافاً

---

(١) المجلة السوفيتية Vaprosi Filosofi العدد ٩ عام ١٩٥٨ .

وبمناهج مختلفة . ان التناقضات في التيارات المعاصرة للاشتراكية تظهر كثيراً لأن بعض التطبيق الاشتراكي يريد أن يفرض نفسه على أنه الأنموذج الممكن الوحيد للاشتراكية .

والاتجاهات التي تهدف الى تجاهل أو اخفاء هـذه التناقضات مضادة لمبادىء ماركس الجدلية التي تحاول أن تعرضها وتحلها – وتكمن قوتها الخلاقة في هـذه المحاولة (بالضبط) . ولهذا لا يمكن التوفيق بين فلسفة ماركس والمعتقدات البيروقراطية التي تعلن أن الاشتراكية أو الشيوعية في بلد ما هي حقيقة مكتملة من ذي قبل . بالعكس ، إن ما هو ضروري ـ حسب رأي ماركس ـ هو نقد غير مشروط لا يقيم تصالحاً وتوفيقاً « لكل شيء قائم » وبقدر ما يوجد مثل هذا النقد يمكن أن تتحقق مبادىء ماركس الاشتراكية وتتأكد . وهذا هو السبب الذي يجعل مثل هـذا النقد يكتسب – على نحو متزايد – خصائص التمرد الانساني ضد النزعة البراجماتية العملية البيروقراطية – التكنوقراطية وضد كل أشكال الانحطاط والاغتراب – مهما يكن المجتمع الذي تطبق فيه .

لهذا فان العودة الى ماركس في أصوله والى البحث عن المبادىء الانثروبولوجية والانسانية لاشتراكيته ليس هرباً الى ماض بال ، بل بالأحرى إنه تأكيد المفهوم القائل – في الاشتراكية التي تحمل اسم ماركس – بأن الانسان كانسان لا يمكن تضحيته من أجل مصالح « عليا » مزعومة للمستقبل ، بل يظل دائماً الهدف الأقصى لاتجاهات « اليوم » نحو المجتمع (الانساني) نظرية وتطبيقاً . وهذا هو السبب الذي يجعل الاهتمام بأفكار ماركس أكثر حيوية اليوم مما كانت في الزمن السابق .

حواريّة في
٩ لوحات

قلق .. لا أكثر

عادل أبو شنب

اللوحة الأولى

« ضجة الأولاد تملأ المنزل ، ورنين
جرس الهاتف يرافق الضجـة .. »

الأب : ألو « للأولاد » اسكتوا . « للمتكلم » من ؟
الصوت : رجل !

الأب : رجل ؟ « للاولاد » قلت لكم اسكتوا « للمتكلم » ماذا تريد ؟

الصوت : عفوك ياسيدي . يبدو أنني أحدثك في وقت غير مناسب .

الأب : « متبرماً » قل . قل .. ماذا تريد ؟

الصوت : ماذا أقول ياسيدي ، ماذا أقول ؟ إنني أشعر برغبة في الحديث مع انسان ، أي انسان !

الأب : « ساخراً » أي انسان ؟ « بقسوة » هذا كلام لايقوله انسان عاقل و .. .

الصوت : « مقاطعاً » أرجو أن تفهمني ياسيدي ..

الأب : مسألة عجيبة ..

الصوت : ولكن .. اسمح لي ياسيدي أن ..

الأب : « مقاطعاً » ليس مألوفاً أن يحدث انسان انساناً آخر لايعرفه . من أنت ؟ وماذا تريد ؟

الصوت : .. ما قيمة الاسماء ؟ اثنان ، انسانان من هذا العالم يتحادثان . هل أقول لك الحقيقة ؟إنني في وحشة غير عادية هذه الليلة ..!

الأب : ... فقمت الى الهاتف ، وأدرت ...

الصوت : « مقاطعاً » نعم ، هذا ما حدث بالضبط ، ويمكنك لاسكاتي أن تعيد السماعة الى مكانها ..

الأب : « بلهجة مختلفة » ولكن .. ماذا تريد ؟

الصوت : .. أدرت قرص الهاتف كيفما اتفق فاذا بي أكلمك ، إذا بي خارج جدران غرفتي . هل أدركت المسألة ياسيدي ؟ حركة صغيرة حملتني الى العالم الخارجي ، الى صوت انساني . لقد بدد صوتك شيئاً كثيراً من وحشتي ..

الأب : لم أكن أتوقع هذا المساء شيئاً من هذا القبيل . كنت أدخل غرفة المكتبة لأقرأ كالعادة ، وإذا هاتفك و .. وضجة الصغار . أنا آسف للهجتي غير الودية . من أنت ؟ أقصد .. هل أستطيع معرفة اسمك ؟

الصوت : اسمي ؟ أهو مهم الى هذا الحد أن تعرف اسمي ؟

الأب : كلا . أبداً ، لعله الفضول ..

الصوت : لنقل إننا رجلان مجهولان يعقدان صحبة ما ، وبالهاتف . هل أفقر العالم من رابطة انسانية تقوم على هذا النحو ؟

الأب : كلا . كلا . لا يمكن أن يغرق العالم في بحار مظلمة كهذه . تظل هناك ريح انسانية تطوف في كل مكان .

الصوت : « ضاحكاً » أرى أن الريح الانسانية قد هبت في بيتك !

الأب : « معتذراً » بيتي مفتوح الأبواب ، فما بالك بهاتفي ؟

الصوت : في جميع الأحوال تظل هذه المحادثة شيئاً مسلياً لرجلين تجاوزا الأربعين ..

الأب : يبدو من صوتك انك أكثر شباباً مما تقول ..

الصوت : في حدود الأربعين ، هل أنا شاب ؟

الأب : بلغت الخمسين منذ أيام . هل أنا عجوز ؟

الصوت : لا أقدر السن بعدد السنوات ، وإنما أقدرها باقبال الانسان على الحياة أو بعدم اقباله . وعلى هذا فأنت أكثر شباباً مني . يبدو هذا من صوتك ..

الأب : يبدو لي أن حديثك ممتع ..

الصوت : قرأت كثيراً ، ولعل في حديثي من أثر قراءاتي ما بدا لك أنه ممتع ..

الأب : هل تقرأ كتباً أدبية ؟

الصوت : أحببت ديستويفسكي ، ولكنني مولع بالقراءات الاقتصادية ..

الاب : « معتذراً » استميحك عذراً إن سألتك مرة أخرى ، أأنت جاد في هذه المحادثة ؟ إنني شخصياً راغب في الاستمرار فيها لما وجدته فيك من .....

الصوت : « مقاطعاً » القضية ليست لغزاً ياسيدي . انسان يقتله السأم . أمامه أثاث منزل وكتب مملة وأوان ولوحات قديمة وهاتف ..فماذا يفعل ؟

الاب : يكلم أحداً بالهاتف ، أو ... يذهب الى مكان ما .

الصوت : رجل مثلي لايليق به أن يبدد سأمه بالتسكع ، « فترة صمت قصيرة » لقد عشت بما فيه الكفاية لألمّ بكل الأشياء ، ولأشعر بأن الحياة خالية من الجدة وهذا يبعث فيّ المزيد من السأم !

الاب : ولكن ، لماذا لم تحدث صديقاً بدلاً من أن تحدث رجلاً غريباً ؟

الصوت : لي وجهة نظر خاصة في هذا الموضوع ..

الاب : هل استطيع أن أعرف ماهي بالضبط ؟

الصوت : من حقك أن تعرف ، وأن تطالبني بالاجابة . في رأيي ياسيدي أن الاصدقاء

والأقرباء يصبحون ، لقدمهم ، كقطع الاثاث الخرساء ، أو كالكتب التي قرأناها آلاف المرات . وجهة نظر غير طبيعية ولكنني أتشبث بها « فترة صمت » أخشى أن أكون قد أزعجتك ..

الاب : أبداً . أبداً . انني فرح بحديثك ، فرح جداً .

الصوت : يسرني ان أسمع هذا منك .

الاب : لماذا ؟ هل أخطأت في الاعلان عن فرحي ؟

الصوت : كلا ، كلا . لقد قمت بعدة محاولات سابقة فقوبلت مقابلة غير ودية ، ومع ذلك فان المحاولة الفاشلة نفسها قد منحتني هذا الاتصال بالعالم .. وكان عزاء ..

الاب : إنك تثيرني . أأنت غارق في بأس مرير ؟

الصوت : أبداً ، أنا لست يائساً ، وإنما وحيد ، وهذا الشعور لايخصني وحدي . ألا تحس أنت أيضاً في يوم من الأيام انك وحيد ، وأن ذلك يمزقك ؟

الاب : فعلاً ، يحدث هذا للجميع .

الصوت : « مبتهجاً » كنت وحيداً قبل دقائق ، وها أنذا لست كذلك الآن ..

الاب : ولكن ، ألم توقفك الردود غير الطيبة ؟

الصوت : اكتفى أحدهم باغلاق السماعة في وجهي ، والآخرون لم يستقبلوني بالترحاب الذي كنت أود ، أما أنت ...

الاب : « مقاطعاً » لم يكن استقبالي ودوداً أول الأمر .

الصوت : كنت أحس أنني سأجد ، لابد ، انساناً يدرك مشكلتي الصغيرة . هل أقول لك الحق ؟ كثيراً ما كانت تستبد بي الوحشة داخل جدران غرفتي .. فأهمّ بالبكاء . انني قليل الحيلة .. كما ترى ، وإلاّ لما التجأت الى هـذه الآلة اللعينة ..

الاب : إن المشاركة حتى ولو بالصوت تبدد الوحشة ..

الصوت : « بلطف » هل استطيع أن احدثك بين حين وآخر ؟ .

الاب : ... ولكنني أخشى ان أصبح صديقاً قديماً « يضحكان » تفضل بمحادثتي في أي وقت تشاء .

الصوت : غداً في مثل هذا الوقت أحدثك . هل يناسبك هذا التوقيت ؟

الاب : سأنتظر هاتفك .. بشوق .

الصوت : الى اللقاء .

الاب : الى اللقاء .. في الغد !

الصوت : « بشاعرية » الى اللقاء .. في الغد .

اللوحة الثانية

« ساعة الحائط تعلن الخامسة ، والاب يتجه
نحو غرفة المكتبة .. »

الام : بكرت في النهوض هذا المساء . انك لم تنم طويلاً ..

الاب : انتظر مكالمة هاتفية .

الام : ما أظنك تنتظر مكالمة الرجل المجهول الذي حدثك بالأمس ؟

الاب : ولماذا لا أنتظرها ؟

الام : أقصد .. ما أظنك جاداً بالنسبة له ؟

الاب : بل جاد ، ولقد بكرت فعلاً لأرد على المتكلم بنفسي . لقد استهواني هـذا الغريب ذو الصوت الشاعري ..

« جرس الهاتف يرن والاب يأخذ السماعة »

الاب : ألو . من ؟

الصوت : رجل !

الاب : أهذا أنت ؟ أهلاً بك .

الصوت : « ضاحكاً » أشعر برغبة في الحديث مع انسان ، أي انسان ..

الاب : « ضاحكاً » نفس الكلام ونفس الموعد ..

الصوت : أنا أحرص ما أكون على المواعيد . كل مساء سيأتيك صوتي في مثل هذا الوقت !

اللوحة الثالثة

« ذات صباح .. بعد ستة أشهر ،
والعصافير تغرد »

الام : الى أين ياليلى ؟

ليلى : الى السوق ..

الام : هل أذِنَ لك ابوك .

ليلى : لم أسأله ..

الأم : لماذا ؟ أين هو الآن ؟

ليلى : في غرفة المكتبة .. يقرأ .

الام : قولي له : انني ذاهبة . تلك عادتك كلما ذهبت ، فلماذا تبدلينها ؟

ليلى : أخشى أن يعارض ..

الام : لم يحل ، من قبل ، بينك وبين الذهاب الى أي مكان .

ليلى : أمس قال لي : لاتذهبي ..

الام : أمس ؟ متى ؟

ليلى : عندما كان يتحدث بالهاتف . تصوري . لقد استغرق هاتفه نصف ساعة وأنا أنتظر ، ولما قاطعته ، قال بشيء من الحدة : لاتذهبي ، وعاد الى محدثه .

الام : محدثه إياه ..

ليلى : نعم . ترى ، في أي المواضيع كانا يتحدثان ؟

الام : ذاك الرجل يثرثر كثيراً على مايبدو ، ووالدك يستطرف حديثه ..

ليلى : يقول والدي كلما جاء ذكر هذا الرجل المجهول انه انسان مهذب ..

الام : أصحاب الألسنة الزلقة غالباً مايكونون مهذبين ..!!

ليلى : ترى . هل هو متزوج ؟

الام : من حديث أبيك عرفت أنه كبير السن ، لكنني لم أعرف ماإذا كان متزوجاً .

ليلى : في الأربعين . الأربعون سن الكمال للرجل .

الام : وأنت أيضاً ؟ أرى أن هذا المجهول يلفت نظرك ..

ليلى : ماما . انه الفضول لا أكثر ..

الام : بدأت حكايته مع أبيك بالفضول لا أكثر !

ليلى : .. واستمرت

الام : ستة أشهر !

ليلى : علاقة بين رجلين بالهاتف ..! كأنني أقرأ قصة عاطفية

الام : وعيب أبيك أنه لم يكتشف الأشياء الهامة في حياة هذا الرجل ... المجهول .

ليلى : الأشياء الهامة في حياته ؟!

الام : عنوانه ، بيته ، تصوري .. لقد مرت كل هذه المدة دون أن يسأله حتى عن رقم هاتفه ، أنا أخشى أن يكون لهذا الرجل غرض ما .

ليلى : ماما . ماذا تقولين ؟ إنهما يبددان السأم كل مساء بحديث هاتفي صغير

الام : نصف ساعة استغرق حديث الأمس كما قلت . أهو حديث صغير ؟

ليلى : سمعت جانباً من أحاديثهما في الأيام الماضية ..

الام : ماذا سمعت ؟

ليلى : يتحدثان ، في الغالب ، في الاحوال العامة والسياسة والادب والقلق والسأم والحرب . . وكل شيء .

الام : لماذا لم يعرف والدك شيئاً عن حياته الخاصة ؟

ليلى : يقول والدي إن ذلك غير لائق ..

الام : « منزعجة » غير لائق ؟

ليلى : من جانبه هو ، أقصد الرجل ، لم يخض في حديث عن حياتنا الخاصة ، فلماذا يحرجه أبي بالسؤال ؟

الام : « متذمرة » لا بأس .. ستة أشهر مرت وهما يتحدثان كل مساء ، وسترى كيف تكون الخاتمة . « لليلى » اذهبي يا ليلى .. وسأتول الابلاغ والدك .. نيابة عنك .

اللوحة الرابعة

« الساعة تعلن الخامسة ، وليلى تتصفح
مجلة . جرس الهاتف يرن .. فجأة »

ليلى : ألو . من ؟

الصوت : مساء الخير

ليلى : مساء الخير

الصوت : بابا موجود ؟

ليلى : دقيقة واحدة « منادية » بابا . بابا .

الاب : « من بعيد » نعم « لنفسه » لاشك أنه هو .

ليلى : تفضل هناك من يطلبك .

الاب : « بحرارة » لايتأخر دقيقة واحدة .

ليلى : « كأنها تحدث نفسها » ما أبهج هذه الصحبة .

الاب : « ضاحكاً » ألو ... من ؟

الصوت : رجل .

الاب : « مداعباً » رجل ؟ ماذا تريد ؟

الصوت : « ضاحكاً » عفواً ياسيدي . انني أشعر برغبة في الحديث مع انسان أي انسان .

« يقهقهان معاً .. في سعادة »

الاب : أهلاً بك . انني انتظر هاتفك ياسيدي . لقد اعتدت على سماعك .

الصوت : وأنا أيضاً . وأنا أيضاً

الاب : تعني انني لم اصبح صديقاً قديماً كأثاث منزلك أو كالكتاب الذي يقرأ مئات المرات ، بعد ؟

« يضحكان معاً .. بشدة »

الصوت : لن تصبح قديماً . وكل مساء في الخامسة .. ستسمع صوتي وسأسمع صوتك ..

اللوحة الخامسة

« بعد عشرة أيام من المكالمة الماضية ،
الاب يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً ، والصغار
يصخبون من بعيد »

الاب : « منادياً » ليلى . ليلى .

ليلى : « من بعيد » نعم . نعم يابابا .

الاب : تعالي . ماهذه الضجة ؟

ليلى : « من بعيد » الأولاد يلعبون . .

الاب : « غاضباً » قلت لك تعالي .

ليلى : ها أنذا . .

الاب : الضجة تفقدني أعصابي .

ليلى : « بليونة » أمرتهم بالمضي الى الحديقة القريبة . .

الاب : كم الساعة الآن ؟

ليلى : منذ قليل بلغت الخامسة .

الاب : الخامسة ؟ ها قد مر الوقت بسرعة . انه لم يهتف الي ، أليس كذلك ؟

ليلى : لم أسمع جرس الهاتف مطلقاً .

الاب : خرس هذه الآلة اللعينة يمزق أعصابي . لماذا كف فجأة عن الحديث ؟

ليلى : لعله . . لعله . .

الاب : « مقاطعاً » لم يقل إنه سيكف عن الحديث . .

ليلى : ربما . . . في الغد !

الاب : في الغد . . يا ابنتي ؟! ان الغد بعيد ، وما أشقى الساعات التي ستمر حتى مساء الغد « فترة صمت » عبثاً أفتش عن سبب معقول لسكوته فلا أجد . آخر مرة قال لي كالعادة : الى اللقاء . . في الغد . وها قد مرت عشرة أيام ولم أسمع صوته . هل أقول لك الحق يا ابنتي : إنني في منتهى القلق .

ليلى : أريد أن أقول شيئاً يا أبت وبصراحة .

الاب : قولي .. ماشئت .

ليلى : كنت أتساءل كلما رأيتك تمسك بالهاتف وتحدث هذا الرجل المجهول الذي لانعرف من معالمه .. إلا صوته ، كنت أتساءل : لماذا لاتلتقيان ، لماذا لايرى أحدكما الآخر .. مادامت الصحبة قد توطدت .

الاب : من الصعوبة أن نطلق على هذه اللقاءات الهاتفية اسم صحبة أو صداقة . انها ليست صداقة ياليلى .. انها شيء صغير ، وربما تافه ، من هذه العلاقات التي تنشأ بين الناس . انها شيء انساني لاأكثر .

ليلى : ولكن هذا لايمنع من لقائكما ،

الاب : فعلاً . لم يبد أية رغبة في لقائي . كان قنوعاً بهذا المحادثات الهاتفية ، فاحترمت قناعته ولم اطلب منه مزيداً . تصوري انني لم اسأله حتى عن رقم هاتفه .

ليلى : لو كنا نعرفه .. لسألنا عنه .

الاب : خطأ ارتكبته ..

ليلى : ليس خطأ ياوالدي . لقد بادلته شعوراً طيباً وهذا كاف .

الاب : وهاهو الشعور الطيب ينقلب الى قلق .

ليلى : سيتصل بنا غداً .. كالعادة .

الاب : « بقسوة » من جانبه هو .. ألا يشعر بما يخلفه سكوته في صدري من قلق ، أنا الرجل الذي أليفَ حديثه .

ليلى : ربما أعاقه عائق ..

الاب : كان من الواجب أن يقول ..

ليلى : أأنت تحقد عليه أم تنتظر هاتفه ؟

الاب : لست حاقداً يا ابنتي ، ولكن الحقد عاطفة انسانية أيضاً . انه كالحب ، أو كهذه الصلة التي جمعتني بانسان آخر ..

ليلى : ربما كان الأمر بالنسبة اليه مجرد ثرثرة ، عفوك ياأبي ، ربما لم يخطر في باله ان سكوته سيترك جرحاً صغيراً في قلبك .. أسمه القلق .

الاب : ربما كان الأمر على هذا النحو ، ربما كان الأمر تافهاً ، ولكن هذا الانقطاع المفاجيء يقلقني ، لايهمني الآن أن تعود أحاديثه عبر هذه الآلة اللعينة ، وانما يهمني التأكد من أنه لم ينقطع بسبب أصابته بمكروه ..

ليلى : انني أدرك شعورك ياأبي .. أدركه تماماً .

اللوحة السادسة

« حمدي يتجه نحو والدته »

حمدي : أنا في غاية الحزن ياأمي .

الام : لماذا ؟ لماذا ياحمدي ؟

حمدي : أنبني والدي أمام اصدقائي ..

الام : أنت تعرف أباك .

حمدي : أعرفه جيداً ، لم يكن هكذا .

الام : هل يتبدل الانسان بمثل هذه السرعة ؟

حمدي : أصبح ضيق الصدر ..

الام : ماهذا الكلام ؟

حمدي : لا أقول الا الحقيقة . لم يكن والدي هكذا ، ولست أذكر أنه عاملني من قبل أمام زملائي معاملة سيئة .. كما فعل اليوم .

الام : يجب ألا يخطر في بالك أنه يريد إهانتك ؟

حمدي : إنني لا أتذمر ياأمي ، ولكنني أريد أن يكون أبي في خير .

الام : أنه بخير .

حمدي : آمل ذلك ، ولكن ..

الام : « بلهفة » ولكن ، ماذا ؟

حمدي : يدخن بافراط ، وأنت تعرفين رأي الطبيب في مسألة التدخين .

الام : ماذا أفعل ؟ توسلت اليه ان يكف عن التدخين ، فلم يأبه .. يحدق إلى فحسب وينفث دخان لفافته .. كأن توسلاتي لاتعنيه في شيء ..

حمدي : وتجهم وجهه الدائم ؟

الام : لست أدري بالضبط يابني .

حمدي : ولكن ليلى تعرف كل شيء ..

الام : انها تبالغ . هل حدثتك عن الرجل المجهول صاحب الهاتف اليومي وقالت انه السبب ؟

حمدي : نعم .

الام : هي تضخم الأمر !

حمدي : بصراحة ان المسألة تبعث على الحيرة . لماذا انقطع عن الحديث ؟

الام : ... وأنت أيضاً ؟!

حمدي : ستة أشهر يتحدث يومياً ، ثم ينقطع فجأة ؟

الام : ليلى تبالغ في تضخيم هذه الحكاية .. لأنها تستهويها ، أمـا أنت فما الذي يستهويك فيها ؟

حمدي : .. تستهوي ليلى ؟!

الام : تجدها كقصص السينما مسلية وغريبة .. وانسانية !

حمدي : انها ليست مسلية ، ولكنها غريبة فعلاً !!

اللوحة السابعة

« الاب يدخن بعصبيـة ، وليلى تقرأ كتاباً . الهاتف يرن فجأة رنيناً متواصلاً »

ليلى : ألو .. ألو .. من ؟

صوت : ألو .. أعطني هيفاء .

ليلى : هيفاء ؟!

صوت : هيفاء أختي

ليلى : يبدو أنك مخطىء !!

الاب : « منادياً » من المتكلم ياليلى ؟ هل هو ...

ليلى : « بأسف » كلا يا أبت . إنهم يطلبون أناساً آخرين .

اللوحـة الثامنة

« عدة طرقات على باب غرفة المكتبة »

الام : « بلطف » هل تسمح لي بالدخول ؟

الاب : « بقسوة » ادخلي

الام : ظننتك تقرأ .

الاب : انني لا أقرأ ..

الام : انت تدخن فقط

الاب : عادتي القديمة ..

الام : والطبيب ؟ عادتك القديمة ألا تدخن بمثل هذا الحماس ..

الاب : انني أتحمس لكل شيء في نظرك ، وهذه عادة سيئة أخرى لا تناسب رجلاً في مثل سني . أليس كذلك ؟

الام : قم بنزهة مع ليلى ، كما كنت تفعل ..

الاب : اكملي الجملة ، قولي : إن النزهات تفيد المرضى بالاعصاب ..

الام : فعلاً ..

الاب : لا شيء ينزع عن الصدر المتعب تعبه ، ومن العيون الباكية اجهاشها الصامت المزمن ..

الام : ما هذا الذي تقوله ؟ يبدو ان حالتك غير طبيعية ..

الاب : « صائحاً » أهكذا إذاً ؟ لتقل إنني مجنون .. لكنني أحس مع جنوني بهذا الخدر غير المحدود الذي يجعل الانسان يندمج في حياة انسان آخر . واذا كان هذا الاحساس وقفاً على المجانين .. فما أتعس العالم !

الام : أ إلى هذا الحد .. بلغنا ؟

الاب : « بتحد » نعم .. نعم

الام : لم أرك في يوم من الايام بمثل هذه الحالة ..

الاب : اشعر انني عجوز أكثر مما يجب، هل اقول لك الحق : انني احس ان جسدي عاش مئات السنين !

الام : متشائم ، وكل هذا بسبب رجل لا تعرفه . نعم . لنواجه الامر بصراحة ، بسبب رجل لا تعرفه !

الاب : ليس هذا تشاؤماً . إنني قلق ، قلق لا أكثر . اين هو الآن ؟ احساس مضن ثقيل ، قديم كأنه التاريخ ، يطوف بأعصابي ..

الام : لعله مسافر

الاب : نعم قد يكون مسافراً . هذا محتمل ، ومع ذلك فانني لا استطيع ان أطرد هذا الاحساس بالقلق ..

الام : ولكن ما شأننا به ؟ رجل .. رجل نجهل كل شيء عنه ، دخل حياتنا ذات مساء بصوته .. ثم خرج منها ليترك هذا التجهم الذي يتسلق جدران منزلنا . أليس هذا امراً مضحكاً ؟

الاب : ما يشغلني اعمق بكثير مما تلاحظين . انه هذه الصلة الدقيقة التي تربط الانسان بالانسان .. وربما عن غير معرفة !

الام : ليكن .. وانه لأمر مؤسف حقاً ان نحرم فجأة من صوت هذا الرجل المجهول الذي كان يداعبنا كل مساء . ولكن .. « تتردد قليلاً قبل أن تتابع »
ولكن ماذا نفعل وقد اختفى الصوت فجأة ؟ هل نجلس كل ليلة هذه الجلسة العجيبة المتحفزة .. بانتظار هاتف من رجل مجهول ؟ لقد حول هذا الرجل بيتنا إلى اذن كبيرة تلاحق رنين الهاتف .. باستمرار .

الاب : هل يلام الانسان لأنه يضع في قلبه شيئاً من القلق .. من اجل انسان آخر ؟

الام : كلا ، ولكن الأمر معك اكثر من مجرد قلق تافه صغير .

الاب : اننا نعتاد على الأشياء والأشخاص والأصوات فتصبح قطعاً منا ، فاذا ما فقدناها ...

الام : « مقاطعة » لنقل إنك ألفت ان تسمع صوته كل يوم ، ثم ... ثم لنفترض انه مات

الاب : لو أنه مات لانتهى الأمر بي الى الحزن ، ولكن حالتي شيء آخر غير الحزن . انها شبيهة بربان الباخرة الذي لايعرف أين يقود الموج سفينته . كان هذا الرجل الذي لاأعرف اسمه يكلمني يومياً بالهاتف ، ثم انقطع فجأة .. مسألة في منتهى البساطة والتفاهة ، ومع ذلك فانني لاأستطيع أن أطرد هذا الاحساس بالقلق حول مصيره ..

الام : « يائسة » مسألتك عجيبة ..

الاب : انها لكذلك « فترة صمت » انني اسألك : ألم يخطر في بالك انت أيضاً ان تتساءلي عن مصيره ؟ ألم تقولي في سرك : ترى .. لماذا كف فجأة عن الحديث؟ ألم تقولي ذلك .. على ما أعرفه فيك من عدم الشعور بالاطمئنان نحوه .

الام : فعلاً ، تساءلت نفس التساؤل ، ولكن الأمر لم يطل بي على هذا النحو الذي رأيته فيك .

الاب : ستة أشهر وهو يحدثني يومياً ، ثم كف فجأة . مسألة تافهة من وجهة نظر الآخرين ، ولكنها من وجهة نظري ، أنا الانسان الذي ارتبط بعلاقة ما مع انسان آخر ، مسألة خطيرة . هل تفهمين . ان انسانيتي كلها مهددة .. إذا لم يقم في صدري هذا الاحساس بالقلق حول مصير هذا الرجل ..

الام : يجب أن تنتظر .

الاب : لا أملك إلا الانتظار .

الام : الانتظار المضني .

الاب : الذي يحطمني ..

الام : اني اتمنى ان يرن جرس هذا الهاتف ..

الاب : « مبتهلا » يارب . اجعله يرن من أجلي أنا على الأقل . من أجل ان تعود الطمأنينة الى صدري المتعب .

اللوحة التاسعة

« ذات مساء والدنيا فرحة ، وضجة الصغار تأتي من بعيد . جرس الهاتف يرن .. بإلحاح » .

الاب : « بلهفة حارة جداً » ألو . من ؟

الصوت : رجل .

الاب : « صائحاً » رجل ؟ أين انت يارجل ؟ هل اشتمك ؟ « فرحاً » لقد جعلتني عرضة لقلق دائم غير محدود طوال مدة غيابك . أين كنت ؟ قل ..

الصوت : « مقاطعاً » أشعر برغبة في الحديث مع انسان .. أي انسان ! « يضحكان معاً ضحكات مرحة » .

ختام

[حقوق الاعداد للاذاعة والتلفزيون محفوظة للمؤلف]

قصّة

الضيف الطارئ

عبد العزيز هلال

لم يثرهم الفضول هذه المرة بقدر ما أثارتهم روعة المشهد .

وقفوا ذاهلين ، شاخصين الى السماء ، بقلوب واجفة كحمائم مضطربة ، اختلط عليها بين شخص راعيها يحمل اليها الطعام وبين شخص آخر يحمل بندقية صيد .

كانت الطائرات الاربع، وهي تبحث عن هدفها منخفضة، هادرة ، تبدو كالنجوم الكبيرة ، لونها ذهبي وتشع بالبريق . وإذ تشتتت فجأة باتجاهات مختلفة ، بدت في إثر كل منها كتلة من الضياء عجيبة ، تترك في مسارها السريع صعدا ، خلف الطائرة ، شريطاً من الضياء أيضاً !

قالت بدرية ، مستثارة :

– كأنها حفلة من حفلات معرض دمشق الدولي . ماذا يسمونها ؟

قال خليل :

– المهم أن تنتهي على خير .

إنها رابع غارة جوية هذا اليوم . كان العدو مصمماً ، فيما يبدو ، على قصف هدف معين في هذه المنطقة – فكر خليل – ثم انه هتف :

– يارب ، إجعل هذه مثل سابقاتها .

قالت بدرية :

– آمين يارب .

وصاح ابراهيم لاثغاً :

– انظر أبي ، انظري أمي ، هناك هناك ، الصاروخ أصاب الطائرة .

ونظر الوالدان الى الناحية التي أشار اليها الولد . رأيا كتلة هائلة من النار الحمراء تحيط بها هالة ذهبية ، تتمدد الكتلة ، تتسع ، تصبح مثل بحيرة معلقة بالسماء بطريقةما ، وتنعكس على مائها الرائق أشعة الشمس .

عندئذ فطن خليل الى سر هذا المشهد العجيب . نعم ، إنها الشمس الغاربة . هي التي تجمل الطائرات والصواريخ ودخانها بهذه الألوان الخلابة .

تتالت الانفجارات كالرعود . بعضها في السماء ، وبعضها على الأرض . ما الذي حدث ؟

قال خليل :

– ربنا يستر . يبدو ان الطائرات تخلصت من أثقالها ليسهل عليها الهرب .

تساءلت بدرية :

– كما فعلت فوق المزة وأبي رمانة في دمشق ؟

كرر خليل :

– ربنا يستر .

وبعد أن تلاشت أصداء المعركة الجوية وآثارها التي اصبحت الآن بيضاء ، انتبه خليل الى أنه لم ينته بعد من ري حقله ، وإلى أن المجرفة لا تزال في قبضته يشدها عليها طيلة وقت المعركة بعنف أوجع عضلاتها .

قال لزوجته :

— سأنتهي بعد دقائق . حضري لنا لقمة نأكلها .

* * *

انه طعام العشاء . ليس دسماً . ولكنه فخم على قدر ماهي محدودة أحلام الفلاح. عدد من قطع الباذنجان المقلوة بزيت سيء ، وعدد من أقراص البندورة والبصل. كلها مما في حقله الصغير ، الذي يقوم بيته على جزء منه . لهذا فانه أحس بالحرج ، بالخجل ، أمام ضيفه الطارىء .

كانت العائلة الصغيرة تجلس في الحقل ، أمام باب الكوخ ، تتناول طعام العشاء ، وتستمع الى راديو الترانزستور يبث الاغاني الوطنية الشجية من اذاعة دمشق ، حين فوجئت بشاب يقتحم الحقل عاجلا . ويبدو أنه هو الآخر فوجيء بها . توقف للتو حائراً ، ينظر الى اشخاصها وينظر حوله .

هتف له خليل :

— حوّل ياأخ .

قال الشاب متمالكاً نفسه :

— عفواً ، لاتؤاخذوني . انني أقوم بنزهة في الحقول ، ولم أكن أعلم ان في هذا الحقل عائلة .

قال خليل ، يحسبه دمشقياً يقلد أهل الريف بلهجته :

— لابأس ، نحن لانتحفظ مثل أهل دمشق . هلمّ شاركنا في الطعام .

قال الشاب :

— ألا أضايقكم ؟

قال خليل :

— أستغفر الله يا أفندي ، سنكون مسرورين .

وأكدت بدرية :

— تفضل يا أخي ، لاتستحي .

فأقبل الشاب بحماسة ، جلس معهم على الأرض ، وأخذ رغيف الخبز من يد خليل قائلا :

– الحق انني لست جائعاً . ولكن لابأس في أن يكون بيننا خبز وملح . وأخذ يأكل بنهم ، بينما لبث خليل وزوجته يكرران عبارات الترحيب ، وهما يتفحصانه بنظرات غير مباشرة ، على خلاف ابراهيم الذي راح يحدق اليه بفضول طفل ريفي إزاء ظاهرة من ظواهر المدينة ، رغم أن مظاهر الشاب متواضعة ، انه يرتدي بنطالاًرمادياً من النوع الرخيص ، وقميصاً قطنياً وعادياً لايلفت النظر . ويحتذي صندلاً من النوع الشائع في المناطق الحارة . ثم انه شاب أسمر ، مشعث الشعر ، ولهجته تشبه لهجة الفلسطينيين .

سأله خليل :

– أأنت من حوران ؟

قال الشاب الضيف :

– نعم . إنني من نوى . اسمي حسين الجاسم .

قال خليل :

– تشرفنا . (ثم مخمنا) أتكون المعلم الجديد في قريتنا ؟

قال الشاب :

– نعم .

قال خليل :

– الحرب عطلت المدرسة . لماذا بقيت هنا ؟

قال الضيف :

– قريتي في منطقة العمليات . الطريق اليها مقطوعة .

قال خليل :

– لعن الله الحرب ، ولعن اسرائيل .

وانتظر من الضيف أن يعلق على المناسبة بشيء . انه معلم ، يفهم الامور خيراً مما يفهمها الفلاحون . منذ بدء الحرب واهل القرية حديثهم مثل حديث الراديو . لا أحد يعلم أكثر مما يذيعه الراديو . والراديو لايذيع الا بلاغات عسكرية مختصرة .

لكن الضيف لم يتحول عن اهتمامه بالطعام .. ظل مطرقاً ، يأكل ، لاجئاً لهفة خليل الى الحديث في الموضوع الأهم من الطعام والشراب .

سألته بدرية :

– هل شاهدت معركة الطائرات والصواريخ ؟

قال : « نعم » دون زيادة . حرضه خليل :

– إنها معركة رائعة .

قالت بدرية :

– صواريخنا فتكت بها كلها .

قال خليل :

– لم نشاهدها تتفجر كلها . هل شاهدتها أنت ، استاذ ؟

قال الضيف :

– الانفجارات التي رأيتموها في السماء هي انفجارات الصواريخ ذاتها لا الطائرات .

– ما الذي تعنيه استاذ ؟

– أعني أن طائرات اسرائيل لا تتساقط بهذه السهولة .

ثم أمسك الضيف فجأة عن الاسترسال في الكلام ، وابتسم لخليل الذي حلق فيه مستاء من أن يكون صادقاً . أيمكن هذا ؟ انه يعيش نشوة فرحة أعظم من فرحة عرسه ، من فرحة ولادة ابراهيم ، ابنه البكر ، خلال هذه الأيام التي تدور فيها الحرب ، يسمع أنباء انتصارات الجيوش العربية ، ويشاهد بعينيه طائرات العدو تتفجر في أجواء دمشق والغوطة – حيث قريته – أو هاوية من هذه الاجواء التي تحولها الصواريخ الى جحيم .

ان المعلم واع ، فاهم بالامور . ولكن .. أن يصدقه خليل .. يعني أن يصاب بخيبة عظيمة . ونظر الى زوجته ، رآها في الوقت نفسه تحول عينيها عن المعلم اليه ، بنظرة حائرة . هي أيضاً تعاني ما يعانيه . هذا واضح . فنبر يدفع عن يقينه الشك :

– ولكن ، يا أستاذ .. الناس كلهم شاهدوا الطائرات تنفجر وتهوي ، وشاهدوا طياريها يهبطون بمظلاتهم .

قال الضيف :

– لا أنكر . ولكن ليس بالصورة المبالغ فيها التي ...

قاطعه خليل ،

– لحظة أستاذ ، سنسمع البلاغ .

فقد أعلن المذيع في الوقت نفسه عن بلاغ عسكري جديد . وتلا البلاغ . انه عن معركة الغروب الجوية ، هذه التي شاهدوها منذ أقل من ساعة . يعلن الناطق العسكري أن الطائرات الأربع فشلت في تحقيق أهدافها ، وسقطت ، وشوهد اثنان من طياريها يهبطان بمظلتيهما . أحس خليل بالانتشاء ، ابتسم يقول :

– حياكم الله يا أبطال .

هتفت بدرية :

– بارك الله في البطون التي حملتكم .

ثم ان المذيع أردف البلاغ بنداء الى المواطنين يرجوهم مساعدة رجال الأمن في القبض على الطيارين الاسرائيليين الذين يهبطون بمظلاتهم .

قال خليل :

– آخ ! لو وقع أحدهم بين يدي !

قالت بدرية :

– الحكومة تطلبهم أحياء ، وتوصينا بأن لانؤذيهم .

قال خليل :

– دعينا من هذا التخريف . بعد أن قصفوا أهدافاً مدنية ، وقتلوا مئات الناس الأبرياء بقنابلهم ، لايستحقون أية رحمة . ما رأيك استاذ ؟

شبع الضيف الآن . قال ، وهو يمسح فمه بمنديل نظيف :

– شكراً لكرمكم .

قال الزوجان معاً :

– بالصحة والهناء .

وكرر خليل :

– هل يستحقون منا أية رحمة ؟

قال الضيف :

– انهم لم يتعمدوا قصف أهداف مدنية . الاسرائيليون لايفعلون هذا قطعاً .

– ألم تسمع بضحايا حمص ودمشق واللاذقية ؟ في هذه الأماكن كلها قصفوا منشآت مدنية .

قال الضيف :

– ألاحظ أنك حفظت تعابير الراديو (ثم استدرك مبتسماً) هل شاهدت ذلك بعينيك ؟

قال خليل متعجباً :

– نعم . في حي أبي رمانة . بما ان دمشق قريبة .. ذهبت لأرى . وليتني مارأيت . مناظر مريعة . انهم وحوش يا أستاذ ، وحوش .

أطرق الضيف ، وأخلد الى الصمت .

ولعل خليلا لم يمل من وصف ماشاهده في أبي رمانة ، رغم أنه طيلة الايام الخمسة السابقة منذ أن قصف ذلك الحي الدمشقي ، وهو يصف للناس ماشاهده ، ليبرهن على ان قتل جميع الاسرائيليين حلال ، انهم وحوش، ولا يمكن أن تكون قلوبهم قلوب الناس.

والحق أن صدره امتلأ بالغيظ ، أيضاً ، من هذا المعلم . انه الوحيد الذي سمعه يحاول ايجاد الأعذار للاسرائيليين ، بل أن ينفي انتصاراتنا ايضاً . العمى ! كيف يقولون بأن المتعلمين يفهمون أفضل مما يفهم الأميون ؟ وهل يصلح مثل هذا المعلم لتعليم أولادنا !

فكر أيضاً ، وكأنه وصل الى نتيجة نهائية : « لن يدخل ابراهيم في مدرسة أنت معلم فيها » .

كان عازماً على ادخال ابراهيم في المدرسة حين يبلغ السادسة. انه الآن في الخامسة.

بعد هذه النتيجة أحس بالندم على تسرعه واستضافته رجلاً ضعيف الوطنية .

على كل حال ، مضى الذي مضى . لن يدعوه مرة ثانية ، لا الى مجالسته ولا الى طعامه. « الحق علي . لأنني لا أسور حقلي هذا ، وأقطع عنه الرجل الغريبة » .

قال لزوجته :

— ارفعي هذه الصينية من قدامنا.

نهضت الزوجة. وعلت معها أصوات مفاجئة، حول الحقل. تلفت الجميع يستطلع خبر هذه الاصوات ، ولاحظ خليل اضطراب ضيفه . ثم انه رأى ثلاثة من رجال الامن يقتحمون حقله ، في يد كل منهم مسدس رشاش ، يتبعهم عدد من رجال القرية . ودهشت عائلة خليل ، في حين ظل الضيف جالساً يتشاغل بمسح العرق عن وجهه بمنديله النظيف ذاك .

قال رئيس الدورية :

— لاتؤاخذونا . اننا نبحث عن طيار اسرائيلي سقط في مكان قريب واختفى بين الحقول .

أحس خليل بالارتياح . تابع رجل الامن يشرح له :

— لقد وجدنا ملابسه العسكرية مع المظلة . وهذا يعني انه يرتدي ملابس مدنية الآن .

في الوقت نفسه كان أحد رجال القرية يتفحص ضيف خليل ، فسأل :

- لم نكن نعلم ان لديك ضيفاً ، خليل !

قال خليل :

- انه معلم المدرسة الجديد .

وبدأ القرويون يتساءلون ويتشاورون وهم يتبادلون النظرات . ثم قال احدهم لرئيس الدورية :

- ياسيدي نحن نعرف المعلم الجديد . وهو غير هذا ، نحن متأكدون .

فطوق رجال الامن ضيف خليل في الحال . ارتعد الضيف . بدا غير قادر على شيء سوى الاستسلام . ووسط دهشة خليل وزوجته وولده الكبير ، أخرج رجال الامن من جيب ضيفهم اللطيف مسدساً حربياً ، وجواز سفر .

هتف خليل :

- الوغد ! ان قلبي لم يرتح اليه منذ البداية .

فضحك رجال القرية ، قال أحدهم :

- آه منك ياخليل ، تظل دائماً طيب القلب !

دمشق - شباط ١٩٧٤

قصة

مملكة المجد (*)

عبدالرحمن مجيد الربيعي

١ ـ وقائع من حياة المواطن سعيد :

قريباً من شاطىء الفرات ، وفي منعطف ضيق يربط بين سوق المدينة الكبير والنهر، تنتصب دار الحاج سعيد عامرة وعالية بشناشيلها الشرقية وشبابيكها الطويلة ذات الرؤوس المستديرة .

وكان لها باب واسع كباب خان ، مرصع بالمسامير النحاسية بزخرفة جميلة ، كما علقت فيه مطرقة ثقيلة ذات صوت رنان لتنبيه أهل الدار بمجيء القادم ، ففي جوف الدار الفسيح ذي الغرف العديدة يتعذر سماع الأصوات القادمة من الشارع ، حتى ضوضاء

(*) هذه القصة يجري اعدادها في فيلم طويل بالألوان تنتجه مؤسسة الاذاعة والتلفزيون والسينما في العراق .

السوق تصطدم بجدرانها العالية وترتد لتنضم الى أصوات مكائن طحن الحبوب الموزعة في الشارع الصغير الذي يقع بمحاذاة الدار من جهة النهر .

هذه الدار واحدة من الدور القديمة التي عرفتها الناصرية يوم كانت مسجداً وسراياً وأكواخاً متباعدة ، ولم يطق بناء مثيلاتها الا التجار والضباط وكبار موظفي الدولة .

سكن الحاج سعيد داره هذه منذ العشرينات ، بناها فوق أرض خضراء تعانق النهر يوم حل هنا مطارداً وخائباً من منطقة الفرات الأوسط . لقد كان هناك يوم اندلاع الثورة ضد الانكليز في الرميثة ، وكان حزيران على وشك أن ينصرم . حمل الحاج سعيد بندقيته وسيفه المفضض وانضم الى الثائرين ، واتقد حماساً وهو يرى الثورة تكتسح المنطقة عارمة فتقض مضاجع الانكليز .

لقد قاتل الحاج سعيد يومذاك بضراوة ، وزغردت بندقيته وهي تطلق رصاصها ليستقر في قلوب الأعداء ، وعاش دقائق الأحداث بوعي وحماس ، وعلى الرغم من مرور السنوات الطويلة عليها فانها ملتصقة بذاكرته ، بكل دقائقها فقد كانت المحك لرجولته ، والمنعطف الكبير في حياته حيث هاجر بعدها حاملاً أمتعته وأولاده بسفينته الكبيرة ليستقر في هذه المدينة التي عرفها أثناء مروره المستمر بها ، وقد عقد صداقات متينة مع تجارها ومواطنيها الآخرين ، وكم توقفت سفينته على ضفافها وهو يرافق الفرات من الرمادي حتى البصرة أو بالعكس ناقلاً الفواكه والقماش والتمر والحبوب . وما زالت صورة هذه السفينة ماثلة في ذهنه بهيكلها الجميل وحيزومها المرفوع الى أعلى بخيلاء غير هياب لجبروت النهر ، وقمرته الصغيرة العالية التي كانت تضمه في الليالي الموحشة التي كان يقطعها بالسكر والغناء ، أما في النهارات المتألقة فكان يسرح بصره متنفساً عذوبة غابات النخيل وهي تحزم الفرات بخضرة رائعة .

ثم اختلطت الصور فيما بعد في رأس الحاج سعيد ، مقتل « لجمن » في موقع ما على الفرات ما بين بغداد والرمادي حيث أطلق نار بندقيته في الفضاء عدة مرات تحية لهذا النبأ المهم الذي طعن الانكليز في القلب ، ثم مجيء السير برسي كوكس ، واستدراج بعض شيوخ العشائر الى حظيرته ووعده لهم بأن بريطانيا ستؤسس في العراق حكومة مستقلة .

وقد عرف الحاج سعيد وأصحابه يومذاك أبعاد اللعبة ، وجاءتهم أخبار وصوله

الى بغداد حيث اصطف لاستقباله في محطة القطار عشرات العملاء والدجالين وفرشوا له الأرض بالسجاجيد العجمية الثمينة ، كما ارتفع صوت أحد الشعراء فألقى قصيدة شائنة في الترحاب به مندوباً سامياً في العراق ، تناقلوا كلماتها فيما بينهم باستهجان ، وقد قال أحد أصحاب الحاج سعيد يومذاك وكان شيخاً معمماً :

— من اعتاد المدح لابد وأن يمدح وأن يتهالك في استرضاء الدخلاء والمحتلين .

وود الحــاج سعيد لو كان حاضراً اذن لأمسك بخناق الشاعر الدجال الذي طالب الانكليز في قصيدته لأن يصلحوا ما فسد في البلاد . وردد بصوت عال :

— البندقية هي التي تصلح ما فسد في البلاد فقط ، فكيف يطلب من الانكليز أن يفعلوا ذلك وهم أصل الفساد ؟

ويومها غادر الحاج سعيد الى «طويريج» لنصرتها هو وجماعته، وعندما احتلها الانكليز فضلوا القرار على الاستسلام لهم . وظلوا يبحثون عن جذوة للثورة مازالت مستعرة ليوقدوها . ثم مضوا باتجاه كربلاء حزمة من الرجــال الملثمين الذين يقطعون دروب الرمل في ليل الصحراء البهيم، وقبل بزوغ الفجر دخلوا المدينة فوجدوها محاصرة بنداء السير برسي كوكس انه سيخضعها بالقوة .

ويتذكر الحاج سعيد جيداً كيف تمت الامور فيما بعد وحسمت كما اراد لها الانكليز. حيث جاؤوا بفيصل بعد عام وتوجوه ملكاً على العراق فقرر الحاج سعيد أن يهاجر .

كان طويلا ومفتولا ، في جسده الذي تخطى السبعين لم تستقر جرثومــة مرض يوماً ، ولم يطأطىء رأسه لحمى أو صداع ، يصحو مبكراً في صباحات الصيف ويذهب الى النهر ويقذف بجسده فيه ، ويظل يصارع أمواجــه الصباحية الباردة حتى يتعب ، آنذاك يستل جسده العملاق من الماء ويلفه بعباءته السميكة ويقفل عائداً الى بيته .

وهناك يجد ليلوة قد هيأت فطوره المتكون من ثلاثة أرغفــة مثرودة في وعاء واسع مع قطعة لحم كبيرة مسلوقة مع رأس بصل ، فكان يأتي عليه كله بشهية وعافية، آنذاك يكون ابريق الشاي مهيأ فيشرب منه عدة أقداح حتى يرتوي. ثم ينهض وهو يحمد الله بصوت عال .

وليلوة هذه خادمته الزنجية التي اشتراهــا منذ سنوات طويلة من أحد شيوخ

الدليم وحملها معه لتعين زوجته صفية في أداء اعمال البيت . ورافقت ليلوة العائلة في حلها وترحالها ، وعاشت معها لحظاتها السعيدة والعسيرة ، وعندما كبر أبناء الحاج سعيد وأحفاده كانت أفراحها تكبر معهم ، فهذا البيت هو حدود عالمها ، هو مصدر فرحها وحزنها ، بيدها زوقت البنات وزوجات الاولاد في الأعراس وكانت زغاريدها أعلى من كل الزغاريد ، ويوم وفاة صفية زوجة الحاج سعيد كان مصابها أكبر من الجميع فهي أقرب الناس اليها في هذا البيت الكبير .

وفي صباحات الشتاء كان الحاج سعيد لايستبدل طقوس حياته ، ولكن بدلاً من الذهاب الى النهر كان يقصد كوز الماء الذي يتوسط باحة البيت ، ويبدأ بسكب الماء على جسده ، وغالباً مايكسر قطع الثلج المتجمدة علىسطحه ويمسح بها جسده وهو يغني بانتشاء . وبعد أن ينتهي يتدثر بعباءته ويتسلق السلالم باتجاه غرفته في الطابقالاعلى .

لقد أنفق الحاج سعيد مئات الدنانير لبناء هذا البيت ، وقد حمل أبوابه وشبابيكه في سفينته من البصرة ، أما جذوعه فقد جاء بها من سوق الشيوخ ، أراده أن يكون الصدر الواسع الذي يضم المزيد من الأبناء والأحفاد .

في الطابقالأرضي منه يسكن أهل البيت ، أما الطابق الأعلى ففيه غرفتان كبيرتان احداهما للحاج سعيد ، والثانية للضيوف ، وعندما يفتح بابه الكبير فعلى دهليز عريض ، على اليمين منه مباشرة سلم يؤدي الى الطابق الاعلى . وهذا يسهل دخول الضيوف وخروجهم والذين يمتلىء بهم البيت كل يوم ، ويندر أن يخلو منهم ، وان حدث ذلك فانه يمد رأسه من السياج وينظر باتجاه النهر ثم باتجاه الشارع المؤدي الى محلة الصابئة وهويتمتم في سره :

— لماذا لم يجيء أحد اليوم ؟

أما في ساعات الليل الاولى فكان يستقبل العديد من جيرانه ، وأغلبهم من الشيوخ الذين عمرت حياتهم بالتعب والتجارب حيث يتمددون على السجاجيد الجنوبيةالمزركشة متدثرين بعباءاتهم ، يدخنون ويتلذذون بشرب القهوة العربية المرة التي كان الحاج سعيد يجيد صنعها ، وغالباً ماتتم الصفقات التجارية في هذه الجلسات، بيع تمر أو شراء حبوب أو أرض ، وكان المتاجرون يستأنسون برأي الحاج سعيد في مثل هذه الامور .

وفي أيام عاشوراء العشرة كان الحاج سعيد يقيم مأتماً للحسينأمام داره ، حيثيقطع

الشارع ويفرش بالسجاجيد ، أما واجهة البيت فتكسى بالاقمشة السوداء وقد كتبت عليها عبارات الحزن المعروفة في مثل هذه المناسبة ، وأبيات الشعر التي تكبر استشهاد هذا الثائر الكبير . وفي اليوم العاشر منها تملأ القدور السبعة الكبيرة التي يحتفظ بها لهذه المناسبة بـ « المريس » وتنحر الذبائح . ويبدأ الفقراء والمقطوعون بالتوافد الى البيت حاملين الاواني لملئها بالطعام . بعد ذلك يخرج أشياع الحاج سعيد في موكب حزين بين لاطم صدره بيديه ، أو ظهره بالسلاسل ، وبين ضارب رأسه الحليق بالسكاكين الكبيرة والدم يسيح على المكفن الذي يغطي جسمه ، ويمضي هذا الموكب بخشوع محاطاً بعويل النساء بينما يرتفع من مقدمته صوت يتحدث عن مآثر الحسين وثورته بنغم متهدج ، ثم يمتزج الموكب مع المواكب الاخرى المتجمعة في شرقي شارع الهواء ، ثم تواصل سيرها باتجاه الحمامات المفتوحة قرب مبنى البلدية .

ورغم هذا كله فالحاج سعيد كان يشرب العرق بافراط واشتهاء ، ولا ينقطع عنه الا في أيام عاشوراء ورمضان ، إذ يغتسل ويصلي ويصوم أيام رمضان الثلاثين على أتمها ، ولا ينفك عن الترديد على مسمع من أولاده وأحفاده :

– هذه أيام الله ، يجب أن نعرفها جيداً ، أما الايام الاخرى فهو أيامنا نحن ، ولنا الحق في أن نمضيها كيفما نشاء .

كانت حياته نغماً واحداً ، ينسكب في تواصل وتناسق جميلين ، ليس فيها أي فعل مصطنع أو دخيل . الحياة شاغله الاول والتي تكون للقلب سعادة ونقاء . في انتهائه لثوار العشرين ، وفي معاشرته للنساء ، في صومه وصلاته ، وفي سكره وعربدته كان واحداً . وجه مكتمل الملامح والتقاطيع ، يمارس الطقوس المتناقضة بامتلاء ورجولة فيصهرها في بوتقة واحدة . ومقابل خشوعه الديني كان هناك فرحه الذي لا يحدد وهو يسكب زجاجة العرق في وعاء جوز الهند الذي اشتراه من البصرة ، حيث يضع فيه قطعة من الثلج ، يديرها بسبابته حتى تذوب ومن ثم يكرع الزجاجة دفعة واحدة ، يمسح شاربيه بعد ذلك ثم يتجشأ بصوت عال دون أن يستعين بالمازة لقتل لفحة العرق الحاد فقد كان بلعومه يطرب لها .

ثم يحدق الى الامام متأملاً ، ويبقى على هذه الحال برهــة من الوقت ، فكأن كل حياته العريضة تمثل أمامه ، منسابة بنعومة كما تنزلق سفينته على سطح الفرات محملة بالمال والعطاء .

يضع بعد ذلك يده على خده ثم يغني ، ينساب صوته جريحاً وبطيئاً فكأنه يناجي انساناً آخر ينام في أعماقه ، ويدخل هذا العالم السحري غير آبه بمن يكون في قربه ، كل الاشياء لاصلة له بها ، وصلته الوحيدة بذلك الشيء الغامض في حناياه والذي يجعل كلماته تتفجر حزناً وألماً .

بعد ان يرتوي من ذلك ينهض ليخيط ثوباً تمزق او ليتفقد ابناءه واحفاده فارضاً هيمنته وحضوره في هذا البيت العامر .

وكان ابنه الكبير عمران يتساءل مع نفسه مراراً :

— كيف استطيع ان اكون مثل ابي ؟

٢ — أحزان خالد بن الوليد :

في ركن قصي من غرفته الواسعة ، كان الحاج سعيد يرتمي ذاوياً ومنكمشاً ،دليل الحياة فيه سعاله الذي يتردد بين لحظة وأخرى فيكاد البول ان يقفز من بين ساقيه دون ان يطيق السيطرة عليه .

وغالبا مايردد في سره :

— مع الأسف يا أبا عمران .. مع الأسف .

ثم يعقب كلماته بزفرة محترقة ، منتهياً بمداعبة أطراف لحيته المشتعلة ببياض نقي وهو متكىء بهدوء على وسادته الصوفية العالية شاعراً بأنه قد بعد عن تلك الحياة الممتلئة ، بكل فصولها الجميلة والمرعبة ، الفرات وغابات النخيل ، زجاجة العرق والسباحة في النهر ، ذوت تلك الآفاق وتقلصت حتى أصبحت ركناً قصياً في بيت كبير .

ويدور بصره الكليل مستعرضاً موجودات الغرفة ، نوافذها التي أغلقت حفاظاً على صحته ، وصورة العباس وهو على ظهر جواده وقد كسيت بطبقة من الغبار ، ونسج العنكبوت بيته فوق قائمتي الجواد تماماً .

وتعود يده لتداعب شعيرات ذقنه وهو ينصت لصوت الحياة يتردد وجلاً في صدره ، ويعود ليتمتم :

— هاهي رحلتك على وشك الانتهاء ، لقد وصلت مكانك ياحاج ففي أمان الله .

ورفع يده التي كانت ممسكة بشعيرات ذقنه ، ثم انقلب على جنبه وأصبحت

نظراته باتجاه باب الغرفة ، وفي أعماقه يلوب ندم صافع على وضعه الأسيف هذا ، ويتساءل :

– يا أبا عمران لماذا لم تمت يومذاك ؟ خرجت سالماً من رصاص الانكليز كما خرجت سفينتك من عباب النهر وهي محملة بالأسلحة لتوزع على القبائل الثائرة ، من البصرة حتى الحلة ، وكنت تغطيها بعذوق التمر وصفائح السمن غير عابىء بما ينتظرك ان وشى بك واش .

يبلع ريقه ويغمض عينيه ببطء منتزعاً الصور القديمة من ذاكرته بصعوبة :

– كيف نجوت من تلك المسيرة الطويلة التي قطعت فيها صحراء نجد على ظهر ناقة عليلة لتؤدي فريضة الحج ؟

ويضحك في سره ، وهو يتذكر عودته بعد ثلاثة شهور حيث نحرت له الذبائح ، وزاره عشرات المهنئين ، ويتذكر ماهمس به في اذن زوجته صفية :

– أنت محظوظة يا ابنة عمي ، كدت أتزوج من زنجية نجدية وآتي بهـا ضرة لك .

فأخذت صفية قوله مأخذ الجد فردت :

– ولماذا تتزوجها ؟ وأنا ماذا ينقصني ؟

فيضحك الحاج وهو يمسك بجديلتها المضفورة بالمسك والحناء ، يشمها ويقول :

– وصفوها لي دواء لآلام ظهري من عناء السفر والجلوس الطويل على ظهر الناقة .

ويأخذ الحاج بأمرار أصابعه على وسادته ببطء ، وكأنه يتذكر جديلة صفية ، ويردف في قرارته منتزعاً رأسه من لهيب الحكايا القديمة :

– لماذا تركتني ياصفية ؟

كل عالمه القديم يمثل أمامه ، أصواته تأتيه دون ان يتطارش أمامها ويبعدها عن قرع رأسه .

بعد عودته من الحج قال لأولاده المحيطين به :

– أياكم وان تظنوا بأنني سأكون من زوار المساجد ، لا ، ان لي حياتي الخاصة وسأمضي عليها . زجاجة العرق لن أستغني عنها مطلقاً ، والله وحده يعرف قلبي جيداً ، وهو يفهمني اكثر مما تفهموني انتم الخارجون من ظهري .

وبعد أن مر اسبوع على مجيئه استخرج زجاجة عرق كان يحتفظ بها في غرفة المؤونة مع صفائح الخللات والسمن وأكياس الحنطة والرز ، وأعلن وهو يرفعها الى أعلى بيده القوية :

– لقد انتهت طقوس العودة من الحج ، وها أنا أبدأ حياتي .

وقد شرب تلك الليلة حتى ثمل ، ورددت حنجرته تلك الحداءات القديمة التي تخبؤها ذاكرته اليقظة ، وانسابت الكلمات ناعمة ولذيذة عن الحب والفرسان والصيد في حضن الصحراء الفسيح ، يوم كان شاباً يبحث عن اقتحام المجهول مع رفاق له ، ولا يوقف بحثهم تهديد الآباء ولا دموع الأمهات ، كانوا يحملون خيامهم وبنادقهم وصفائح الماء وينصبون خيامهم وسط الصحراء مالئين صدورهم برائحة العرار ورؤوسهم بالصفاء الجميل . وكم كان الحاج سعيد يتعرى من ثيابه في الليالي المقمرة ويضرب في الصحراء وحيداً ممارساً صلاة لايدرك أبعادها أحد .

يسعل من جديد وهو ينهض منتزعاً جسده العليل من فراشه ، يسترد أنفاسه برهة ثم يجلس على حافة السرير ممدداً ساقيه اللتين بات يميزهما نحولها الشديد ، ويمسك بعصاه المركونة على الحائط ثم يبحث عن نعليه ، وعندما يجدهما ينتعلهما ويمضي باتجاه النافذة فيفتحها .

طالعه النهار الجديد وقد انصاح الفجر جميلاً ودافئاً فخطا خارجاً من غرفته ، وأخذ يتعكز على عصاه وهو يقزل في مشيته المجهدة ، وعندما وصل الى السياج المطل على باحة البيت أحنى رأسه علّه يرى أحداً فوجد الصمت يغطي البيت في مثل هذه الساعة المبكرة فنادى :

– حامد .. سليمة ... ليلوة .

وعندما قابله الصمت عاد الى الصياح بصوت أعلى :

– ليلوة ... ليلوة .

تنتزع ليلوة جسدها من المطبخ عندما تسمع صوته ، وتسحب خطواتها الهرمة خارجة اليه ، وعندما تصبح في وسط البيت ترفع رأسها الى أعلى وهي ترد :

– أتيتك يا حاج ، أتيت .

وعندما يسمع ردها يطمئن . وبعد دقائق معدودات تأتيه حاملة أبريق الماء ، وبعد أن تحييه تعينه على تشمير اكمام دشداشته العريضة . وتبدأ بسكب الماء له

فيغسل وجهه وذراعيه حتى المرفقين ثم يملأ فمه العاري بالماء ويبقه على الأرض عدة مرات .

ثم ينهض بعد ذلك ويدخل غرفته، ويمشي بداخلها ليريح ساقيه من خدر النوم ، وبعد أن يقطعها طولاً وعرضاً عدة مرات يقف أمام صورة العباس ويمسحها بطرف عباءته فينهال التراب المتجمع فوقها ، ويكرر مسحها فينتزع بيت العنكبوت الملتصق بها فتظهر ألوانها واضحة وتبرز ملامح الفارس والحصان .

وتعود ليلوة حاملة فطوره الذي تقلص حتى أصبح بيضة واحدة وقطعة صغيرة من الصمون ، وتجلس أمامه بعد أن تسكب له الشاي في الكوب وتقدمه له .

يقول لها بهدوء :

— جزاك الله خيراً يا أختي .

فتضطرب كلماته في قلبها ، ثم يلف البيضة في قطعة الخبز ويضيف :

— لم أكن مخطئاً عندما آخيتك ، فأنت لي نعم الأخت .

وتذكرت ليلوة ذلك اليوم الخالد ، ربما يعود الى عشر سنوات خلت أو أكثر منها بقليل ، حيث أمسك بها الحاج سعيد من يدها ، وكان في أوج صحوه وفرحه ، واستل سكيناً صغيرة كان يحتفظ بها في جيبه ، ثم شج راحة يدها حتى تدفق الدم منها ، ثم فعل الشيء نفسه بيده . وكانت ليلوة ذاهلة مستسلمة لما يفعله ، بعد ذلك أطبق يده على يدها وحصرها بقوة حتى أخذ الدم القاني ينساح من بينها ويتساقط على البلاط ، وهنا أعلن الحاج بصوت عال :

— أنت أختي منذ اليوم ، وها هو دمي يمتزج بدمك .

فأفاقت ليلوة من ذهولها وأطلقت زغردة عالية، ثم طوت عباءتها على ذراعها، وبدأت تردد احدى الهوسات التي عاشت كلماتها في ذاكرتها منذ أن كانت ثورة العشرين تجتاح قرى الفرات الأوسط ومدنه . وكانت الأحداث تدور أمامها يومذاك بغموض لا قدرة لها على استيعاب فصوله .

تذكرت ليلوة ذلك اليوم ثم رددت بألم :

— لقد وفيت بوعدك يا حاج فكنت أخي فعلاً .

٣ ـ الحفيد :

نطق حامد :

— هذه الغرفة كانت غرفة جدي ، وفي هذه الزاوية كان سريره الذي مات فوقه.

ثم بدأ بطقطقة أصابعه الطويلة بعد أن شبكها أمـام وجهه ، وكانت السماء في الخارج قد تلبدت بغيوم غبراء ، وخيمت في الجو عتمة طفيفة ، ولم يعد بريق الشمس ناصعاً يزرع الاشياء في لمعان صاف .

وأمام حامد كان يجلس صديق له ، يتصفح كتاباً اشتراه قبل مجيئه الى هنا ، ولم يفض كل صفحاته بعد ، وكان يصيخ السمع لاقوال حامد الثمل .

وعاد حامد الى القول :

— كنت أعيش في الطابق الاسفل مع اخوتي ، ونادراً ما أصعد الى هنا ، وأفعل ذلك يوم يجتمع شمل الرجال في ليالي الشتاء أمام موقد النـار وفناجين القهوة حيث أتسلل الى مجلسهم وأرتكن هناك .

وأشار بسبابته الى الزاوية التي كان يجلس فيها ثم تابع :

— وأظل اصغي الى احاديثهم الخليطة، عن الانكليز ومجيء فيصل ، والوزارات، والصفقات التجارية ، وعلى الرغم من عدم قدرتي على الامساك بطرف الخيط فان أحاديثهم لا بد وأن تكون مهمة ، وكنت مشدوهاً أمام طريقة تبادلهم هذه الاحـاديث ، وكيفية ارتشافهم لفناجين القهوة ومماهم المتقطع ، وكان صوت جدي مميزاً فيما بينهم ، أحس وكأنه الذي يقودهم ويوجههم في أي موضوع يشاء .

واستمر الصديق في تقليب صفحات الكتاب بينما مد حامد يده ورفـع كأسه الى فمه ، وبعد أن ارتشف منها جرعة أعقبها بملعقة من حب الرمان ، ملأها من اناء كان على المنضدة أمامـه . وضرست أسنانه من حموضته ، ولكنه امتص ريقه ليخفف مـن هذا الطعم .

ضحك حامد بعد ذلك ضحكة مجلجلة حاول فيها أن يقلد ضحكة جده التي كم ترددت بين جدران هذه الغرفة ثم قال :

— لم اعرف رجلاً يختزن العالم في أعماقه مثل جدي ، لم اعرف ، آه ياصديقي ، لو أحدثك عن بكائي الذي دمرني منذ أيام وأنا أرى عباءته ومسبحته وكيس تبغـه في صندوقه الذي فتحته بفضول ، لم اصدق انه مات ، كنت أظن انه قـد ذهب في رحلة لينهي مهمة تجارية ، أو ليصفي قضية عالقة ويعود بعدها فتعود الحياة الى هـذا البيت الذي انطفأ ضوؤه برحيله ، ولكن الحاج سعيد مات !

ـعل الصديق ثم بدل من وضع ساقيه ، وجعل التي كانت في الاسفل الى أعلى ، وأخذ جرعة من كأسه ثم عاد الى الكتاب بينما عاود حامد القول :

— هناك رجال يستأهلون الحياة كلها . انهم عشاق كبار لها ، ومنهم كان جدي ، صدقني بأنني لم أكف يوماً عن مراقبته ، وكان هذا العمل يجعلني أحس بمعنى الأشياء ، وأكف عن المرور الآلي بها . الطعام والمرأة والهواء والغناء والدموع ، كل هذه الأشياء كانت عنده تعني نفاذاً وغوصاً ، كان التناقضات كلها ولكنها مجتمعة بوئام . يسكر ويصلي ويصطاد بعض القرويات القادمات الى المدينة اذ كان يفضلهن على بنات المدينة ، وقد سمعته يقول لأحد اصحابه ذات يوم بأن هواء الريف قد صقلهن ، ولا أكذب عليك ان قلت بأنني تسللت يوماً الى غرفته بعد أن رأيته يقود واحدة اليها فوجدته عارياً يحط فوقها وهو ينفخ فحولة وصهيله يملأ الغرفة ، ويومها مثلت أمامي كل أحاديثه عن الغزو والصحراء وصيد الغزلان .

وصمت حامد بعض الوقت مسترداً أنفاسه وساقياً جوفه بجرعة جديدة من كأسه. صفق بيده ثم عاد الى القول :

— في ايامه الاخيرة أحسست برثاء عميق له وأنا أراه منسياً ومرمياً هنا . حتى حاجته لايستطيع أن يقضيها بنفسه . وكنت أردد في سري عندما أراه : أيها الزمن اللعين لماذا ابقيته الى هذا اليوم ، ولكن تساؤلاتي كانت تضيع وأنا أراه يذوي وينطفىء تدريجياً رهناً للربو والبول السكري والشلل .

ثم نهض وتوقف وسط الغرفة برهة وأخذ يدور فيها بعد ذلك . وبدأ صديقه يتأمله بطرف عينه ويراقب قامته المخمورة وهي لاتقوى على الانغراس ، وتمتم :

— كان خالد بن الوليد محقاً لأنه تمنى ميتة أخرى .

وكان الصديق قد سحب عينيه من مراقبته ، وعاد الى كتابه مواصلا تصفحه ، أما حامد فقد أردف قائلا بأسف :

— ولكن الذي يؤلمني أن هذه الدار قد بيعت ، وأنها أصبحت ملكاً لرجل آخر ، وعندما نغادرها ستأتي عليها المعاول والفؤوس ليبني على أنقاضها شققاً صغيرة ودكاكين، لقد سمعت هذا من أبي قبل أيام .

ورجع الى كرسيه وارتقى فوقه ممدداً ساقيه أمامه ومسنداً ظهره الى الجدار رافعاً رأسه الى أعلى قليلا متأملا جذوع السقف وقد اتخذت حبلى بالتراب وبانت ثقوب

لعث المنتشرة فيهـا . بينما تناول الصديق كأسه وارتشف منها جرعة جديدة وأعادها الى مكانها وما زال الكتاب في حضنه . واستأنف حامد البوح :

– هذه الأسرة الكبيرة بدأت تتهاوى وتفترق ، الزواج والموت ، الأولاد فضلوا سكنى البيوت الصغيرة ذات الحدائق في الجانب الآخر من النهر ، ولم يبق في هذا البيت غير والديّ اللذين لم يستعملا منـه الا الغرفة الأماميـة فقط ، أما الغرف الاخرى فقد هجرت . حتى ليلوة ماتت بعد جدي بأيام تماماً كما يموت الطائر حين يفقد إلفه .

وضرب بيده على فخذه وأطلق ضحكة مخمورة قال بعدها :

– أتدري ؟ كان في نيتي أن أجعل هذه الغرفة متحفاً لجدي ، نويت على هـذا العمل متأخراً ، أعلق فيها سيفه وبندقيته ومسبحته ، وأضع فيهـا سريره وقشرة جوز الهند التي كان يشرب بها العرق ، كما أضع صندوق ثيابه في نفس مكانه هناك .

وأشار بيده الى المكان المواجه للباب ثم أضاف :

– ولكن عمليـة البيع قد تمت ، وألسنة الوارثين ممتـدة لاهثة لتستلم حصتها من البيع .

ثم نهض ضاحكاً ، ورده بحنجرة انتزعها من آبار الشكوى والحزن ،

– ولكن صدقني بأنني الوحيد الذي خلدت ذكراه بين كل أحفاده ، حيث مثلت في هـذه الغرفة كل الطقوس التي كان يعشقها ، ثملت ، وقدت الفتيات ، وضحكت ، وبكيت ، وصليت أيضاً في أيام عاشوراء ورمضان تماماً كما كان يفعل .

وهنـا انتهى الصديق من تصفح كتـابه الجديد ، أطبقه ثم رماه على المنضدة القريبة منه ، وأمسك بزجاجة العرق بحماس مفاجيء ، ودار في كأس حامد ثم في كأسه بعد ذلك ، ونطق بصوت عال :

– لنشرب نخب جدك عرقاً صافيـاً ليس فيـه قطرة ماء واحـدة تماماً كما كان يفضله .

ثم التقطا كأسيهما مرة واحـدة ، قرعاهما ورفعاهما الى أعلى ثم سكبـاهما في جوفيهما الساخنين .

– بغداد –

عودة البحار

محمود عبد الواحد

« أي شمش .. لماذا أعطيت جلجاميش هذا القلب القلق .. لماذا اعطيته إياه .. أنت دفعته فهو الآن في طريقه إلى رحلة طويلة .. يسلك طريقاً مجهولاً ويخوض معركة غريبة » .

— ملحمة جلجاميش —

التفت الجميع الى الباب الذي فتح فجأة وبعنف .. كان الغلام يلهث .. فحدجوه بنظرات استفهام حائقة ..

— المراكبي .. عاد .. ادم المراكبي .. عاد !!

ثم اختفى من حيث ظهر .. حدقت الاعين في الاعين بدهشة واستغراب .. وفي لحظات .. كان المقهى خالياً .. والباب يتأرجح من الصدمات المتتالية .

١ — الصديق

كنت اجالس البحر وحدي ، عندما رأيته ذلك الشعاع الهزيل وهو يتقدم ببطء نحو الشاطىء .. فاتحاً ثغرة صغيرة في هــذا الحائط الكبير من الليل .. لعله أحد الصيادين .. ولكنني تذكرت اننا عدنا جميعاً من الصيد .. فمن ترى يكون ..؟!.. صرفت التفكير عنه .. واستغرقت مرة اخرى في فيض التأملات .. كنت مشدود النظر الى صخرة يلطمها الموج .. منذ ان كنت طفلاً وانا ارى الموج يلطمها دون ان تتزحزح ودون أن يتعب الموج .. وأفقت فجأة على وقع صوت ارتقى على اذني طالباً المساعدة .. كان القارب قد اصبح على مبعدة امتار مني .. وبغتة داهمني احساس لايقاوم بأنني قد سمعت هذا الصوت مراراً قبل الآن .. فنهضت متجهاً نحوه .. وانا اقاوم شعوراً غامضاً .. لا .. ليس من المعقول ان يكون هو .. لكنني كنت كلما اقتربت اكثر .. كانت المعجزة تنهض امامي شيئاً فشيئاً .. ثم لم اتمالك نفسي .. فصحت :

— ادم .. !!؟

★ ★ ★

.. اجيال وعصور طويلة مرت قبل ان أفيق من روعة المفاجأة .. قبل ان أصدق ان هذا الغريب الوافد هو صديق العمر والطفولة .. اجيــال وعصور طويلة انسحبت من ذاكرتي .. وانسحب معها البحر والليل والاشياء .. حياء .! واختبأت خلف عشبة صغيرة لتسترق النظر الى مايجري .. ولم يبق إلا أنا .. وهو ...

★ ★ ★

لقد صار نحيلاً جداً .. وفورة الشباب هربت من وجهــه .. وذلك الاستعداد الدائم للضحك لم أعثر له على أثر .. كان عارياً .. ماعدا خرقة ممزقة تستر عورته .

كان في حالة شرود دائم .. لم يكن يحس بوجود أحد منا .. ولم أكن لأصدق أن هذا الشبح الجالس أمامي هو نفسه أدهم المراكبي .. ذلك الشاب الحيي المتأجج بالمرح والحركة .. الذي فتن كل فتيات البلدة .. فما من امرأة الا وعلى جدران قلبها شيءمن « خربشاته » .. ذلك الصديق الذي كنا أنا وهو نخرج من صلاة الجمعة .. ثم .. رأساً.. الى خمارة «الارمني» ..!! .. وكنا نعلن ذلك على الملا .. ونحن نفرقع من الضحك ..!!

★ ★ ★

لم يبح لي ولا لأحد من أهله أو أصدقائه كيف أو أين كان مختفياً طوال هذه المدة الطويلة .. ثم أقلعنا عن سؤاله عندما لاحظنا الرعب الذي كان يتبدى في عينيه عندما كان يطرح عليه السؤال .. لكنني لم استطع مقاومة الرغبة في أن أعرف .. فحكاية اختفائه كانت مثار النقاشات والجدل في البلدة .. وعندما قالوا بأن قاربه تحطم وغرق لم اصدق .. كنت على يقين بأنه حي وسيعود ..

حاولت استدراجه .. فقلت له :

— آه .. ما أجمل السفر .. كم أود لو أطوف في انحاء العالم كلها .. انني لا أنسى عبارة قلتها لي أنت ذات مرة .. منذ زمن بعيد .. « أتعرف أن هناك بلاداً بعيدة تزخر بالنساء الجميلات .. وبخمور لاتعرفها حانة « الارمني » .. أتعرف أن هناك لغات مجهولة تخرج بالأغاني العذبة .. والمواويل الساحرة .. آه ياصديقي .. سوف اهجر اليها ولو لم يبق في عمري غير يوم واحد » .. أتتذكر ..؟!

فالتفت نحوي ملسوعاً .. ممتقع اللون والنظرات .. ثم اشاح بوجهه عني .. واغمض عينيه بيفا كان طوفان من الأسى يمضي به بعيداً .. بعيداً

★ ★ ★

٢ الزوجـــة

عاد لي .. لم اصدق عندما قال لي وجهه أنه عاد .. عـاد لي .. بعدما علكتني مرارة الانتظار ورمّد جفنيّ طول الحلم والبكاء والسهر .. وعندما فتح الباب وانتصب امامي بكل حضوره .. بعينيه .. بخنجر عينيه .. الذي غرزه بين اضلعي ثم .. تركني ومضى .. وقفت امامه كالمخبولة وعندما ايقنت ماحدث .. ارتميت على صدره .. بكل

جوع السنين .. بكل العطش واللهفة .. منهالة عليه بالقبل .. وانا ازيح عن عيني سحابة الدموع .. دموع من يرى السماء لأول مرة بعد سجن طويل .. طويل ..

★ ★ ★

عشر سنين .. عشر سنين وأنا اهيل التراب والماء على هذا السعير الذي يصهرني .. عشر سنين .. وأنا اشد بيدي على ذاك التنور المتأجج في رأسي وبين فخذي .. وأشيح بوجهي وسمعي عن جميع الافواه والكلمات التي كانت تقرأ على مواعظها .. ثم احتل بتلك الكتلة الرهيبة من الجمر والرعب والانتظار .. وأنا مصرة على ألا أبترد الا بنسيج صوته الحنون .. وبحيرات الفيروز في عينيه الخضراوين .. عشر سنين وأنا أعد الاغنية التي سأستقبله بها . كل يوم اضيف او انقص منها حرفاً .. وامرح شعري .. واضمخ صدري بأطيب العطور .. ثم اعتلي السرير وعيناي لا تفارقان الباب الذي سيفتحه يوماً ما .. ليرتمي فوق جسدي ويغوص فيه الى القرار ..

★ ★ ★

هاهو الباب يفتح .. وها أنا .. نسيت الأغنية ..

★ ★ ★

احتل مكانه الذي ظل فارغاً طوال عشر سنوات .. بجانبي على السرير .. ويومها .. تعطرت كما لم اتعطر من قبل .. وكانت النار تتساقط حولي بغزارة المطر .. وأعددت نفسي للذوبان في جحيم قبله الملتهبة .. التي حرمت منها .. ملايين السنين .. فرشت جسدي بجانبه .. لكنه لم يبد حراكاً .. كانت عيناه مغروستين في السقف المعتم .. وعبثاً كنت احاول انتزاعها منه .. فمددت يدي وأخذت أمرزها على شعره ووجهه وصدره .. وأنا أقبله واتوسل اليه .. لكنه كان بارداً كالجليد وجبينه ينضح بالعرق والحمى .. انقض على الذعر من كل جانب .. فصرخت من يأسي .. انفجرت بالبكاء والنحيب .. وما أحس بي .

★ ★ ★

عشر سنين مرت .. سلحفاة أرجلها من حديد تمشي على جسدي .. ثم يأتيني بعدها في ليلة شتائية .. موقداً بلا نار .. ركاماً من اللحم البارد .. جثة خامدة ..

★ ★ ★

كان أحياناً .. يستيقظ في الليل مجنوناً قهرته الرؤى .. فيرتمي على جسدي .. ويقتحمه .. ساحباً وراءه قطعاناً من الضباع الجائعة .. وبعد أن يرتوي وترتوي .. يدفن رأسه في صدري ويجهش في البكاء .. مثل طفل يختبيء في حضن أمه عندما يرى كابوساً مخيفاً أو يسمع عواء ذئب آتياً من بعيد ... وكنت أتابعه من خلل الدمع والنشيج وهو ينهض كمن به مس ليتركني ويمضي . فأراه من النافذة وهو يجمع كومة كبيرة من الحطب .. فيضرم النار فيها ثم يركع أمامها وأمام البحر .. حتى الصباح ..

★ ★ ★

٣ ـ الابنة :

أكره أهلي .. وأكره بلدتي ورجالها .. أكره العبوس الملصق على وجوه أخي وجدي وأعمامي وأخوالي عندما يكلمونني .. وضحكاتهم البغيضة عندما يختلون مع بعض . وأنا لست سوى خرقة لمسح كل شيء .. الارض .. الجدران .. الموائد والصحون .. وعند الحاجة يغمسونني بالدم ثم يمسحون « العار » عن جباههم .. اكرههم .. وأكره مواعظهم وأمثالهم .. شرف البنت مثل عود الكبريت .. هه .. ما أجمل « التراجيل » وهي تقرقر بالحكم ..

وعندما عاد أبي .. لم أفرح إلا لأن الجو كان موحياً بالفرح .. فأنا أعرف أنه لا يختلف « عنهم » في شيء .. وانه عندما سيمر بعض الوقت فسوف يجلدني مثلهم .

★ ★ ★

أخطأت الظن .. فقد كان أبي وديعاً مثل طفل .. حتى أنني شعرت بعاطفة الامومة نحوه ..!!

لقد احببته .. كان الوحيد الذي احببته من اهلي .. وكنت اهتم به كثيراً .. لكنني بعد مدة طويلة من الانتظار .. انتظار ان يقول او ان يفعل شيئاً .. مللته .. ومللت صمته ونظراته الشاردة . وعينيه المتألقتين ابداً بالدموع .

★ ★ ★

بعد ان تأكدت من نوم اهلي جميعاً .. وضعت مخدة في فراشي وغمرتها بالغطاء ..

ثم مشيت على رؤوس اصابعي وفتحت الباب بحذر .. كانت اعصابي غاية في التوتر والاضطراب .. لقد كنت على موعد مع « محمود » الليلة .. هذه اول مرة اقابله في الليل .. ورغم انني اعرف مايريد .. وبالرغم من الخوف الذي كان يسيطر عليّ .. فقد كنت احس بأن شيئاً مالايقاوم يدفعني لخوض التجربة .. فتسللت وانا ابتلع ريقي بصعوبة .. كان ينتظرني هناك .. خلف الصخرة الكبيرة .. وعندما وصلت اليـه القيت بنفسي بين احضانه وانا اكاد ابكي من فرط الانفعال والقلق .. وانهـال عليّ بالقبلات والكلمات العذبة .. كانت حواسي الخمس ابواباً انفتحت على عوالم غاية في الروعة والغرابة .. وتبخرت كل المخاوف التي عانيتها .. امام هذي النشوة المسيطرة .. لكنني .. افقت فجأة على صوت باب منزلنا وهو يفتح .. التفت بذعر .. كان شبح رجل يتقدم نحونا .. فانتفضت من الرعب وانا احس الارض تدور بي .. كان « محمود » قـد نهض مسرعاً وهو يزرر سرواله .. فتشبثت به مستغيثة يكاد يقتلني الخوف .

— ارجوك .. لاتتركني .. سوف يذبحونني .. « محمود » ..

ولكنه كان قد غاب في الظلمة .. وتركني اواجه المصير .. وحدي

★ ★ ★

حاولت النهوض والركض .. لكنني اصبت بالشلل .. فدفنت وجهي في كفي وانتظرت السكين التي ستنغرز في ظهري .. كانت الخطوات تقترب مني ثقيلة مدوية .. وفجأة .. احسست بغضب جارف يجتاحني .. فانتفضت واقفة .. ووضعت في عيني كل ما املك من حقد وكراهية وقذفته في وجه الشبح المتقدم نحوي .. وأنا مرفوعة الرأس .. ولكنه .. مد يده وامرها بحنو على رأسي ..!!؟.. وطبع قبلة اعذب من رذاذ مطر الصيف على جبيني .. ثم لف يده حول خصري وجلس واجلسني .. ثم قال بصوت اسمعه لأول مرة .

— لقد اكتشفت ان ابنتي اصبحت انثى واحدة

— ... !!؟

— وها أنا اكتشف مرة ثانية أنها عاشقة .. وشجاعة

فنظرت اليه غير مصدقة .. وتشبثت بوجهه وعينيه ليقول المزيد ..

— كم انا سعيد لأنني رأيت ابنتي تمزق هذه العملة القديمة المتداولة

— ...!!؟

— ولكن كل ما في الأمر أنك أخطأت الاختيار .. لقد جئت ابارككما .. فلماذا هرب ؟.. لقد كان نذلاً وجباناً .. ولم اعد اقوى على الاحتمال .. فارتميت على صدره وقد اجتاحتني عاصفة من البكاء :

— إنني اكرههم جميعاً .. اكرههم .. اكرههم .. لا أحب احداً غيرك يا ابي .. اين كنت .. لماذا لم تأخذني معك ..أرجوك لاتتركني .. لماذا لانرحل معاً ونهجرهم .. لن أطيق العيش معهم بعد الآن .. اكرههم .. اكرههم ..

— إهدئي ياصغيرتي .. حاولي ان تهدئي .. إن أباك لم يعد ليرحل ثانية .. ومن يغضبك فسوف اعرف كيف احاسبه .. ولكن لماذا تبكين ..؟.. هيا .. هيا .. كفكفي دموعك .. ولنعد الى البيت ..

... ثم اخرج منديله وأخذ يجفف دموعي ، وهو يدغدغني ، وانا اتمايل بين الضحك والبكاء ..

— الن تكفي عن البكاء .. إذن سوف أريك .!

ثم نهض واقفاً وجذبني من يدي قائلاً بلهجة حازمة :

— انهضي واتبعيني ..

ثم تركني واخذ يدور في كل اتجاه ويلتقط الاخشاب والنباتات اليابسة ثم يركمها فوق بعضها وانا في غاية الحيرة ..

— ابي .. ماذا تفعل ..!؟

ولكنه كان منهمكاً باضرام النار في الكومة اليابسة .. ثم ركض نحوي وحملني بين ذراعيه .. وراح يدور بي وانا اضحك واضرب الهواء برجلي ..

— ابي .. ماذا تفعل !!؟

— تجرؤين على البكاء أمامي .. هه

ثم طبع قبلة على جبيني وهمس في أذني بصوته الرقيق ..

— سوف أعلمك رقصة وأغنية جديدتين لم تري أو تسمعي بها من قبل

وغرس قبلة أخرى في شعري ..

— لقد أتيت بها من بلاد ما وراء البحر .. انظري .. وسوف ترين

ثم أفلتني ووقف أمام النار ..

— افعلي مثلما أفعل .. وعندما أبدأ بالغناء .. رددي معي ..

ثم بدأ بالرقص .. وصوته آخذ في الارتفاع شيئاً فشيئاً .. ولم أفعل مثله .. ولم أردد معه .. فقد استغرقتني الدهشة والحياء بكاملي .. أبي يرقص ويغني ..!!؟.. ذلك الصامت الحزين ..

لا .. لا .. غير معقول .. إنني في حلم ..

— لم لا تفعلين مثلي ..؟

فترددت قليلاً .. ثم بدأت اقلده بحركات خجول وأنا أكاد أغشى من الضحك .. وظللت ارقص وارقص حتى انهكني التعب..ولمحت من بعيد ظلال اشباح تتقدم نحونا.. ولكنني لم أكن أرى غير أبي .. ووجه أبي .. مضيئاً في الظلمة .. عاكساً توهج النار والجمر .. وصوته القوي .. يهب على وجهي وسمعي مثل .. عاصفة .. شجية .

خالد محيي الدين البرادعي

تواقيع في دفتر دمشق الأخضر

-١-

– شآمُ .. ياشآمُ يا أغنيهْ
تشدَّدتْ أمسِ على جباهنا الحزينهْ
ورفعتْ أعناقنا المنحنيهْ

شآم يازنبقة
ترضع من حليب الشمس
يا امرأة .. غسّلها التاريخ بالدماء
مزّقت ثوب الحزن يوم أمس
ومست كالعروس بين الشهب البنفسجي والدماء

شآم ياصبية نعشقها
نامي على الأجفان .. لاتعودي
إلى صحارى الحزن نحن عدنا
من موسم الأحزان

تبتسمي ياشام .. يامعبودة نعشقها
تبسمي فنحن نملك البسمة والهيبة
ونحن في عرسك ياشآم
زهر وعطر وسنا ودمنا حناء

- ٢ -

– دمشق ،
افتقدنا الطهارة يوم تدنس ثوب
يغطي مساحة أمة
وأحلام أمة
وتاريخ أمة
دمشق .. افتقدنا السلام غداة غدونا
أدلة ميلاد عرش وتهديم عرش ،

بأيدي ملوكِ الطوائف يوماً ،
وأيدي المطلين من مرصدِ القدس يَوْماً ،
وصرنا سيوفاً تبادَلَتها الحَرَسُ الملكيُّ ،
وكانت مواعيدُ تَشْرينَ فَصْلاً من الخِصْبِ ،
مَرَّ بتاريخكِ السَّرْمَدِي
وكانت مشاويرُ تَشْرينَ
لمَحاتِ آتٍ يَجيءُ
تغْسِلُ ما لوَّثَ الغَزْوُ ، تسْتَرْجِعُ المُسْتَباحَ ،
وترفعُ قيد المهانةِ عن أمّةٍ ،
سُلِبَتْ عقلها في عُصورِ الجنونْ
وكان حزيرانُها المنفيَّ والفرْيَةَ التائِهَه .

ـ٣ـ

ـــ دمشقُ يا مولاةَ عاشقيك
جاؤوا ليحرقوكِ ـــ أمسِ جاؤوا ـــ
بقيةٌ من سلَبِ التتارْ
فاحترقوا بوهجكِ القدسيِّ ياكنانةَ الله ،
وجرحكِ القديمُ والجديدُ ،
جرحكِ الناغرُ في أجفانِنا ،
تصورةٌ من نارْ

دمشقُ ان بكيتِ ،
نحن دمعكِ الأخضرُ ،
ان ضحكتِ ،
نحن خضرةُ الزمانِ في يديكِ

دمشقُ ياجراحَنا القديمهْ

تَبكين ؟ هل تبكين ان توهَّم الغزاةُ

أن نارَهم تكوي جبينَكِ الأخضرَ حيث مرّوا !

دمشقُ ، هل آذوكِ ؟

لا

بوجهِكِ القديمِ صارَ زحفُهُمْ

حبلاً من النارِ على أعناقِهِمْ

وصاروا

أمامَ عينيكِ رَماداً ثم صاروا

حلماً غريباً سالَ في بستانِكِ الأخضرِ ،

ثم طاروا

— ٤ —

— دمشقُ يامرآتنا النقيهْ

كم فاتحٍ حاولَ كسرَ بواباتِكِ القديهْ

لفظْتِه كالثمرِ المرِّ وغابْ

واستأنفَ الوجهُ النقيُّ رسمَ حلمِهِ

بأفقِكِ الباسمِ بعدَ رحلةِ العذابْ

تَغزِينَ يادمشقُ تُنهَبينْ

تُسبينَ يادمشقُ في غلائلِ النومِ وتُسلَبينْ

وعندما تسيلُ قطرةٌ من دمِكِ الأخضرِ ..

تصبحينْ

جمرةً في يدِ غازيكِ .. وتصبحين

وهَجاً ملتهباً يحرقُه .. وتخرجين
طفلةً من مسلكِ السبي ومن قافلةِ الغزاةْ
طاهرةَ اليدين قحطانيةَ الجبينْ
نقيةً كالسَّقِ الجَوْن
تخططين أعصُرَ المحبةْ
وتُنبتين شجرَ الحنينْ

- ٥ -

— دمشقُ ، يامَعبودتي الأولى
ويامَعبودتي الأخيرهْ
يانجمةً تشرقُ مِلءَ وجهِ الضوءِ ياضفيرهْ
توزّعُ الشعرَ على دفاترِ العشاقْ
في خضرةِ الجزيرهْ

فارسُكِ القديمُ يادمشقْ
يحيا بكل عصرْ
منتشراً على مساحةِ الصباحِ مثلَ الخضرْ
يسبحُ في السماء كاليمامهْ
بغصن زيتونٍ وسيفْ
يسيرُ فوقَ البحرْ
سُنبلةً وحرفْ
قنديلهُ يرحلُ من يديهِ في المساءَ
ليطفىءَ الرياحَ بين الأرضِ والسماءْ
يفتّحُ الفصولْ

هُنَيْهَةَ الخُضْرَةِ والنَّمَاءْ
يَعودُ عِنْدَ الفَجْرْ
وسيفُهُ ذاقَ دمَ الغزاةْ
من أي لونٍ رسموا .. بكل عصرْ

دمشقُ يا أميرةً شرقيّهْ
ينمو على جبينِها سيلٌ من النجومْ
بوجهكِ الأخضرِ يامعبودةً خلاصُنا
من عتمةِ النّفْيِ ومن سواحلِ الوجومْ
ووجهكِ الأخضرُ يا أميرةَ الحبِّ لنا هويّهْ .

كانون الأول ١٩٧٣

أنطوان مقدسي

وطن ألفة الكلام

استعادة الكلام

وضع الفرع الثقافي لليونسكو العربية مشروعاً موجهاً الى الأجانب يعرفهم بالادب الفلسطيني ، موضوعات وشخصيات . ويقوم على ترجمات متوالية الى اللغات الاجنبية ، في طليعتها الانكليزية والفرنسية ، الاسبانية والايطالية ، الالمانية والروسية . وربما أن مؤسستنا الناشئة وسعت يوماً المشروع بحيث يشمل الادب العربي المعاصر في أهم نتاجه .

ويبدو المشروع أول مايبدو سهلا .

ولكن ما إن يوضع موضع التنفيذ حتى تتكاثر الصعوبات ، إذ إنه ، الى جانب تنوع النصوص وتعددها (وهي ممتدة على حوالي نصف قرن من النتاج المتواصل) ، الى جانب تعدد المنظورات والتفسيرات ، ثمة مأساة أبعادها تفيض عن النصوص وتفسيراتها .

ولم يكن بوسع اللجنة المكلفة بالتنفيذ ، تجنب المأساة ، ولكنهاحرصت على تجنب المهاترة والتمجيد .

ان تحديد الغرض من انتقاء المختارات هو الامر الصعب .

فهل يقوم هذا الغرض على استخلاص دلالة ؟ بمعنى ما ، نعم ،اذا كانت هذه الدلالة مستقبلية ، إذ إن التأليف الادبي لايقتصر على التعبير عن واقعة ما أياً كان شأنها ، وانما هدفه الاساسي هو انشاء وطن الانسان .

ونحن لانعطي أي حكم مسبق عن وطن المستقبل هذا ، فمشروعنا أكثر تواضعاً الا وهو تقديم الفلسطيني كما هو ، في الوقت الذي يعيده فيه التاريخ الى حقيقته ؛ مشروعنا بتعبير آخر يقوم على التفهم والتعاطف ، أو على اقامة صلة انسانية .

وهنا تعترضنا زمرة اخرى من الصعوبات علينا أن نتبينها ، بادىء ذي بدىء ، ألا وهي أن كل انتقاءمتحيز تعريفاً بمعنى انه يفترض فكرة موجهة قائمة فيذهن الانسان الذي ينتقي ، على حد تعبير باسكال .

هذه الفكرة ، تفرض ذاتها علينا لأول وهلة . ففي عصر فك الاستعمار والتحديث لايوجد الا إشكال واحد هو الانسان ، ومشكلة واحدة هي المشكلة الانسانية .

أفهي « الانسانية » الموروثة نضيف الى تنويعاتها المتعددة تنويعاً آخر ، في وقت اصبحت فيه الفكرة مرفوضة بكثير من الازدراء ؟

اذا كان هـذا ما نقدمه للقارىء (الاجنبي) ، فقد اخطأنا المرمى(١) . ولكن اذا استبعدنا « الانسانية » يبقى الانسان . والانسان هذا هو ، في الوقت الذي يدخل فيه مرحلة الحضارة الكلية ، موضوع الاهتمام ، لا بوصفه حارس الوجود ، كما يريد هيدجر(٢) بل في وجوده بالذات الذي يوضع موضع تساؤل . فبعد ان أعلن عن ذاته النقطة المحورية في الوجود ، ازيح عن مكانه ليهبط الى دائرة المغفل ، اذ فقد موضعه أو كاد ، أو اصبح هذا الموقع صعب التعيين ، واصبح الانسان رحالة من نوع جديد ..

يصنف فرانسوا بيرو أناس الحضارة التكنولوجية في زمرتين: سادة الآلة وخدمها ، وهو بذلك على الأغلب ، ينسى ان اناس العالم غير المصنع — وقد اطلق عليهم اسم « العالم الثالث » لصعوبة تصنيفهم — لايدخلون في أية من الزمرتين . حتى لكأنهم من بقاياها(٣) ...

والادهى ان بعضهم منبوذوها .

* * *

قيل عن حركة ايار ١٩٦٨ انها « استعادة الكلام » . فتحت هذا العنوان وضع ميشيل ده مرتو دراسة أخاذة وردت فيها الطرفة التالية : « يحاول أحد الصحافيين أن يعقد حديثاً مع احدى عاملات المصعد في محلات الممارتين (بباريس) فترد هذه : « أنا لا أدري ما أقول . أنا لا املك ثقافة » . ويقاطعها احد المضربين معلناً : « لاتقولي هذا يا أخت . انتهى العلم . الثقافة اليوم هي أن نتكلم »(٤) .

---

(١) وضعت بين قوسين كلمة (اجنبي) لانها لم ترد في النص الفرنسي الذي هو الأصل ، وكلمة انسانية بين هلالين للاشارة ، كما يفهم من السياق ، الى ان المقصود النظرة الانسانية Humanismus التي نشأت في عصر النهضة الغربية .

(٢) راجع بصورة خاصة « رسالة عن الانسانية » في مواطن مختلفة ، الترجمة الفرنسية منشورة لدى غاليمار .

(٣) فرانسوا بيرو ، « الصناعة والابداع الجماعي » ، مطبوعات P . U . F المجلد الاول صفحة ٧١ ، ونجد النص ذاته كمقدمة لمؤلفات كارل ماركس الاقتصادية نشر غاليمار .

(٤) مشيل د . سرتو « استعادة الكلام » باريس ، دكله ده برور . والتشديد من قبلنا .

وكان افلاطون ، في زمانه قد وضع الكلام مقابل العنف [٥] . ولكن مؤلف الجمهورية الذي رسم الطاغية أدق صورة وأكثرها وقعاً في النفس [٦] ، لم يكن بوسعه أن يتصور الطاغية وقد استحال «شيئاً تقنياً» ، ولا مايترتب على هذه الاستحالة من نتائج ، عندما يمتنع فن التوليد ويمتنع الديالكتيك لانعدام الطرف الآخر .

ان الجديد ، الجديد حقاً ، هو سماعنا صوتاً يصرخ : «انتهى العلم» . فليس محتجو ايار ١٩٦٨ ومضربوه ، وحدهم الذين ينقضون «العلمية» ، وانما كل ضحايا التكنو – قراطية . وبالمقابل فثمة كلام جديد هو مايسعى اليه هؤلاء ، كلام يؤسس علائق انسانية جديدة تضع «العلم بدون باق» كما تصوره هيجل ، في المكان الذي يحق له أن يوضع فيه ، في هذا المكان وحسب .

ان القول الفلسطيني يندمج في هذا السياق ، وضمنه علينا أن نفهمه .

صوت ذو سلطان

الكلام المستعاد هو الكلام الذي أعاده الانسان ، صاحبه الشرعي ، اليه عنوة . هذه الاستعادة حدث هو ، ككل حدث آخر ، نقطة تقاطع لعدة أحداث كلها جائزة . ولكن الفعل الذي يعبر عن الصدفة يؤلف بين الجوازات . إذ إنه قرار حر تتخذه الجماعة المسؤولة ، وبه تمنح ذاتها عالماً ومستقبلاً ، فتستقيم في انسانيتها .

يبدو لاول وهلة ان العرب من فلسطينيين وغير فلسطينيين – وكانوا بالكاد قد استيقظوا من سباتهم ، كما يقال – خدعوا بوعد بلفور (تشرين الثاني ١٩١٧) وبغيره من القرارات والصكوك الدولية التي منحت فلسطين قسمة ليهود الشتات . وهذا خطأ فادح ، فالوثائق والكتابات من كل نوع التي ترقى الى

(٥) حوار الفرجياس ، وهي قضيته الاساسية ، كما هو معروف .
(٦) حوار الجمهورية ، الكتاب التاسع ، وبخاصة (٥٧٧ ج) وما يلي .

اوائل المشكلة ، تثبت بما لايترك اي مجال للشك ، العكس تماماً . فالعرب كانوا قد رأوا وتوقعوا قبل مؤتمر بال ١٨٩٧ المأساة الفلسطينية بكل متضمناتها ، رأوها وتوقعوها قبل ان تقع[٧].

ولكن الحدث ، أياً كانت خطورته ، يبقى معلقاً ، متأرجحاً ، إلى ان يستعيده القول ، اي يعيد تاريخه او توالي وقائعه ، اقله كي يستخلص معناه .

ان المشكلة الفلسطينية من شعور العرب ولا شعورهم كالشوكة في الجسد : دلت على هذا جملة ظواهر ، بالاحرى جملة تفجرات تبدت بشكل تظاهرات واحتجاجات ، ثورات وحروب ، بشكل مواقف تزيد وتنقص في حدتها .

المنعطف في الافق .

هل اصبح طريقاً عام ١٩٦٥ ؟ بمعنى ما نعم . ففي هذا التاريخ استحال اللاجىء مقاوماً ، كما يقول الاب مبارك(٨) . ولكن فعل الحرية لايتعين بتاريخ ما إذ انه ، وان كان يتحقق في الزمان ، فهو يتخطاه ليعطيه صورته. ان الحرية تلم التاريخ وتؤسسه بنسبة تعاليها عليه .

يقول بول ريكور عن المنعطف انه حدث مؤسس(٩) .

ولكن الحدث بوصفه كذلك وقائعي . انما الاساس في الدلالة المعبر عنها بكلام مبين. فالتواريخ (ربط الحدث بتاريخ معين) نظرة عقلية ارجاعية، او قراءة أو بتعبير أكثر دقة ، اخبار عن الحرية ، اطلق عليه الاغريق اسم اسطورة بمعنى قصة دالة .

الحرية تاريخها يكشف عنها وفي الوقت ذاته يخفيها . والتاريخ ، لسانه يدل عليه

(٧) راجع خلاصة جيدة عن تسلسل الوقائع في كتاب اوليفيه كاره (الايديولوجيا الفلسطينية للمقاومة) باريس ، ارمن كولين صفحة ١٥١ وما يلي .

(٨) يواكيم مبارك « الخماسية الاسلامية – المسيحية » بالفرنسية . نشر الندوة اللبنانية ، بيروت ١٩٧٢ – ١٩٧٣ . المجلد الخامس صفحة ٥١ . وفي الكتاب معلومات غنية عن القضية الفلسطينية .

(٩) بول ريكور « تعارض التفسيرات » باريس سوي .

في المؤسسات ، منها بالدرجة الاولى الادب . ففلسطين التي فكك بنيانها (أوكان لها يوماً بنيان منفصل ؟) أعاد تكوينها ، أعاد ابداعها شعرُها، حوالي الستينات طريقاً للمقاومة التي اصبحت امراً واقعاً حوالي ١٩٦٠ .

تكوين أم ابداع ؟ سيان ، اذ ذاك وضعت في الوجود ، عمدت ، سميت فلسطين العربية . فالقرار لدى العربي ، أياً كان وأين كان ، لا يعاد النظر فيه ولا ينتقش .

قبل ١٩٦٠ ، قبله بكثير ، كان هناك تأليف شمل الانواع الادبية كلها، الرواية والقصة ، المسرح والمحاولة .. والشعر بالدرجة الاولى ، منه مارقى لعهد الانتداب، يليه ادب مابعد ١٩٤٨ ، اطلقنا عليه اسم ادب الشتات . واخيراً النتاج الشعبي من طرق وحكايات ونكات واحاجي وقصائد زجلية تتناقلها الالسن . وقد لعب هذا الاخير دوراً حاسماً في اذكاء روح المقاومة . واذا كنا استبعدناه من مجموعتنا فلسبب بسيط هو انه لاينقل الى لغة اجنبية ، كما انه لاينقل حتى الى اللغة العربية الفصحى . واذا كنا قلصنا المكان المخصص للاول فلانه رغم قيمته الوثائقية ، امتداد لعصر الانحطاط الذي تخطاه الادب العربي . أما الثاني (ادب الشتات) فهو اهل بأن يذكر لقيمته الفنية الرفيعة وللدور الذي لعبه في توحيد الفلسطينيين . ولكنه بمعنى ما محيطي ، قطبه الجاذب خارجه . ولهذا فهو تارة حاد عنيف تطيب له المناظرة ، وتارة حزين كله أسى وطوراً حار يبعث الحماس . وقد يكون كل ماتقدم وغيره دفعة واحدة .

كان مع ذلك على فلسطين أن تتكلم حتى يكون ثمة فلسطين . ونحن الذين كنا نتوقع صوتها سمعناه .

انه كلام صلب وحنون ، فيه رجولة وسذاجة ، ملزم واخوي ، كلام أنهى او كاد خطابة عصر الانحطاط، تلك التي كانت بشحنتها الانفعالية تبخر الحدث وتلاشيه . أجل ، أنهى كل ذلك ليبدأ مرحلة جديدة هي مرحلة مواجهة الواقع اليومي ، عنيت الوقوف وجهاً لوجه أمام القانون العرفي وبقية التشريعات الاستثنائية وما يترتب عليها من نتائج : التوقيف الاحترازي ، تشريد السكان ، تهديم البيوت ... فعلى فجأة يتوارى الجار وتزول الاخت من الوجود ويتبخر الصديق ... وما شابه من الوقائع العادية يسردها الشعر دونما ضغينة أو حقد .

ان الكلمة هنا لا تعكس امراً ، بل تعيد ، تتقمص محنة شعب يحكي للعالم قصته ، يروي أساه ، فالقصة — الرواية فعل يمنحه اسماً ، فهو وجود

هكذا استحالت فلسطين من أرض متنازع عليها ، من وحدة ادارية، الى جماعة ، وجودها في التاريخ لم ولن يعاد النظر فيه .

العقل النظري والعقل الشعري :

ليس الانسان نفعياً للدرجة التي تتصورها حكمة من أصل عامي قننها ورتبها الاقتصاديون — الفلاسفة في القرن الثامن عشر . فحساب المصالح واللذات — وهو ليس من الأمور النادرة — نتيجة لظروف وملابسات تاريخية ، شأنه شأن النفعية التي هي فلسفة مجتمع الرفاه ، اقله في بدايات هذا المجتمع ، على ما يبدو . تلك مفارقة ولكنها أمر واقع .

ان الانسان كما يتبدى في المحن الكبرى على العكس من ذلك تماماً أي انه مجانية خالصة . ولكن المجانية ذات اتجاهين متداخلين : في سبيل الاحسن وفي سبيل الأسوأ ، من اجل الانسان الذي هو عطاء الذات ، ومن اجل اللاانساني . ومن الصعب ان نميز في وجودنا المباشر ، احد هذين الخطين عن الآخر .

فالبعد الاخلاقي للوجود ، يجب علينا ان نفتش عنه في الخط الفاصل بين الاتجاهين المذكورين . وهذا الخط المتصور ، العقلي اكثر مما هو من الواقع المباشر ، هو الذي يميز العصور بعضها عن البعض الآخر كما انه يميز بين المعايير والغائيات .

وكذلك أيضاً أساس « الانسانية » .

والحال ان الاخلاق هي ، في أيامنا ، الفلسفة الاكثر اشكالاً ، « والانسانية » المفهوم الاخلاقي الخاضع للنقد والتجريح اكثر من أي مفهوم اخلاقي آخر .

فلنحاول ان نقف قليلا عند المفهوم الاخير لأنه يعنينا مباشرة في موضوع تأملاتنا .

قيل وبرهن — ويمكن دوماً ان يقال ويبرهن — عن « الانسانية » التي انبثقت عن عصر النهضة الغربية وعن تنويعاتها المستحدثة انها من اصل بورجوازي ؛ وانه متى صفيت هذه الطبقة او اقله متى ازيحت ايديولوجيتها ، فسيتبدى التاريخ على حقيقته ، تلك التي كان وسيكون عليها ، اي انه « فعل خلو من الذات » او « حركة تحول بدون

فاعل شخصي ... » هذا ما يؤكده لويس التوسر ، وهو بين الفلاسفة المعاصرين الذين يدافعون عن « اللا- انسانية » اكثرهم تماسكاً ، وأقواهم حجة(١٠) .

القضية من حيث العلمية الصارمة لاغبار عليها . ولكنها ، اذا اخذت بكل أبعادها ، خطيرة من حيث النتائج التي تترتب عليها .

أقول « صحيحة » و « لاغبارعليها » من وجهة نظر العلم الكلي بمعنى انه لايمكن للانسان أن يكون في هذا المنظور سوى مجموعة الملابسات المشروط وجوده بها ، أو نقطة تقاطع لعدة علائق ، أو مجال لقاء لشبكة البنى التي يتألف منها(١١) .

أقول أيضاً « خطيرة من حيث نتائجها » لاكثر من سبب : أولاً ، لان ما تضعه موضع تساؤل أو تشكيك ليس خطأ سلوكياً أو فكرياً ، بل هو الانسان : موقعه في التاريخ ، قيامه نظاماً خاصاً في الوجود أو من حيث انه قيمة . ومن ثم فان«الانسانية» في مرماها الأول الحاضر دوماً، عندما صيغ المفهوم لأول مرة من قبل الاغريق الهلنستيين، كانت تدل على الأنسنة أو انشاء الانسان انساناً . اذ ذاك كانت الكلمة مرادفة لكلمة تربية بمعناها الاغريقي(١٢) .

وأخيراً ففي الوقت الذي تعلن فيه الثورة العالمية على الاستبداد والاستغلال ألا تخون هذه الثورة عندما تتنكر للانسنة التي هي هدفها . ان الثورة ، شأنها شأن كل ظاهرة انسانية ، حدث فريد ، لايتكرر ولا عودة عليه ، ولا يمكن بالتالي رده الى فعل مغفل بدون ذات . ان فلسفة التاريخ ، وبقية الشروح التي تشبهها هي أداة الممارسة اكثر مما هي وسيلة تفسير .

---

(١٠) لويس التوسر ، علاقة ماركس بهجل ، في كتاب (هجل والفكر الحديث) باريس المطبوعات الجامعية الفرنسية صفحة ١٠٩ وما يلي . راجع بشأن اللا-انسانية كتاب المؤلف المذكور « في سبيل ماركس » منشورات مسبيرو ، باريس صفحة ٢٢٥ ومايلي .

(١١) هذه القضية الاخيرة هي التي دافع عنها ليفي ستروس في كافة كتبه .

(١٢) راجع هنري مارو ، « تاريخ التربية في العصور القديمة » نشر سوي في باريس صفحة ٢٩٧ وما يلي .

من البديهي ان الدافع الى وضع فلسفات « لا-انسانية » ليس شح القلب . وانما الامر على العكس تماماً . فـ « النظر » بالمعنى الذي يعطيه لويس التوسر للكلمة (وهي من مفاتيح فكره) هو مزيد من المعقولية والتعقيل .وقد يكون الدواء الوحيد للعلمية الناجزة التي اصبحت الموجه للفكر الحديث .

ان من حق مثقف يعيش في مجتمع الاستهلاك ومن واجبه ان يعطي لنفسه حق ممارسة هذا الترف الفكري . وقد قال احد شعراء الغرب في القرن الثامن عشر :

الفائض امر ضروري ...

اقول بشكل آخر ، ان العقل النظري الخالص - وهو الشبيه لحد بعيد بالعازف البارع - كان ولا يزال يعيد النظر في المقولات والمفاهيم التي أنشأ (الحقيقة والكلية ، الواقعي والفكري ، الموضوعي والذاتي ...) يقلبها بمختلف أوجهها ويعالجها كي يسبر قيمتها التحليلية والاجرائية ، وهذا شرعي بنسبة ما ان يستجيب لصعوبة حقاً واقعة .

ولكن سخاء القلب ، فعلاً وعملاً ، علينا ان نتقصاه في الحركات الثورية . ان هذه الحركات تراكم القمح والزؤان . ولكنها ، على مايبدو ، الرد الوحيد ، رد الشعوب والطبقات الشعبية على حكم التقنية (تكنو - قراطية) الذي يعم العالم اليوم .

وبقول آخر فان البحث عن الانسان والانساني يمر اليوم بطريق الثورة .

أقول معقباً على ماتقدم :

ثمة اوضاع حدية تضطر العقل النظري الى تعليق سلطته كحكم في الشؤون الانسانية كي يفسح المجال لعقل آخر ، لا اجد له سوى اسم « العقل الشعري » ،

(وهو شبيه لحد ما بالعقل الذي اطلق عليه ارسطو هذا الاسم بمعنى قوة الابداع نظراً) .

لا لأن هذا الأخير مزود بوسائل أنجع من وسائل الأول . فالعكس هو الصحيح . إذ إن التأليف الوحيد الذي يجيده العقل الشعري ـ عنيت : الكلام ـ هو أسرع الامور الانسانية عطباً .

ومع ذلك أكثرها ترسخاً .

ذلكم هو الانساني («قصبة مفكرة» على حد تعبير باسكال) ، في نقطة انطلاقه تحاصره طبيعة مفترسة . وها هو اليوم يبدلها بأخرى اصطنعها لتنوب مناب الاولى فتنقلب عليه .

ذلكم هو الكلام ، ينبثق عن الانسان عندما يتعرى . هو خلاق ، فعال يثير الدهشة التي رد اليها أفلاطون الفلسفة ، لانه بدوره ، يردنا الى ماهو أبعد حرمى ، يردنا الى بزوغ الانسان الناطق أصلاً، حاضراً فينا باستمرار، عندمايسمي الانسان الاشياء ويضعها في الوجود فهي توجد .

ينبعث الابداع من الاسى العظيم . هو هذا الاسى ، يقوله الانسان ، فهو في فرحة الوجود .

رهان

الأسى ، شأنه شأن كل مايرتبط بالحساسية ، علامة مميزة ، يدل على ان المرء تخطى مرحلة الجمود والتبلد ليدرك مرحلة الانقاذ في استعادة ذاته ، أي انسانيته .

ثمة طريق قد شقت ، بدأ معها تاريخ جديد .

والحركة المعاكسة ليست أقل دلالة من الأولى . انها عودة اللا-انساني الكامن في قلب الانسان يتربص ، عودة راهنة اليوم اكثر مما كانت عليه في السابق بسبب وسائل التدمير التي تزداد ارهافاً .

فعندما يصرخ سياسي من مستوى عال قائلاً : « الفلسطينيون ، هو شيء غير موجود » ، يطالب ؛ وما يطلبه ليس إلا حذف الآخر نهائياً، مطلب بائس ، طالما أن هذا « الآخر » هو وحده المخول للحوار اذا كان بعد من مجال للحوار .

أهو ممكن مايطلب؟السؤال غير مطروح ، حولوه الى مصادرة،واستخلصوا عملا ، مايترتب على المصادرة من نتائج .

والنتائج هذه تختلف عن الضياع اختلاف الطبيعة عن الدرجة على حد تعبير برغسن .

ان الضياع ديالكتيكي ، وبوصفه كذلك يحتفظ بالطرف الآخر ، يمنحه نظاماً اجتماعياً كي يجعل منه وسيلة (موجود – من – اجل – غيره) . اما في الوضع الذي نحن بصدده ، فالانسان قد حرم من كل ارتباط بالانسانية . والفا سنة من التاريخ اعتبرت و كأنها لم تكن .

انه وضع لاتنطبق عليه كلمة سارتر المعروفة « الانسان زائداً » . فهذه الكلمة الى جانب كونها تعبر عن موقف فيلسوف واهم سقط وهمه ، تشير في الحقيقة الى انسان اصبح عبثاً على غيره .

ولا ينطبق عليه قول هيدجر من ان الموت هو الامكان الاقصى ، الذي يجمع واقع الانسان وامكاناته ليجعل منها كلا [١٣] ، اذ ان مايوضع موضع البحث هنا ليس الانسان في وجوده الطبيعي وغير الطبيعي ، بل ما اسميه بكلمة لا اجد غيرها ، « روح الشخص والجماعة» ، او بكلمة اخرى هي ايضاً غير ملائمة «الجوهر الانساني » اي ماهو انساني في الانسان ، هذا الذي ليس بوسع المرء ان يتخلى عنه لانه ليس ملكه .

---

(١٣) هيدجر « الزمان والوجود » الفقرات ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ .

التصفية الجسدية هي نهاية المطاف . ذلك امر لاشك فيه عندهم . ولكن قولهم « الفلسطينيون شيء غير موجود » يلزم عنه زج هؤلاء في الظلمات البرانية . ومعناه ان الموت بالنسبة للحركة التي تزيح الفلسطينيين من الوجود، وسيلة لاغاية .

فمذابح دير ياسين (٩ نيسان ١٩٤٨) وكفر قاسم (٢٩ تشرين الاول ١٩٥٦) وقد اقتصرنا عليها لانها معروفتان – تنافسان في الضراوة ، منذ ربع قرن ونيف ، التهديم المنظم للقرى وتشريد السكان (زجهم في الظلمات البرانية) والسادية المرهفة في التعذيب وتعليقات الصحف على الاحداث ، يزيد في مرارتها لهجتها المتغطرسة اللامبالية .

والفضيحة الاكبر هي الانسان يحرم ، لامن وسائل بقائه المادية وحسب ، بل من ذاكرته كيا يستحيل سديما . فهو ، بانتظار خاتمة المطاف (اي الموت) موضوع لعبة اقل مايقال فيها انها شيطانية .

اهذا صنيع انا آخر ؟ كلا ! بل صنيع آلة اذا ماحركت اندفعت ، ولن تقف حركتها الا عندما يعيد اليها امكان التعبير .

ذلكم هو رهان الشعر الفلسطيني : التقاط الآخر ، ضبطه بالجرم المشهود ، فهو حاضر في الآلة ، حاضر في الفعل الذي يتكرر في الانتاق . ضبطه وارغامه على التعرف الى الانسان الآخر . وذلك بالتأكيد على وجود – الانسان – في – الموت ، على مواجهة الموت ، طالما ان بوسعه ان يقوله .

انه رهان كل قول ، يتقمص البيولوجي ليعيد اليه الروح .

★ ★ ★

ان الخط الفاصل بين الروح والجسد والضامن لحدتها لايلتقط ولا يعبر عنه . ولكن ربما انه يتبدى ، وبالمقدار الذي يتبدى فيه ، عند اللحظة التي تتمم خلالها الرغبة حاجاتها ، تتمة هي فعل مستمر ، لا كلام .

أقول بتعبير قد يكون أكثر دقة : ان الجسم الذي هو مجموعة آليات يستحيل باستمرار جسداً ، والجسد طاقة نزوعة ، غاية نزعتها ما اصطلح على تسميته روحاً . فهذه تنشىء الكل الانساني وتمنحه قوامه ، وفي الوقت ذاته تعبر عن مرماه الاقصى : الاستمرار في الوجود باعادة فعل الوجود .

والحركة المعاكسة – ارتداد الروح الى الجسد وهذا الى الجسم – الملازمة للاولى والتي لاتقل عنها الحاحاً تضعنا تجاه بداهة معروفة ومجهولة ، نعرفها ونتجاهلها ، ألا وهي أن الانسان موجود علينا أن نبدعه باستمرار . فالجسد اذا ترك للجسدية شحيح . والروح الخالص ملائكية وصفها باسكال في كلمته المعروفة عندما قال : « ان الذي يجعل من ذاته ملاكا، يحيلها بهيمة » . فالروح علينا أن نجسدها والجسد علينا أن نحيله روحاً . وتلك مهمة لاتنتهي .

فلنقف قليلاً عند هذه الحركة الاخيرة لانها ، بوصفها الطابع المميز للفكر والسلوك الحديثين ، تلقي ضوءاً جديداً على تأملاتنا . يمكن القول ان الجسم – آليات وجسدا – هو واحد من اكتشافات الحداثة الاساسية ، التي سيرته في ثناياه ، وفي تحققاته الاجتماعية والاقتصادية من البنى الاولى (التحتية) كما في الأرض حيث تترسخ جذوره ، الارض التي يرتبط بها وينفصل عنها في الوقت ذاته ، فهي امتداده ، وهي أيضاً ، اذا وسعنا الافق ، جسدية الوجود .

ان علم النفس التحليلي – وهو واحد من تقنيات الحداثة – لهو الى جانب الاسهامات الأخرى في كافة المجالات ، ذو مغزى عميق من هذا القبيل . ذلك ان هذا العلم هو الانسان منظوراً اليه من الجسد ، اي من كونه طاقة راغبة او شهوية اطلق عليها الاغريق اسم عشق (ايروس : اله الحب) . والطاقة هذه تتبدى في عملياتها الأساسية وفي الأسماء التي اطلقت على هذه العمليات : توظيف الطاقة ، فك التوظيف ، فائض الطاقة ، مناهضته ، كلها تدل على ظهور الوجود وتلاشيه . مما يجعل الانسان موجوداً ـ من ـ اجل ـ الموت ، على حد تعبير هيدجر الذي اخذه عنه سارتر . او انه موجود يعيش شهوته ويتلاشى معها ، عدما والى العدم ، كما في النرفانا البوذية[١٤] .

---

(١٤) هيدجر ، المرجع المذكور . راجع بشأن سارتر « الوجود والعدم » ترجمة عبد الرحمن بدوي من منشورات دار الآداب بيروت . ان اوبرا فاجنر « تريستان وايزولده » هي ابلغ تعبير عن هذا الموقف .

ويوسع الادب في شتى انواعه (المسرح ، الشعر ، الرواية ...) الرؤيا الفرويدية بحيث تشمل في ايامنا الفلسفة . فتصبح هذه الرؤية واحدة من التعبيرات الكبرى عن الحداثة . هذا الادب هو قراءة لدلالات الشهوة تجهل قراءة اخرى، تقول شيئاً آخر ، تقول سخاء الحياة ، اسموه في الأزمنة كافة : محبة .

ثمة اسهام آخر مصدره تقنية اخرى. هذه ، وان كانت مبعثاً للعديد من الكوارث، فقد استدعت في زماننا التفجرات الكبرى ، أكبر تفجرات التاريخ ، ألا وهي الاستعمار وفك الاستعمار، استثار بدوره الحركة المعاكسة أي الثورة ومناهضة الثورة .تفجرات كشفت عن العالم الثالث ، هذا الجسم الكبير الجائع ، المهشم منذ عشرات القرون والذي يبحث اليوم عن ذاته .

ان هذا البحث هو ثورته .

وهذه الثورة ، غير — تقنية بمعنى انها اندلعت من قلب الانسان ، فتقنيتها السالبة، وبوسعها يوماً — عندما تهدم قواعد الامبريالية وتقهر غطرستها — أن تكشف عن رصيد الانسان الانساني في العالم الثالث .

كما بوسع هذا العالم على الارجح ، ان يضفي شيئاً من النضارة على عالم افقده صنيعه الحساسية للانساني .

ان لكل زمان تقنيته ، فالقانون الذي مورس بحرفية مفرطة لدى الشعوب القديمة، لايقل احكاماً عن الآلة الحديثة . والدرس الكبير الذي تعلمنا اياه التقنية هو ان علينا أن ننقذ الجسد كي يكون ثمة روح . ولكن يتوجب ، من جهة اخرى ، على الساحر المتمرن أن يتمرس في السيطرة على صنائعه كي يتمكن من وضعها في مكانها ، فهي وسائل لا غايات .

ان فلسطين ، وان كانت واقعة صغرى بالقياس الى التحولات الكبرى في النصف الثاني من القرن العشرين، فهي على رأسها وفي طليعتها، تعبر على طريقتها ومن منطلقها ، عن الرهان الأكبر :

انقاذ الانسان .

---

(١٥) راجع على سبيل المثال « مناهضة أوديب لدلوز وغاتاري طبع مينوي في باريس .

تدشين مدينة الانسان

..... رهان وفضيحة

فضيحة انسانية الانسان في العالم الثالث .

نتجاوز الكلمة وغيرها من النوع المماثل ، كقولهم « العالم المتخلف » و « العالم النامي » ... التي تجمع تحت عنوان واحد ، كما في سلة واحدة ، شعوباً وتواريخ ، لكل منها فرديتها . وهي متنوعة بتنوع عندها . ومع ذلك تدبّر شؤونها دفعة واحدة كأنها واحد ، باسم العلم يضع النماذج وهي في الواقع « وصفات » لو وضعت في مكانها ، لكانت لها فوائد كثيرة .

ان الواقع الذي يتبدى عبر الكتب العلمية عن العالم الثالث ، مخيف . واني اتجاوزه لأتساءل : كيف يمكن ان يوجد ثمة انسان بعد هذا البؤس ؟ أو يستشعر الذي يعيش في مجتمع الاستهلاك شيئاً من ذلك ؟

ولكن فلسطين التي تتجمع فيها مأساوية العالم الثالث تطرح سؤالاً اكثر جذرية : كيف يمكن لجسد سحق ان ينبض كما من قبل ؟ كيف يمكن ان يصبح موجوداً انسانياً ؟ موجوداً يحب ؟ اعني يرغب ويكون موضع رغبة ؟

ان « تذبيح الابرياء » لم يقع مرة واحدة على أرض فلسطين المثلثة التقديس ، و كذلك تلك الكلمة التي نقشت على ملتقى خشبتين متصالبتين « ذلكم هو الانسان » .

أمام هذا تراح دلالات الشهوة ، وقراءاتها وكافة الشروح والتفسيرات المائلة ليحل محلها اختيار من نوع آخر : اما اللامبالاة عندما يعيد المرء حركة بيلاطس البنطي ، واما الشفقة ، لا أقصد بها موقفاً ابويا ما ، وانما ما قصده ميشليه

عندما كتب عن جان دارك : « كانت الشفقة كبيرة في قلبها الى حد انها لم تشفق على ذاتها »[١٦] .

ذلكم هو الشعر الفلسطيني: ألقه الشفقة . الورع ألقه ايضاً . أجل الورع أعلى درجات المحبة عندما تعطي ذاتك ـ روحـــاً وجسداً ـ للذي تحب ، فاذا بالحياة تعود إليه كما في السابق . شفقة ـ ورع تمتد فتحضن البشر أجمع ، ومنهم الاسرائيليون الذين يتحولون اذ ذاك من جلادين الى بشر .

والايديولوجيات تفقد ، هنا ، قيمتها الاجرائية كما يلاحظ محمود درويش عندما يقول إنه أزاح ايديولوجيته كي ينتصر على الموت[١٧] .

ربما أنه لم يكن مقدراً لاغلبية هؤلاء القوم ان يتخذوا من الشعر خطا لهم في الوجود ، وعلى اية حال فان ظروف حياتهم لا تمكنهم من ذلك . ولقد أخذ عليهم انهم ليسوا محدثين بما فيه الكفاية (١٨) . اضف انهم ، بمثابة النسيب الفقير اذا ماقيس نتاجهم باللوحات الملحمية التي خلفها لنا شعرنا الكلاسيكي ، وفوق هذا وذاك ، احراجات الادب العربي المعاصر ، سواء المحدث منه او المقلد . فهو يواجه مشكلة اللسان ، حيث كل الامور تجري كما لو اننا نضع الخمرة الجديدة في الدن العتيق ؛ مما يرغم الجميع على اقحام التواءات في لسان مايزال قاهراً ، وكأنه من الازل الى الابد ، التواءات فرضتها تجربة لم يعرفها اجدادنا وعلينا ان نتلاءم معها .

وبالنتيجة ، عندما يفقد الانسان كل شيء ، فان آخر أمر يفكر فيه هو متعة الكتابة .

ولكن هذا ما جعل الشعراء الفلسطينيين يكتشفون ، بمعنى ما مرغمين ، ماهية

---

(١٦) جول ميشليه « جان دارك » طبعة اعدها اميل بورجوا ونشرتها هاشيت في باريس ص ٩ .

(١٧) شيء عن الوطن . نشر دار العودة بيروت ، صفحة ٢٥٩ .

(١٨) ادونيس « زمن الشعر » نشر دار العودة بيروت .

الشعر ، ألا وهي أن هذا ليس وظيفة من جملة وظائف اخرى ، وليس خطأ — فخطهم الاستشهاد وانما هو فن تأليف مدينة الانسان ، أو انه الفعل الذي به تبدع الحياة ذاتها اذ تعبر عنها وتمنحها مجاذاً .

وحده هذا الفعل اساسي . مايلي تابع له .

ان الشعر هو الممارسة الأكثر نزاهة . وعندما تحين ساعته يستحوذ على الانسان – كل الانسان – ويجعل منه خادماً لقضية .. قضية وحدها لها المعقولية كافة .

ومن الواضح ان الذي يستثير القصيدة قد يكون مصادفة مـا ، او احساساً او انطباعاً شخصياً .. قل ماشئت من الامور الجـائزة . ولكن في القصيدة فائضاً يطرح سؤالاً هو فيما ارى بمنتهى الاهمية: ما الذي يحدث للواقع عندما يقال؟ أهو تغيير لصورته (بمعنى لنظامه) على حد التعبير الموروث ؟

نعم . ولكن الجواب ليس كافياً ، اذ ان هنـاك شيئاً آخر . فالقول لا يعيـد الواقع ، ولا يدخل عليه اضافات جديدة ، بل يعيد انتاجه او يصعده ، يبدل قوامه ومقوماته يدخل عليه الدلالة . وبذلك ينشئ واقعاً جديداً ليس غـير السابق ولا اياه: انه تجليه قولاً ، اي فسحة فيها يتحقق مصير ، او يصبح ممكن التحقيق .

فالمرأة في الشعر الفلسطيني هي المحبوبة ، وهي أيضاً أرض وتاريخ ، ذاكرة وذكر هي ماتحيي ذكراه ، وتحيي فيه جماعة انسانية تدشن تاريخاً جديداً .

ولهذا فاللسان الشعري رمزي طولاً وعرضاً ، حتى عندما يظن أنه متقيد بالواقعية الأكثر واقعية . والرمز ، كما يلاحظ بول ريكور مراراً وتكراراً ، مزدوج الاتجاه ، مزدوج القصد يوجه النظر نحو الشيء ، ونحو شيء آخر (١٩) . أو قل أنه من جهة ينفصل عن الشيء يرميه خارجاً ، ومن جهة أخرى يستعيده في كلية لاتنفصم عراها هي الوحدة « انسان — عالم » وبهذا يعلن عن آت أتى ويأتي .

ولهذا فالزمنية هي المجال الذي تتجلى فيه بأوضح شكل ، ازدواجية الاتجـاه في

(١٩) بول ريكور « تعارض التفسيرات » الطبعة المذكورة صفحة ٢٨٦ وما يلي . راجع أيضاً للمؤلف ذاته « رمزية الشر » ، المجلد الثاني من كتاب «التناهي والاثمية» او بيه صفحة ٣٢٣ وما يليه .

الرمز . ازدواجية ليست خطية (من خط واحد) لأنها تحيل الى ابعاد الزمان الثلاثة التي ليست مكانية ، وان كنا نتصورها كذلك .

هذا الجانب من الشعر الفلسطيني الجدير بالملاحظة ، والذي لم يحظ حتى الآن بأي اهتمام هو الذي سأقف عنده قليلاً .

ان في الشعر الفلسطيني زمرتين كبيرتين من الرموز : الاولى من مصـــدر ريفي مستمدة من المزروعات والأشياء الزراعية (الكرمة ، البيارة ، الزيتون ...) ونمط الحياة في البيئة الزراعية (الاسرة بخاصة وتقاليدها) . الثانية أقول عنها انها رؤوية لأنها مستمدة من الاسفار أو الكتابات التي تحمل هذا الطابع في الكتب المقدسة ، كالقرآن الكريم (يوم الدين مثلا) أو التوراة والانجيل (الموت ، البعث ،) . وقد تكون من أصل قومي يشير الى الوضع الراهن (المقاومة ، الثورة ، الحرب) أو قد تكون ذات رجع قومي ، كالانذار بكوارث جسيمة (٢٠) .

هذه الرموز ، في اتجاهيها تلخص تاريخ فلسطين ، بل تاريخ العرب المعاصر الذي يتركز أكثر فاكثر حول أرض فلسطين : فمن جهة ماض ترفضه لان الزمن تجاوزه فهو قديم ، ومع ذلك هو حي اليوم كما بالأمس ؛ ومن جهة اخرى مستقبل هو رحلة في المجهول بانتظار البعث .

ألخص هذا التاريخ بشكل آخر : فلاح اقيمت دعائم حياته على أرض ، ورسخت فيها منذ قرون . وها هي جذوره تقتلع منها بين عشية وضحاها ، وزج في مغامرة هي تحقيق آني (في زمان ومكان معينين تماماً) لما جاء في أسفار الرؤى والكتابات الرؤوية .

هي هجرة يرويها كل شاعر على طريقته . فالشعر تارة غنائي وطوراً ملحمي ، تارة حوار كما في المسرح وطوراً أبيات قصيرة ، سريعة ، لاهثة ، لاتنتسب الى أي نوع أدبي . اختلفت التعبيرات والامر واحد : أن يسرد الشاعر قصته ، رحلة شعب ، كتبت بالدمع والدم في تاريخ البشر ، كما في القلوب وعلى الارض .

---

(٢٠) هذه الرؤوية نجدها في بعض قصائد محمود درويش . ولكنها تتجلى أكثر ماتتجلى لدى سميح القاسم في ديواني (ارم) المؤلفات الكاملة نشر دار العودة صفحة ٢٩٩ وما يليه و « مراثي سميح القاسم » نشر دار الآداب في بيروت ، حيث يستلهم الشاعر مراثي ارميا التوراتية دون أن يقلدها .

ونحن العرب الذي سمعنا القصيد ، تعرفنا فيه الى مصيرنا في عصر الامبريالية والتقنية الناجزة . عرفناه واكتشفنا فيه شيئاً جديداً ، جديداً بجدة مطلقة ، شيء كان فينا منذ بداية نهضتنا وقد اتضح مع حرب حزيران ١٩٦٧ . وهذا كان الاقبال على الشعر الفلسطيني (بخاصة شعر الارض المحتلة) صاعقاً ؛ أجل كان وما زال .

ذلك أن الفارس العربي ، أقله وريثه ، المولع بالمغامرات والذي تأبى عليه عنجهيته أن يلين لأي سلطان ، هذا الفارس مني بفشل لم يعرف له مثيلاً طوال تاريخه الطويل . واستخلص من فشله درساً يتعلمه الآن ولن ينساه ، وهو أن التكنولوجيا غير التقنية – هذه وسيلة أما تلك فمعقولية (لوغس) غير المعقولية الاغريقية والسامية وبالتالي هي رؤيا جديدة للعالم (الحداثة) وحساسية (نمط تحسس الموجودات والاستجابة لها) غير السابقة ، وايقاع مستجد للوجود (شعرية) ، وبالجملة موقف (نمط الوقوف) من الكائنات فالتعامل معها وفهمها . فنحن وبتعبير أكثر كلاسيكية ، تجاه حكمة علينا اليوم أن نفهمها ولنبدعها (والاثنان واحد) .

ان حرب تشرين ١٩٧٣ لم تكن ما ظنه البعض ، من انها حرب ثأر العرب لأنفسهم فان هذا الا وجهها الثانوي .

فبالنسبة للشعب الذي يبحث دوماً عن السلام ، ليست الحرب وما شاكلها (المقاومة والثورة) سوى وسائل ارغم عليها . انما المرمى هو وطن الانسان ، يتحقق بالتفاهم المتبادل . وفي اعتقاد العرب أن بوسعهم الاسهام في هذه المهمة ، أمل المستقبل الذي تدشنه البشرية اليوم ، على ما يبدو ، أو أقله اخذت تسلك الطريق اليه .

وطن ألفه الكلام

قيل عن الشعر الفلسطيني انه « شعر المعركة » بمعنى الكفاح المسلح (٢١) .

لو كان علي أن أستبدل كلمة بكلمة لفضلت « المقاومة » على « الكفاح المسلح » ، اذ أن ما نسمعه طوال النشيد الفلسطيني ليس دعوة الى حمل السلاح ، بل تحريض على

---

(٢١) عبد اللطيف اللعبي « شعر المعركة الفلسطيني » مختارات مع مقدمة طويلة ، نشر دار اطلنطه في الدار البيضاء ، وازولد في باريس عام ١٩٧٠ . الكتاب كله بالفرنسية .

بقاء العربي في مكانه مهما كلف الثمن . أنا هنا « اشربوا البحر » . هذا ماردده توفيق زياد بمناسبة وبلا مناسبة .

الفارق بين « معركة » و « كفاح مسلح » في تووينة . ولكن هذه ذات اهمية . ومع ذلك فقراءة العيي ليست مغلوطة . وانما هي جزئية ، شأنها شأن كل قراءة ايديولوجية .

ان القارىء لواجد في الشعر الفلسطيني (بخاصة شعر الشتات) نصوصاً ذات طابع نضالي ، واخرى أقل من الاولى بكثير ذات طابع انتقامي .

هل هذا هو الهام ؟

كلا !

قد يقال : وماذا عن المعارك الدامية التي ما برحت مستمرة منذ ربع قرن ونيف والتي تشتد اكثر فاكثر ، بحيث انها أصبحت تشمل كل قطاعات الحياة ، الخاص منها والعام ، والتي بلغت ذروتها مع استعمال الاسلحة الحديثة (حرب ٦ تشرين الاول) الى درجة انها وضعت العالم برمته على حافة الهاوية ؟

ان الحرب تطرح ، فيما يتعلق بموضوعنا ، أخطر سؤال . اذ انها توقف الحوار . وعندما يقبل الطرفان الهدنة تبدأ التسويات السياسية ، فالكلام في درجة الصفر .

ان الحرب تترك ، في أحسن الحالات ، حيزاً ضيقاً تتحرك ضمنه الايديولوجيات . وهذه بديل لاينوب مناب الاصيل ، فكأن الكلام لم يكن .

على ارض فلسطين ثورة لاحرب . واذا كان ثمة حرب فلأن الاستعمار الاستيطاني وما يلزم عنه من توسع قد ادخلا الوضع بالنسبة للجميع في مأزق لايمكن الخروج منه إلا بتفجيره . اما الثورة ، وهي الاصل ، فقد قامت لإعادة الأمور الى نصابها . فالفرق بين الاثنين بالطبيعة : الحرب هدامة ، والثورة بناءة .

ان الثورة فعل شعب يؤكد به ، لاحقه بأرضه وتاريخه وحسب (وهو حق لايزول بمرور الزمن ، ولا يمكن حق للفلسطيني ان يتنازل عنه) بل أيضاً ، وخاصة وجوده وحقه بالحياة الحرة ، شأنه شأن بقية الشعوب . والحال أنه اذا كانت الثورة في نقطة انطلاقها سعياً الى العدالة ، فهي في ماهيتها ، (وان كان في ذلك مافيه من مفارقة لأول وهلة) فعل ، مؤلفه (بمعنى يؤلف بين أبعاده) الكلام . والمحبة أيضاً ، إأي

التجاوب والتبادل ، وفي أقصى الحدود ، التعاطف حتى الانصهار ؟ والمحبة بعد عنيفة كالبغضاء ولكن من ذا الذي بوسعه التمييز بين هذين النوعين من العنف .

وفي كل الاحوال ، تقاس الثورة بمراميها ، كما جاء في الكلام العربي « المرء حيث يضع نفسه » . هي المقاومة والكفاح والمعارك وتنظيم الفرق المسلحة ، وعند الضرورة القصوى اعلان الحرب.. ولكن في سبيل أي غرض ؟ وبصورة خاصة ماهو دور الكلمة في هذه الشؤون ؟

ان مما يسترعي الانتباه في النصوص الفلسطينية هو ان الخصم لايسمى ، لاتعين هويته . فالكلمات التي تحيل اليه ، وهي نادراً ماترد – كالاستعمار والامبريالية والصهيونية – تشير الى افاعيل حركة ، الى ظاهرة تاريخية ، الى ايديولوجيا ، الى واقع غير سوي ، لا الى جماعة انسانية . وعلى العكس فان الطرف المقابل – بالاحرى القطب الايجابي – الذي تغلفه الحشمة فلا يسمى أحيانا ، موصوف باكثر الكلمات حناناً ، كالاخت والمحبوبة والام . انه شخص انساني ، وكهذا ، يتنفس ويحيا ويشعر .. انه وحده جدير بالمحبة .

ذلك ان العرب ، في أعماقهم ، يشعرون انهم يواجهون مغفلاً ، وفي الحد الأقصى مجهولاً ، اكثر مما يواجهون كائنات بشرية ، وربما ان الاسرائيليين قد اندرجوا في تلافيف هذه الآلة التي لاهوية لها . ولكن هذا الخصم قوة ماحقة للشخصية .

أما فلسطين فانها كائن حي من لحم ودم ، كائن موجود ، مترسخ في الوجود ،ولكن يفعل في صورة الغياب . ففي قصيدة محمود درويش « الحبيبة تنهض من نومها » نتعرف الى الحبيبة باشيائها (المرآة ، الورود ..) وبخاصة في لغتها ، لغة صافية تائهة .. وهي ، كما يختم الشاعر قصيدته ، من أجل أولادنا .

وهذا مايذكرني بكلمة باسكال : « لولم تجدني لما فتشت عني » .

اليست هذه مفارقة الامة العربية ، بالنسبة لكل عربي في اعماق شعوره ، مفارقة كل ايمان الذي هو يقين وقلق ؟ واذا كان العرب قد رأوا في فلسطين الرمز المتجسد لوجودهم اقليس لهذا السبب ؟ ان كل مافي العربي – سلوكه وقوله – يحملنا على الاعتقاد بهذا .

ولهذا ، أياً كانت حداثة الأدب العربي ، فهو على العكس من الأدب الطليعي –

أدب فيليب سولرز مثلاً(٢٢) — يحتفظ بالذات ، تارة ليجعل منها موجوداً قائماً بذاته وطوراً لينتقدها ويرفضها ، وفي الحالين هو يستبقيها(٢٣) .

هذه الذات ، وهي العربي نفسه فرداً وجماعة ، تقرر وتؤكد ، تنفي وتنقد . ويعيدون الكرة . أو يمكن ان يكون الأمر غير ذلك ؟ كلا ، لأن هذه الذات موضوع بحث فهي اشكالية . لماذا ؟ أبسبب انعدام بنية أولى (تحتية) اجتماعية — اقتصادية ملائمة تضم شمل العرب ؟ السؤال جدير بالاهتمام . أما بالنسبة للفلسطيني ، فالجواب واضح . اذ ان الأمور تجري كما في بعض الاساطير القديمة حيث النفس تبحث عن جسدها كي تتجسد وتصبح واقعاً .

ان للفلسطينيين من البنى بمقدار ما هنالك من تجمعات تشكلت صدفة ، تبعاً لتقلبات الهجرة والنمو السكاني . وحيث توجد بنى قائمة فهي غير مستقرة . وهذا ما يجعل من وضع الايديولوجيات مهمة شاقة . اما الايديولوجيات القائمة فهي تتأرجح دوماً بين الحدود القصوى .

وما الذي يبقى عندما يفقد المرء كل هذه الأمور ؟ يبقى الاساسي ، أي اللسان بوصفه « الانساني بالذات » .

★ ★ ★

يرى الاخصائيون في الموضوع أن اللغة مجموعة علامات أو رموز اصطلاحية تبلورت في بنى فهي منظومة احالات . وهذا من حقهم بوصفهم علماء . أما الذين يشتركون جسماً وروحاً ، في اعادة انشاء جماعة تكون ذاتها اذ تقولها ، فشأنهم شأن آخر .

لنلاحظ بهذه المناسبة أن العربي ، على العكس من الاجنبي يميز ، بتمييز قاطع أو يكاد ، بين اللغة واللسان . فاللسان هو أداة الحوار أو تبادل الدلالة ، والدلالة هي التي ، إذ

(٢٢) راجع على سبيل المثال رواية فيليب سولرز الاخيرة بعنوان H في منشورات سوي باريس .

(٢٣) راجع على سبيل المثال ادونيس وهو الشاعر العربي الأكثر حداثة في ديوانه « المسرح والمرايا » بخاصة ، المنشور في مؤلفاته الشعرية الكاملة لدى دار العودة ص ٣٦٧ وما يلي .

دفع بها أفلاطون الى حدها الأقصى ، جعل منها واقعاً فكرياً قائماً بذاته في الوجـــود ، وعناها بكلمة لم يوفق المترجمون عندنا عندما أدوها بـ (مقال) . أما اللغة — من اللغو — على حد تعبير زكي الارسوزي (٢٣) فكأنها تشير الى انعدام البيان وتردي اللسان بحيث تختلط الدلالة ويجنح الكلام نحو السديم .

ان القرآن الكريم ، وهو الناظم للكلام العربي حتى بالنسبة للمحدثين ، لايستعمل اطلاقاً كلمة لغة . وعلى العكس فكلمة لسان تشير فيه الى الكلام عندما يدرك التعبيرية ، وكماله هو البيان .

ذلك أن اللغة (بالمعنى الواسع للكلمة) ليست أداة ولا وظيفة لدى العربي ، بل هي طبيعته — جسده — جسد جسده ان صح التعبير . فالتراث الكلاسيكي العربي جعل من هذه الطبيعة موجوداً مادياً وروحانيا ، في حين أن الادب العربي المعاصر أخذ يؤنسنها . وكان اسهام الأدب الفلسطيني في هذا المجال أساسياً وخاصاً ، إذ إنه عاد الى تقليد سامي عربي يرقى أقله الى ثلاثة آلاف سنة ، تقليد عطله بخاصة غزو خطابية عصر الانحطــاط الساحق لكافة مجالات الأدب العربي وفنونه .

هذا « الموروث » لايقع في أي من الصنوف الأدبية الكلاسيكية لدى الغرب والتي عفا زمنها اليوم ، لأنه ليس نوعاً أدبياً ، بل هو موقف من الموجودات يقوم على سرد قصتها بحيث تفصح عن دلالتها .

انه في الأدب الفلسطيني يروى ، يعلن ، يبشر . مايرويه : هو واقع الحياة اليومية مسيرة في الليل نحو الفجر . مايعلن عنه : هو ولادة جماعة انسانية . مايبشر به : هو استمرار أمة .

البريء يرفض

انه وضع نادر جداً في التاريخ المعروف ان يكون ثمة انسان ، — شخصاً أو جماعة — لا يملك من وسائل الوجود غير الكلام ، وان يوجد بنسبة ما أن يقول وجوده .

ذلك انه كان على هؤلاء الشعراء المرتجلين ان يرتجلوا كل شيء : القصيد وجمهوره ،

---

(٢٣) راجع المؤلفات الكاملة في أماكن مختلفة من المجلدين اللذين تم نشرهما حتى الآن في دمشق .

المؤسسات والبنى الاولى في بداياتها .. ولكي يحصل ذلك كان عليهم ايضاً ان يتخطوا عقبتين لاتتخطيان : من جهة آلة تعذيب خانقة ، ومن جهة أخرى لساناً لا تاريخياً لكثرة ما أمعن في ارهاقه المترمتون خلال قرون .

أجل الارتجال ، واني لآخذ الكلمة بحرفيتها. فالنصوص الفلسطينية ، سواء منها المكتوب بالاسلوب الرمزي (محمود درويش) أو المكتوب بالاسلوب الواقعي (توفيق زياد) هي كتابة مناسبات ، يوسع العالم المدقق أن يعين تأريخ كل منها ، ان لم يكن كلها فجلها. واقول ، بتعبير، آخر ان كلاً من هذه النصوص استدعاه حادث ما، حادث يزيد في قوته القاهرة انه اسقط على الانسان بحيث لا يترك أي مجال لما يسميه ارسطو فعالية النظر ، اي الابصار والتبصر . ومع ذلك ففي الادب الفلسطيني المفعم بالحماسة، شيء من السهولة والسعة بحيث ان النص يبدو احياناً وكأنه سرد للوقائع اليومية ، وكأن الكاتب شاهد حيادي يروي ماهو كما هو . فبعض قصائد توفيق زياد مثلا تشبه لحد بعيد الريبورتاج الصحفي .

ولكنهم في فلسطين لايروون لمتعة الرواية . فللكلام استراتيجيته ؛ وهي تقوم ، هنا ، على تفكيك الواقعة ، ان لم يكن للارض فالقه لتنحية الارهاب الذي هو هدفها . يلي الكشف عن الفاعل وقلب الادوار. فعندما يتخطى صاحب الحق مرحلة الحمولة والتعثر، ينتصب متهماً . ان سميح القاسم — هذا الانسان الممتلىء رجولة — لايشكو ولا يرثي في مراثيه كما يوحي بذلك العنوان العربي للمجموعة(٢٤) بل يتوجه الى العدالة عدالة السماء او الارض سيان . ايطالب بحق ما ؟ كلا . فالبينة على من ادعى ، كما جاء في مقدمة مجلة الاحكام الشرعية . انه يتهم ويفضح .

انه يبحث .

والشعر الفلسطيني بحث في صيغة قصة . مايبحث عنه ويعيد، هو مايؤسس الحق.

ذلك ان الواقعة لاتتضمن مبررات وجودها . هذا ما استند اليه المفكرون الاسرائيليون عندما اسقطوا المقررات الدولية ليعلنوا ان مسوغ الاحتلال هو الغزوات

---

(٢٤) « مراثي سميح القاسم » نشر دار الآداب بيروت . ان سفر ارميا ليس من نوع المراثي ، ويبدو ان الشاعر احتفظ بالترجمة العربية المغلوطة لأنها دارجة .

السابقة والراهنة (واللاحقة على مايبدو) غلفوها باسم توراتي ، ورأوا ان الله سمح بها ، لا بل أمر ، ويكون بهذا قد منح قطعة من الارض لشعب ما وحرم منها شعباً آخر. لنتجاوز هذا الكلام اذ ان الاستناد الى نصوص توراتية متراكة المعاني وتفسيرها تفسيراً وحيد الطرف وبالتالي التلاعب النظري بالارادة الالهية ، كل هذا أقل مايقال فيه انه مفرط (٢٥) .

أما الفلسطينيون فيسيرون بمحاذاة الارض ويمعنون . انهم ، لا على العكس مما تقدم وحسب ، بل ايضاً على العكس من البلاغة الفضفاضة التي برز فيها سياسيون عرب ازيحوا اليوم عن المسرح .

ان حديثهم حديث الانسان العادي عن العدل والظلم. حديث طويل، مؤلم، رتيب، كسيرتهم ، يمر بين اسطره تساؤل عن مصير الانسان في عهد التقنية الامبريالية. تساؤل خلو من اي ادعاء . هاك خلاصته : كيف يمكن أن تنتزع من انسان مسالم برىء الارض التي حرث هو واجداده (٢٦) . كيف يؤخذ منه البيت الذي بنى ، والولد الذي أنجبته له زوجته الشرعية ؟.. لماذا ؟ كيف ؟ ولا اي سبب ؟

* * *

وجد ذات يوم على أرض فلسطين هذه ، انسان عادل ، القى على جلاده السؤال ذاته أبسط الاسئلة واكثرها وقعاً في النفس :

لما ضربتني ؟

هذا الانسان العادل ، هو ايضاً لم يكن يطالب بأي حق . كان يريد أمراً آخر بمحاذاة الارض ايضاً ، ولأنه كذلك أعظم بكثير من الارضين . كان يريد من جلاده

---

(٢٥) « اسرائيل في الوعي اليهودي » وقائع اللقائين السابع والتاسع للمثقفين اليهود الناطقين بالفرنسية ، المنشورات الجامعية الفرنسية باريس . راجع بخاصة درس الاستاذ اندره نهر بعنوان ذي مغذى « أصروا » ص ١٧٠ وما يليه .

(٢٦) راجع قصة وقعت حقاً في احدى المحاكم الاسرائيلية ، بطلها فلاح عربي في « أدب المقاومة في فلسطين المحتلة » للمرحوم غسان كنفاني . نشر دار الآداب في بيروت ص ٣٧ وما يليه .

(وهذا من عامة الشعب على ما يبدو ، غير واع لما يفعل) ان يفكر بما يفعل . وعندها، عندما نعي السؤال ، لا تنكشف لنا العدالة وحسب ، بل الشفقة على الانسان ، شفقة هي ما أسموه في كل الأزمنة محبة .

هذه المحبة هي التي ندان – هي التي ادنا – عليها ، هنا وهناك .

ان تقول ما هو كما هو :

اقام الشعر بين الفلسطينيين والواقع مسافة حررتهم من ثقله ، فبوسعهم ، اليوم ان يزيحوه ، ان يعالجوه ، ان يفسروه ويسموه .

سأسمي كل شيء باسمه

يقول محمود درويش ،

يوسعهم أن يمنحوا ذاتهم اسماً

انا اسم بلا لقب

كما يقول ايضاً

لنقف عند هذه الملاحظة الاخيرة . انها هامة ، اذ في الموروث السامي – العربي يكتفي الاسم بذاته . الاسم ، في هذا المنظور ، هو الشيء وقد تبدى لا في ماهيته ، كما ظن البعض (فهذا ، ان هو الا ضرب من ضروب السحر) ، بل في تسلسله النسبي أجداداًواحفاداً، في قوامه الانساني وفوق الانساني. هذا التسلسل هو المكافيء لما يسميه الموروث الاغريقي – اللاتيني ، مبدأ وأساساً ، او ما نسميه ، نحن العرب أصلاً (ومنه الاصالة) .

ان ينتسب الفلسطينيون الى اسم ، في الوقت الذي يفقدونه ، بالاحرى يفقدونهم اياه ، تلك مسألة أساسية اذ ان الاسم ، على العكس مما يسميه الموروث الاغريقي – اللاتيني اصلاً (وهو بالنتيجة مبدأ عقلي) يضع في الوجود وتاريخه موجوداً ، هو هنا ، جماعة انسانية مرشحة للاسهام مع بقية الجماعات في تدشين الانساني .

تلك سلطة الكلمة وسلطانها : ان تشق الفسحة الانسانية حيث يتنفس الانسان بوصفه انساناً ، ويحيا ويموت .

ذلك ايضاً سر الكلمة ، سر ابداعيتها وتعبيريتها : ان تزيح ثقل الواقع كي يبلغ الانسان مستوى الحرية .

قد تكون الواقعة في ذاتها معقولة أو غير معقولة (وقائعية على حد تعبير بعضهم) قد تكون دالة أو خلوا من الدلالة (العبث او ما يسمى بهذا الاسم) . فالموقفان يمثل كل منها قضية ميتافيزيقية ، دافع عن الأولى الفكر الكلاسيكي منذ افلاطون الى ايامنا ، ودافع عن الثانية بعض الوجوديين ، في مقدمتهم الوجوديون الفرنسيون (سارتر وكامو مثلاً) . اما الواقعة ، كما تتجلى في المعاش الانساني او الشعور (فينوميتولوجيا هوسرل ، هوسرل الاول على الاقل) فهي من الاصل مزودة بدلالة .

ذلك ان اللسان الذي يولد مع الشعور يخترق لتوه الواقعة ، يخترقها عند تكونها ظهوراً (على العكس مما ظن هوسرل وقد أخذ عليه هذا الموقف ، تلميذه وشارحه الفيلسوف يوجن فنك)(٢٧) ويحرفها ، يغير موضعها ، ان صح التعبير ، ليدشن ما اسميته الفسحة الانسانية . وهذه بدورها دالة ، دفعة واحدة ، طالما انها موجهة ، أصلاً ، نحو المستقبل . فالرمز ، باحالته المزدوجة ، ليس امراً زائداً على اللسان ، بل هو اياه ، أصنف المتكلم أو الكاتب نفسه مع الواقعيين ام مع المعروفين اصطلاحاً بالرمزيين . الرمز هنا ليس (ترجمان) الواقع ، بل هو هذا الواقع بوصفه انسانياً ، وقد رد الى حقيقته ، الا وهي انه حصيلة لقاء بين الانسان والأشياء ، هذا اللقاء الذي هو أصل الشعور أو في أصله .

وفي الشعور تستحيل الواقعة حدثاً . إذ انها لم تعد حلقة في سلسلة الحتمية ، بل هي تفجير هذه السلسلة وترميها .

اللغة اداة ، الكلام حدث ... هذا ما يردده ده سوسير باستمرار(٢٨) .

---

(٢٧) راجع ملاحظات يوجن فنك على فلسفة هوسرل في كتاب « المشاكل الراهنة للفينومنيولوجيا » نشر دكله ده برور باريس ص ٥٤ وما يلي . ومن الجدير بالذكر ان التلميذ لم يعط لنفسه حق مناقشة استاذه إلا بعد وفاة هذا الاخير .

(٢٨) فردينان ده سوسير « دروس في علم اللغة » نشر بايو باريس ص ٢٧ وما يليه و ص ٣٦ وما يليه .

نخلص مما تقدم الى ثلاث نتائج متكاملة ، تبدو لأول وهلة بمثابة مفارقات ، مع أنها في الحقيقة صميم الواقع :

الاولى هي ان معالجة اللسان معالجة للواقع ، او بشكل ادق معالجة للجوهر الانساني.

الثانية هي ان لساناً جديداً هو رؤيا جديدة او مستقبل جديد ، يفترض ماضياً هو إياه وغيره .

الثالثة هي ان الحدث الشعري – وهو لساني بالدرجة الاولى – يستدعي تغييراً جذرياً في الوجود التاريخي للانسان . لا بل هو هذه الاستحالة .

هذه النتائج كاشفة لحقيقة التأليف الفلسطيني : ما هو وما نتوقعه منه ، اي انشاء جماعة كانت تبدو وكأنها راكدة كالماء الاسن على شفير الزوال ، وفجأة اعيدت لذاتها .

اهو تولد ذاتي ؟ كلا . وانما نتاج فن هو فن الشعب بنبض الحياة . كالحياة يعيد في احشاء احشائه معناه قبل ان يعلنه بصوت جهوري .

أجل لقد عاش الشعب الفلسطيني في جسده ، يوماً إثر يوم ، جسد ارضه المكلومة حتى الموت . استنشق هواءها الصافي رغم العواصف . جس بيده ، يد الفلاح القاسية الخشنة ، براريها المداسة . أعاد تقاليدها وعاداتها المهترئة والحية .. وعبر عن كل ذلك، اول ماعبر ، على طريقته البدائية تخدش الآذان المرهفة .

رقص في الاعراس ، بكى في المآتم ، مثل اياء في الاجتماعات العامة مأساته . وعندما دقت الساعة عبر عن ارادته ، لا قطعية للمحتل .

انه واحد من اوقات تاريخنا النادرة ، رفضنا فيها الاجنبي، وكنا نرى في الضيف في الغريب ، بركة .

في هذه المناسبات كلها ، كان الشعب – وما يزال – يدندن ايقاع مقطوعاته الزجلية العذبة في رتابتها . انها تأليفات ، جلها مغفل ، تروي مراحل درب آلامه . قد لاتخلو من دعابة مرة لكن الشعب ، وحده ، يملك سر النكتة امام المصاب . وقديماً قال شاعرنا .

.. وشر البلايا مايضحك(٢٩)

---

(٢٩) يجد القارىء في كتاب المرحوم غسان كنفاني نماذج من هذا الأدب الشعبي: قصائد ، اخبار ، حكايات .. وعناصر اخرى تصلح لأن تكون نواة سوسيولوجيا فلسطينية . راجع بخاصة صفحة ١٣ وما يلي .

هذه القصائد الزجلية كانت بمثابة عامل موحد رص الصفوف تلقائياً ، ومكن الشعب من اختيار العناصر الصلبة وترتيبها في مجموعات، كل منها نواة مقاومة. والمجموعات هذه ، اضف اليها الكفاح المسلح (أياً كانت جدواه) والمقاومة الجماهيرية الصامتة ، كلها كانت تربية سياسية لايستهان بها .

ولقد استعيد الشعر الزجلي في نظم من النمط الكلاسيكي. استعادة افقرته، افقدته قدرته على تحريك الحساسية ، باعدت بينه وبين الواقـع الحي ، ولكنها كانت ضرورية لانقاذه من مخاطر عدة :

أولها ، القطرية أو الانطواء على الذات ، التي لو طالت لكانت فصلت الفلسطينيين أفقياً عن باقي الجماعات العربية ، وعامودياً عن جذورهم التاريخية . ان العربي لايعرف اليوم وأمس وغداً ، إلا لساناً واحداً ، هو اليوم في طريقه الى التجدد الكلي .

ومن ثم الجمود والتخلف ، إذ أن الجماعة الفلسطينية ، وهي ريفية ، لاتستطيع أن تتحدث ، إلا اذا نطقت بلسان من مستوى الحداثة .

ثالثاً ، التلقائية التي هي الجانب القوي - الضعيف في النتاج الشعبي . ان الشعر الشعبي رد فعل مريع الحاد على وضع صعب ؛ انه هو قصير النفس ، محدود المدى. ولكن، أكان النتاج الفلسطيني بالفصحى أم بالعامية ، فهو قبل عام ١٩٦٠ مرحلة تمهيدية يعوزها أمر ما ، لا هو الموضوعات المبتكرة ، فالانسان لايبدع كما يشاء ، ولا الصور الطريفة فهذه ليست اضافات الى الموضوع ، ولا أخيراً الصورة المبتكرة للكون ، فنحن لم ندرك بعد هذه المرحلة ؛ وانمـا هذا الذي لايحدد ، والذي يميز بين الشعرية والنسخ المنقوصة عنها .

من دواعي العجب انه بعد سنوات من الارهاف السياسي ، من اتخـاذ المواقف الصاخبة، بعد سنوات من العمل بشتى الوسائل (ومنها الحرب) بقيت المسألة الفلسطينية على ما هي عليـه : انها لدى السياسي عامة أرض يحارون في تقسيمها ، ولدى العالم بالأوابد آثار من الضروري الحفاظ عليها ، ولدى وكالة الغوث مجموعة لاجئين بحاجة الى مأوى وغذاء . وعند السائح المولع بالمثيرات مزيج من الفولكلور والحرب .. وهاهي بين عشية وضحاها تخرج من الاسطورة على حد تعبير محمود درويش، لكي تصبح لدينا، نحن العرب، المكان الذي يقرر فيه مصيرنا، ولدى بقية الامم المأساة الراهنة الاكثر ايلاماً .

أو يمكن للمرء أن يتصور أمراً كهذا : شعب له هوية ويجب أن تنتزع منه ؟ ان عبارة الفلسطينيون هم غير موجودين) لما لاينمى ولا يحتاج لأي تعليق ..

فماذا كان اسهام شعراء الأرض المحتلة ، اولاء الذين انبثقوا على فجأة وكأنهم يخرجون من العدم ؟ ليس من اليسير الاجابة على سؤال كهذا . ففعل القول لايقال .

ربما ان اضع جواب هو التالي : رأوا وعاشوا وقالوا ما هو كما هو .

والمرء لايرى الا اذا كان في موقع الرؤية .

وهم كانوا فيه .

بعده ، وجود شعبهم استقام في حقيقته .

الوجود أو اللا ــ وجود

ما معنى « وجود » ؟

يبدو أن استعمال الكلمة ، أقله غير ملائم ، طالما أن الأدب الفلسطيني ، وبشكل أعم الأدب العربي ، الحديث منه والقديم ، لايحيلان ، صراحة ولا ضمناً لأية انطولوجيا . والأول كما قلت ، خلو من أي ادعاء جمالي أو ايديولوجي أو سياسي ... بله الفلسفي . انه أخبار عن .. أو قصة أو حدث يرويه الشاعر ويجول في حناياه لعدة أغراض ، وبالنتيجة ... لالغرض . اذ ان الشعر هو ، بين الفعاليات الانسانية ، أكثرها مجانية .

ولكن أيضاً ما معنى « قصة » ؟ أليست ، هي الأخرى ، في غير مكانها ، على مايبدو لأول وهلة .

إن مايقصد بالكلمة هو ، أولاً حادث أو مجموعة أحداث مركزة حول مايسمى تقليديا موضوعا . ومن ثم هي نص ، لنا الحق أن نعتبره مستقلاً وأن نحلله أو نقرأه على أنه كذلك . والقصة أخيراً مجموعة علامات(٣٠) تسمى تقليديا لدينا (آيات) أي حدث

---

(٣٠) يعطي رولاند بارت لكلمة « علامة » المدلول ذاته ، ولكن في سياق آخر ولاسباب أخرى . فهو يقول عن الدال والمدلول أنها بالنسبة للعلامة ، بمثابة الوجهين لقطعة الورق . راجع « بحث في علم الرموز » نشر مع كتاب « درجة الصفر في الكتابة » من منشورات جونثيه مجموعة الجيب صفحة ١١٠ .

كلامي شبه مستقل ، يوجه النظر نحو دلالة غائبة ، غيابها هو الذي يحرك النص من الداخل ويمنحه قوامه ومقوماته .

ينتج عن ذلك ثلاثة انواع من القراءات للشعر الفلسطيني ، الاولى مواضيعية ، الثانية بنيوية ، الثالثة اطلق عليها اسم حوادثية أو قراءة العلامات ، في حدها الأقصى تصبح رؤوية .

فالاولى ، وان كان النقد الحديث يستبعدها ، او يضعها بازدراء في المرتبة الثانية ماتزال أساسية ، أساسها في اللسان ذاته كما أوضح أرسطو عندما اعلن : « الكلام ، ان تثبت شيئاً ما عن شيء ما ، او أن تنفي شيئاً ما عن شيء ما »(٣١) . اذ ان قوله هذا يكشف عن حقيقة عامة وهي ان الكلام فسحة ، او ان في الفعل الكلامي فاصلاً بين المتكلم ومرماه ، بين القول وبين مايريد ان تقول .

هذه المسافة أو الفسحة ، يوسعنا أن نزيلها لنؤلف نصاً نقول عنه أنه مستقل كلياً ، بدون فاعل ، بدون موضوع (أو مفعول بالمعنى القواعدي) . والواقع أننا نفترض ذلك . ولكن هذا الفرض حد لايطال . ولو ادرك لكنا تجاه نص يلغي ذاته باستمرار ، أي مع القراءة أو الكتابة . بقول آخر يجب ان يكون ثمة ذات قائمة في مكان ما ، والا فان النص يصبح حديثاً منفرداً لايفهمه حتى الذي يكتبه .

ولهذا فاللسان — القصة اكثر من اللسان — يتضمن بشكل أو بآخر ، دلالة ينطلق بها موجود ما ، يبسطها ويوسعها في الموضوعات ، وهذه في احداث تسرد أو تروى . واذا كان النص شعراً فهو ينشد كما رأى أجدادنا أو يوقع ، كل حدث تبعاً للايقاع الخاص به .

والشعر الفلسطيني ، اذ استعاد هذا الموروث ، لم يكن بوسعه إلا أن يحتفظ بالموضوع ويشدد عليه ، كما احتفظ بالذات وشدد عليها ، ذات وموضوع هما بالنتيجة واحد ، يرتدان الى حقيقة يتحددان بها ، الارض ؛ تارة يدل عليها باسمها أو باسمائها ، وطوراً هي كالسببية الكنائية في علم النفس الحليلي ، تفعل في غيابها ، وتعرف في

(٣١) أرسطو « كتاب التفسير » ويعرف في الترجمات القديمة باسم كتاب العبارة ، ٥ — ٢٠ .

مفاعيلها ، أو ، اذا كان النص شعراً في آياتها(٣٢) .

ان الشعر الفلسطيني باختصار هو اخبار عن الارض .

والأرض هذه ليست بقعة جغرافيــة ، فيها تقع احداث مأساة أو بشكل أعم ، احداث تاريخ . انها هذه المأساة وهذا التاريخ .

والشاعر الذي يروي الاحداث ، يتحـد بالأرض – أرضه – الأرض بالذات – يرى بعينيها ، يقول قولها ، يروي قصتها ، يعيد في كيانه مغامرتها . وفي الوقت ذاته ينفصل عنها ، يجعل منها موضوعه لاموضوع سواه . انها وجوده ، واقعاً ومرمى ، ما يعوزه وما يملأ قلبه غبطة .

من الواضح أنه لايمكننا أن ننسب الى الشاعر الفلسطيني المرتبط رحمياً، بوقائع الحياة اليومية والذي هو بدون أية فكرة مسبقة ، مثل هذه المذهبية الفلسفية . ولكن الامور تجري كما لو انها كانت كذلك . أجل تجري ، شريطة أن ننتقل عبر المجاز (جاز، أي انتقل من مكان الى آخر) من المتصور الى ما يصوره ، من العلامة الى المدلول الأصيل وان نرى في الشاعر الفلسطيني ، أي فلسطيني آخر ، أو أي عربي من أي عمر كان . ومن أية بقعة أرضية كان . فالمجازات وبقية أنواع البديع وتلويناته ، ان هي الا تجسيد لوحدة اولى تنوب منابها ، تدل عليها ، دون أن تستنفدها .

الأمثلة ؟ تكاد لاتخلو منها أية مجموعة .

نجدها بخاصة عند محمود درويش حيث القصيدة في أغلب الحالات سلسلة تقمصات متداخلة يستدعي كل منها الآخر . ففلسطين هي تارة الأم رمز الاخصاب يقاوم الموت ، رمز اليسر رغم الفاقة ، او اذا شئت ، رمز الوحدة العضوية ، كما في الأسرة المستمرة رغم الهجرة والاستشهاد . وهي ، مرة أخرى ، الأخت تستدعي الخطيبة تحيل الى الحبيبة كما عند بودلير (دعوة الى السفر مثلاً) أو كما في « نشيد الخليقة الأجل » ؛ والكل يردنا الى موضوع الرغبة الأكبر . لنلاحظ بالمناسبة ان هذه الابدالات هي مما يدرسه علم النفس التحليلي ويوضح دلالته .

---

(٣٢) راجع رولان برت « مدخل لتحليل القصة البنيوي » في مجلة « سبل الاتصال » الفرنسية العدد ٨ لعام ١٩٦٦ ص ٤ الحاشية رقم ١ . راجع أيضاً مايلي في هذه الدراسة .

ونجد المنحى ذاته في العديد من قصائد سميح القاسم . ففي مقطوعة « طالب السدانة » (من ديوان « الموت الكبير » نشر دار الآداب في بيروت ص ١٣١) فلسطين هي الجدلية ، والشاعر خادمها من الأزل الى الأبد يغسل رجليها بالدمع والدم .

ولقد جرف هذا التيار توفيق زياد ، أكثر شعراء الأرض المحتلة واقعية . فهو يرى العشرة آلاف قتيلاً (أي الجماعة كلها بما فيها الشاعر) قد دفنوا ، احكم دفنهم ... وفي الوقت ذاته هم يبعثون (قصيدة شهداء الحرية ، وغيرها من ديوان « اغنيات الثورة والغضب ») .

هو قول الارض عن الارض ، وصفته أنه قصة أو إخبار . أهو حقاً كذلك ؟ كلا ، اذا أخذنا الكلمات بحرفيتها .

بوسعنا ، دون شك ، اخضاع النص الفلسطيني الى عامود القصة الأسطورية ، كما سنرى فيما يلي . فنحول الموضوعات الى سجلات ، نؤطرها ، ونصنف التأطيرات في زمر وتحت الزمر ؛ او أن نقسم القصيدة الى متواليات ، نستخلص في حركة كل منها الفاعل او الممثل ، وغيره من ابطال القصة الاسطورية . ثم نقرأ بالاستناد الى هذه المدونة ، بحيث يصبح النص جملة علائقية .

القراءة البنيوية هذه ، خصتها بمصطلحها وبكثير من التبسيط لضيق المجال ، لها مايبررها ، خصوصاً عندما تعارض القراءة المواضيعية ، التي ، اذا ما اقتصرت على ذاتها بدت باهتة وغير دقيقة . ولكن في النص العربي الاصيل شيئاً يفلت من الصياغة الصورية ، أقله في وضعه الراهن . وأقصد بالأصيل النص الموضوع بالاستناد الى عامود الكتابة العربية (وهي كلام أكثر منها كتابة) سواء في الشعر أو النثر (٣٣) . فهذا يؤالف بين نوعين أدبين تميز بينها القراءة البنيوية هما القصة والشعر : الأول فيما يرى رولات

(٣٣) راجع مجلة « الدراسات الشرقية » المعهد الفرنسي بدمشق المجلد ٢٥ لعام ١٩٧٢ صفحة ٢٦٥ — ٢٧٤ حيث تجد دراسة بنيوية لاحدى قصائد الياس أبو شبكة وضعها اندريه ميكل ، وهو من الاخصائيين الفرنسيين بالادب العربي . ان الدراسة ، على دقتها، على مابذله المؤلف من جهد مقصرة عن النص لانها تطمس ام مافيه ، اي الحالة النفسية التي يريد الشاعر اداءها واقصد بها الدعابة الحزينة الخاصة بالعديد من قصائد أبو شبكة والتي تمتزج عنده بمنحاه الخطابي .

بارت(٣٤) قول كنائي (بمعنى السببية الكنائية التي اشرت اليها) والثاني قول مجازي (هو والحِكَم) . ولكن المجاز (كما يدل الأصل الاغريقي للكلمة أي الانتقال من مكان لآخر) يضمن التواصل والتواجد بين الاثنين ، ويفيض في الآية التي تؤلف بينها ، إذ ان هذه لاتقرأ لأنها ، هي ذاتها قراءة .

والشعر – السرد هذا نمط من الاداء مميز للموروث السامي – العربي ، قلما عرفه الغرب . وهو الذي استعاده متعثراً الشعر الفلسطيني .

ذلك ان الموضوع (او ما يمكن أن يسمى بهذا الاسم) ليس في تراثنا ماوضع ، فهو أمام القائل أوالقارىء، أو قل ليس احالة الى شيء ما بل هو الشيء ذاته في ابعاده وفي نمط وجوده . وكلها ترتد في الشعر الفلسطيني الى واحد هو الارض – الرحم ، تتحدث في تجلياتها (ظواهر الطبيعة) وفي تجسداتها (الكائنات البشرية) .

ان المكانة الممنوحة للارض في الشعر الفلسطيني ، جديرة حقاً بالتشديد عليها ، لأنها باستثناء قلة قليلة من النصوص ، أمر جديد في تراثنا ، القديم منه والحديث . فالعربي ، كما كونه التاريخ ، يستأثر باتنباهه الحدث ، أكثر مما يستأثر به تجسده المكاني ، حتى لكأن المكان عندنا هو البعد الرابع للزمان ، على العكس مما ورد في فيزياء انشتاين .

أيكون اننا وعينا الارض –أرضنا– مكان ترسخ جذورنا ، يوم جزئت الى قطع ، عددها متناسب مع عدد المصالح الاستعمارية ؟ او اننا ادركنا ، يوم أخذ شعبنا يصنع ذاته ، اننا محرومون مما هو لدينا من طاقة ؟

أجل ! ولا مجال للتردد بالجواب ، لما تقدم من اسباب ، ولسبب اضافي بمنتهى الاهمية ، الا وهو ان الحداثة انشأت بالنسبة للانسان ، العربي وغير العربي ، زمنية جديدة تجمع بين الزمان والمكان ، بين التاريخ والارض ، بين الثقافة والطبيعة .

لقد مر على الارض العربية ، عبر تاريخها الطويل غزاة أخر ، منهم الصليبيون مثلاً . وربما ان اطماعهم كانت اوسع . ولكن هذه تمسنا في قلبنا . ففلسطين ليست من الاطراف المتنازع عليها باستمرار ، والتي يمكن أن تسوى بمعاهدة . انها ، فعلاً ، الارض – الرحم حيث يتجمع وجودنا ويتحدد .

(٣٤) المرجع المذكور لرولان برت صفحة ٤ الحاشية رقم ١ .

والحال ان الوحدة ، بالنسبة الينا، هي ، الوجود أو اللا — وجود ، وماتبقى ، بما فيه النزاع مع الاسرائيليين ، يلي ..

البعث أو الحياة في الموت

« الوجود او اللا — وجود » مسألة يطرحها المفكر والسياسي . أما الشاعر فيردها الى حيث تصبح ممكنة ، الى المجاني ، وفيه يلاشيها ؛ كما يرد ، بشكل أعم ، العقلي الى الأساسي الذي هو مبدأ وأصل وجودي (انطولوجي) .

ذلك أيضاً هو شأن الشعب ، الشاعر مثله غير المنتخب فهو الشرعي . وهو حيث يتركز وجود الشعب فعلاً ومبدءاً ، لأنه مقياس بيانه .

ان الشعر هو سعي الى الاصل يخبر عنه . إخبار أطلق عليه الاغريق أسم « أسطورة » . وهي في مفهومهم ، قصة ومعقولية ، كما أبان هيدجر(٣٥) .

والاسطورة بهذا المعنى ليست نتاج الخيال حتى ولو كان هذا مبدعاً ، بل هي أيضاً كلام معطاء . مايعطيه هو ما اعطي للانسان ، عينت موقعه (قسمته من الكل ، أبداً له) اسماه العرب (أمة) .

ان اسطورة علماء الاساطير وعلماء الانسان (انتروبولوجيا) اكانوا بنيويين او غير بنيويين هي تشكل ثان ، يتكون عندما يجعل العقل من ذاته حكماً في كل الشؤون . فالعقل الذي يأتي دوماً متأخراً كما يلاحظ هيجل(٣٦) يعيد بناء الاسطورة من منطلقه. ولهذا فالبنية ، ايا كان تصورنا لها ، مقتطعة من واقع اكثر جذرية ، اسماه أفلاطون (مثالاً) بمعنى الهيئة والقوام وهو منطلق العقل الغربي في ادراكه للوجود .

والتحليل البنيوي من النوع ذاته . أي انه تمرين عقلي — انتقادي ، شأنه شأن كل تمرين عقلي آخر ، يعزل او يجرد ما هو وحدة في الاصل ، ليجعل منه موضوعاً ،

---

(٣٥) ما الفكر ؟ المنشورات الجامعية الفرنسية ، باريس ، ص ٢٩ من الترجمة الفرنسية .

(٣٦) « مبادىء فلسفة الحق » صفحة ٥٤ من الترجمة الفرنسية نشر غاليار في مجموعة (افكار) .

أو موجوداً قائماً مقابل العقل المحلل(٣٧) .

لم أقصد من كلمة (تمرين) الحط من منزلة العقل لحساب الشعر . فالبحث الذي نسبته للشعر تمرين ، وكل فعالية انسانية بحث وتمرين . وإنما قصدت ايضاح الدور المزدوج الذي يلعبه العقل في المسألة التي نحن بصددها. فهو من جهة، وسيط ، وساطته تكشف عن الحركة التي بها يستحيل الكلام ، داخلياً ، الى نص (بالمعنى الذي يعطيه رولان برت لهذه الكلمة) . وهو من جهة اخرى ، تمهيد بمعنى أنه يشق طريقاً ممتازة نحو اللامقول في القول ، الذي هو فائض الانسان عن ذاته ، يجعل الابداع العقلي والشعري ممكناً .

★ ★ ★

نجد في بحوث اوليفيه كره (٣٨) — وهو ، في حدود ما أعلم أكثر شراح الشعر الفلسطيني نفاذاً — مثالاً جيداً يكشف عن قيمة الشرح البنيوي للشعر ، وعن حدوده، وبشكل أعم عن حقيقة شرح الشعر أياً كان المنهج المعتبر .

وضع اوليفيه كاره مختارات باوعة من شعر محمود درويش ودرسها دراسة دقيقة فوجد في أساسها وفي اساس التأليف الفلسطيني بعامة اسطورة (بالمعنى الانتروبولوجي للكلمة) جديدة في العالم العربي ، هي اسطورة البعث، او انبعاث الحياة من الموت: هذه

---

(٣٧) يرى رولاند برت في البنية مايبدو من الشيء على انه نسخة عنه وصورته. ولكنه شبيه موجه بمعنى انه يظهر من الموجود الطبيعي ما كان غير مرئي او غير معقول راجع مقال « الفعالية البنيوية » في كتاب « محاولات في النقد » نشر سوي صفحة ٢١٤. والتعريف جدير بالاهتمام لانه اذ يحيد عن خط ليفي ستروس يفتح طريقا جديداً للتحليل البنيوي .

(٣٨) للمؤلف ترجمة لمختارات من شعر درويش الى الفرنسية بعنوان « قصائد فلسطينية » مجموعة « ازهار الدم » نشر سرف باريس . وله ايضا دراسة في مجلة « سياسة اليوم » (عدد ايلول ١٩٧٠) بعنوان « الشعر الفلسطيني » او « الكلام عملاً » . وله اخيراً كتاب « ايديولوجيا المقاومة الفلسطينية » الذي ذكرته . الفصل الثاني منه مكرس للشعر .

الاسطورة تفترض كغيرها (٣٩) :

أولا – شخوصاً (يطلق عليهم ، في المصطلح البنيوي) اسم فعلة (او ممثلين اذا شئت) لان الذي يحدد كلا منهم هو دوره أو وظيفته ، لا هويته . وهم على التوالي : البطل الذي هو الشاعر ، مسعفوه (من يأتون لعونه من كائنـات بشرية وظواهر أو قوى طبيعيـة) ، موضوع حبه أو نشيده الذي هو ، هنا ، قيمة (أي فلسطين) ، الخصم ، اي المحتل والخونة والمتعاونون والماضي يمثله الجيل القديم .

ومن ثم سجلا مزدوجاً : الواحد للعبور (مرسل ← مرسل اليه) وآخر للانعام (الذات ← الموضوع) اي الرغبة المتجه نحو موضوعها وبوصفها كذلك تنعم عليه ، وتسمو به . فالموضوع اي المحبوبة تحل عليها النعم او البركات .

والمقصود ، هو ابدال المواضيعية التي هي ساكنة ، في رأي البنيويين ، بالوظيفية التي هي متحركة حركة تستهدف اتجاهين : الواحد أفقي (من المسعف الى الخصم) والآخر عمودي (من الذات الى الانعام) ويرمز الى الاتجاه بالسهم ← . والاتجاهان يلتقيان بالهدف الذي هو هنا ، فلسطين .

ذلك مايسمونه في مصطلحهم هيكل الاسطورة .

وأخيراً المتواليات ، كل منها مزود بعلامة سالبة أو موجبة للتعبير عن قيمتها في سياق حركة الدراما الاسطورية . والمتواليات في الأسطورة ، وحدات عمل أو مراحل . وفي النص وحدات زمنية (مقطوعة شعرية أو بيت أو عبارة واحدة تبعاً لمفاصل النص) او جمل اخبارية كل منها تخبر عن حلقة من حلقات القصة أو الاسطورة .

ان مايميز المتواليات عما يسمى في التحليل الكلاسيكي او المواضيعي ، موضوعاً هو ان الموضوع ساكن كما قلت في حين ان المتوالية مجموعة حركية تنتظم في المجموعة الكبرى التي هي النص بوصفه جملة علائقية .

---

(٣٩) يستند اوليفيه كره الى منهج دراسة الاسطورة الذي وضعه رولان برت (دراسة مجلة « وسائل الاتصال » التي ذكرتها) وغريماس في الدراسة المنشورة في العدد ذاته من المجلة ذاتها بعنوان « عناصر من اجل نظرية لتفسير القصة الاسطورية » . وقد اعاد نشرها في كتابه « عن الدلالة » نشر سوى باريس صفحة ١٨٥ وما يلي .

وتعقد لحمة الدراما وتفك عقدتها في « المحنة » التي ، اذا ما اجتازها البطل بنجاح، انحرفت الحركة باتجاه الخاتمة السعيدة .

ليسمح لي القارىء بأن استطرد فأقول ان التلخيص المختزل جداً قد افقد الاسطورة ودراستها كل حياة ، لا سيما واني اكتب بأسلوب تعليمي لا يمت الى سنتهم بصلة . على على اية حال ، ان اواصل التلخيص بالرجوع الى اصل الاسطورة ، كما يتصورونه ، لا املاً مني باعادة الحياة حيث فقدت ، فهذا صعب طالما اني لا اتبع اسلوبهم ، بل عسى ان تزداد نظرتهم وضوحا .

الاصل هو البدء . والبدء هو ماهو دائماً وأبداً .

الأصل أو البدء هو ان البطل (الشاعر) وحبه موجود واحد . يلي الانفصال الذي يحدث لدى البطل جرحاً . وواضح ان الانفصال هو ، هنا ، الغزو الذي فرق الشمل وأفقد كلاً من الصنوين هويته .

ويتغير الوضع عندما يستحيل العاشق مقاوماً أو فدائياً . ويقرر ان يتحدى خصومه المرموز اليهم بالسلطان (الامبريالية أو السلطات المحتلة) القاموس (اللسان الموروث) الأب والخرافة (الماضي الذي يجب استبعاده) ... يتحدى أيضاً الخصم الذاتي ، اي الميل الذي قد يداعب كل فلسطيني بالتعاون والخيانة .

هذه المحنة ويطلق عليها اسم مؤهلة لأنها تعد الشاعر للنشيد جديد ، أو تنيط به أمر الرسالة ، رسالة شعبه .

ويؤدي به هذا التحدي الى المحنة الرئيسية ، تحقق المنعطف الحاسم أو انعكاس الأسطورة .

يكتب اوليفيه كاره معقباً : « ان الكلام النقي الذي حصل عليه الشاعر عندما خاض المحنة المؤهلة يصبح مع الصلب الحقيقي — او موت الفدائي — وقد غاله لحماً ودماً ، قادراً على ان يبدع ماينشده الشاعر ، أي وحدة المغني وفلسطين » (٤٠).

---

(٤٠) « ايديولوجيا المقاومة الفلسطينية » الطبعة المذكورة صفحة ٤٠٦ . الفت نظر القارىء الى أن هذا الكتاب ، وهو الوحيد الذي حلل الايديولوجيا الفلسطينية والشعر الفلسطيني تحليلاً بنيوياً ، على ما أعلم ، جدير حقاً بالاهتمام لأنه ترجم بدقة النصوص الفلسطينية ودرسها دراسة كاشفة متميزة .

فالانعكاس (تبدل الاتجاه كلياً) الذي هو روح الاسطورة يحدث على الصليب الذي (وهذا مايجب أن ننتبه اليه كي نفهم مايلي) لم يعد رمزاً ، بل انه الواقع المعاش طالما ان الاستشهاد من وقائع الحياة اليومية في الارض المحتلة التي هي أيضاً مصلوبة .

قبل مناقشة هذا التفسير ، علينا أن نلاحظ الأمر التالي ، وهو أن الانعكاس من مستويين : الأول تاريخي . فدم البطل الذي يستشهد يسقي الأرض ، وبذلك يبدل صورتها (نظامها) . وها هي فلسطين الجديدة تبدأ عهداً جديداً يرمز اليه الشاعر بالأولاد . الثاني فوق تاريخي (وفي رأيي لا — تاريخي) ، اذ إن الانعكاس فيه ليس عودة الى حالة سابقة (فالماضي مضى وانقضى نهائياً) انما الى الحالة البدئية المولدة مبدئياً للزمنية لأنها فوق كل زمان .

والحال ان الوصل بين المستويين اشكالي الى حد الانفصام . وهذا مانلاحظه لدى اوليفيه كاريه عندما يحاول الانتقال من الاسطوري الى السياسي ، أو من البنيوي الى الحوادثي (٤١) . فلنقرأ بانتباه العبارة التالية من كتابه . يقول : « ان المتوالية الأخيرة تغني عودة فلسطين الجديدة . فالشاب الذي تربى في معسكرات الصليب الاحمر يصبح نبياً ، أعلى مرتبة من أبيه المتردي . ذلك أنه ، وقد ترسخت جذوره في جسد أجداده ، أصبح بوسعه أن يبدع وطنا ومستقبلا انطلاقا من النقص الذي يعانيه » (٤٢) . أتجاوز عبارة « يبدع من النقص » الملتبسة بسبب عنصرها السلبي لأقف عند العبارة التي شددت عليها ، وأتساءل عن معنى عبارة « جسد أجداده » التي تدخل ، بصورة غير متوقعة ، البعد التاريخي في سياق ، هذا البعد غريب عنه مبدئيا . ان محمود درويش الذي يستشهد به مطولاً اوليفية كاريه ، يبين بشكل لايترك أي مجال للشك السمة التاريخية — بتاريخية جذرية — للشعر الفلسطيني . وهاك ابياتا مما يورد اوليفية كاره مباشرة بعد العبارة التي ذكرت :

انني أبصر في عينيك ميلاد الغد .

* * *

(٤١) المرجع السابق ص ٤٩ وما يلي .

(٤٢) المرجع ذاته صفحة ٤٨ . المتوالية الاخيرة هي المقطوعة « ملاحظة على الاغنية » من قصيدة (اغنية ساذجة عن الصليب الاحمر) صفحة ٨١٨ من ديوان محمود درويش نشر دار العودة بيروت عام ١٩٧١ .

عينـاك ، يامعبودتي ، عودة
من موقفنا الضائع تحت الحصار
كأنني ألقاك هذا المساء
للمرة الاولى ...(٤٣)

ان عبارة « جسد الاجداد » التي شددت عليها ، تشير في قراءة عربية ، أولاً الى الجماعة المتحدة عضوياً كالجسم ، ومن ثم الى الارض الضاربة هذه الجماعة فيها جذورها، واخيراً الى التاريخ المسطر على هذه الارض . والكل يؤلف ما أسميته «الموقع» أي تشكلا تاريخياً (امة) موحداً وفريداً في نوعه كأي تشكل آخر أو امة اخرى .

والحال أن الزمان الاسطوري دوري تعريفاً(٤٤) في حده الأقصى يرتد أو يمكن أن يرتد الى المكان(٤٥) . ولهذا فتحليل الاسطورة تعيين أمكنة ، والمتواليات التي تتألف منها الاسطورة (أو النص) متعادلة الامكنة ، كما يقولون في مصطلحهم . فلكي يسوغوا الزمان يميزون في النص أو في المغامرة الاسطورية بين مستويين متداخلين « ازدواجية تعادل الامكنة في مصطلح غريماس » هذا من جهة ، ومن جهة اخرى يعينون الاتجاه مثلا « قبل متجه الى بعد » أو غير ذلك . ومع ذلك فالزمان لغي ملغي طالما أن الحركة هي المحتوى النهائي وقد انعكس فعاد الى الحالة البدئية ، كما يلاحظ اوليفية كاره(٤٦) .

ان الامور هنا تتم بالنتيجة كما في حكايا الجنيات الساحرات والمسحورات « مثلاً

---

(٤٣) مرجع كاره المذكور ص ٤٩ ، تجد الأبيات في الصفحتين ٥٢١ و٥٨٦ من طبعة دار العودة المذكورة . لم اتمكن من ايراد الابيات التي يستشهد بها اوليفيه كاره كلها لضيق المجال . وهذا افقار لدراسته . ولكن أظن اني لخصت فكرته جهد المستطاع.

(٤٤) راجع بشأن الزمان الدوري ملاحظات جان غيتون في كتابه « الزمان والأبدية لدى افلوطين واوغسطين » نشر بوافان باريس ، بخاصة الفصل الثاني .

(٤٥) ان مؤلفات ميرسيا الياد تدلل كلها على ذلك . راجع بخاصة كتابه المعروف « بحث في تاريخ الاديان » نشر بايو باريس . وموضوعه الحقيقي طوبولوجيا الاساطير، أوتخطيطيتها .

(٤٦) اوليفيه كاره المرجع المذكور ص ٤١٠ حيث يلخص دراسة غريماس .

حكاية الحسناء النائمة في الغابة ، وضع موسيقاها تشايكوفسكي » حيث انفصال الحبيبين، أحدهما عن الآخر ، مؤقت ، وحيث الخاتمة السعيدة « الرغبة وقد تحققت » معروفة سلفاً (٤٧) .

قد يظن القارىء اني رميت من وراء عرضي للتحليل البنيوي ومناقشته وربما العرض أكثر من التحليل » اظهاره بمظهر المتهافت . الأمر على العكس تماماً . فالعلمية التي يستهدفها في الصياغة الصورية خطوة الى الامام لايحق لنا الاستهانة بها . مثال ذلك – أهم الامثلة – اعتبار النص جملة احالية عوضاً عن أن يكون مجموعة موضوعات يربط بعضها الى البعض الآخر الناقد أو القارىء كما يطيب له . ان هـذا الابدال نظرة منهجية اقرب الى الموضوعية من اي منهج آخر . ولكن في « العلم بدون باق » كما حدده هيجل ، وفي العلمية الناجزة التي هي اليوم وريثته ، أمر مرهق للعقل نفسه لأنه ينتهي بالغاء الانسان الذي هو هدف العلم . واصح دليل على مـا اقول هو ليفي ستروس الذي لم استشهد به لضيق المجال مع انه رائد النظرية . ان هذا المفكر ينتقل ، دون أي مبرر ، النموذج الذي استخلصه من دراسة البدائيين واساطيرهم ، اي من دراسة جماعات خرجت منذ زمن طويل من دائرة التاريخ ، الى الواقع الراهن ، حيث تصطرع المصالح والانانيات ، باسم العلم . والنتيجة انه يبخر الانسان ليقيم العلم الكلي كما فعل هيجل قبله بكثير (٤٨) . لنعد الى المشكلة في مقولاتها الكبرى .

انهـا ترتد الى التعارض الكلي بين التزامن (الوجود معاً في الزمان او الحضور المتواجد) والتزمن (حركة انفتاح الزمـان) او بين البنية والحدث (٤٩) . هـذا التعارض لا يمكن تخطيه الا اذا تفجر الحد الاول باستمرار ليجد ذاته في الحد الثاني وقد بدل بنيانه .

---

(٤٧) راجع مرسيا الياد ، كتاب « جوانب من الاسطورة » الملحق رقم واحد حيث يدرس أساطير الجنيات وحكاياها في مجموعة (افكار) نشر غاليار .

(٤٨) راجع في مجلة « فكر » الفرنسية عدد تشرين الثاني ١٩٦٣ المخصص للبنيوية ، الاسئلة التي طرحها بول ريكور على ليفي ستروس بهذا الشأن . وهي تبرز المشكلة البنيوية في مالها وفي ماعليها ، ص ٦٢٨ وما يليه . ترجم هذا النص الى العربية في كتاب « البنيوية » نقله الى العربية ميخائيل مخول ، نشر وزارة الثقافة دمشق .

(٤٩) بول اريكور ، تعارض التفسيرات المذكور ص ٨٠ وما يليه .

وهذا مايفعله اوليفية كاره من حيث لايريد ، كما يبدو لي . فدراسته الذكية كاشفة من هذا القبيل اذ انها تتضمن ، بين الاسطر ، او في سياق العرض ، تردداً بين تخطيطية غريماس الذي ينتمي الى مدرسة ليفي ستروس(٥٠) ، وبين مخطط رولان بارت الذي يريد انفتاح النص بحيث يفسح المجال لأكثر من تفسير(٥١) . ولهذا فتحليله يجنح به نحو الاول وتفسيره نحو الثاني لحد ما .

جملة القول ان الدلالة تتضمن فائضاً عن البنية ، عن النص ، وعن ذاتها . هذا الفائض لا يمكن تحليله اكان التحليل بينانياً أم بنيوياً أو غير ذلك ، بالاحرى لا يمكن امتصاصه كلياً(٥٢). هذا الفائض ، بوصفه كذلك يفلت من التعقيل ، لا لأنه غير معقول، بل لانه مولد المعقولية . فاذا ما عزلناه عن التاريخ أزلناه .

اقول معقباً ان اسطورة البورورو (والاصح القول انها خرافة) التي يجعل منها غريماس النموذج لكل قصة اسطورة ، ذات بنية ، ولكن ليست ذات دلالة او معنى . اذ ان الابطال والالهة ، فيها ، يموتون ويبعثون دوماً على الطريقة ذاتها . انها تكرار لحادثة واحدة فقدت تاريخها لانها مجرد تكرار ، كالمجتمع البدائي الذي أخذت عنه ، يراوح في مكانه منذ عشرات ومئات القرون .

الحياة في الموت ؟ البعث ؟ الاستشهاد ؟ الشهادة ؟ على العكس تماماً .

تلك تجربة مغلقة ، وهذا حدث فردي وفريد ، لا يعاد ولا يستعاد ، يحياه كل انسان — شخصاً وجماعة — مرة واحدة ، وحده . ومع ذلك فهو تجربة الجميع ، التجربة الكلية في تفردها ، لانها شهادة الانسان للحق باسم الانسانية كلها .

جدواها في هذا . هذا وحسب ...

---

(٥٠) يقول مع ذلك غريماس ان تخطيطيته هذه لم تعجب ليفي ستروس . راجع كتاب « في الدلالة » المذكور ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٥١) راجع تحليل رولان بارت لنص توراتي في كتاب « التحليل البنيوي والتفسير التوراتي » نشر دلاشو ونسلكه ، باريس وجنيف ص ٣٩ بخاصة .

(٥٢) اميز بين بنياني وبنيوي : البنياني حيث البنية محكمة كالبنيان ، وهي لمذهب ليفي ستروس . اما البنيوي فحيث البنية مفتوحة مبدئياً ، كما بدأ يرى اليوم رولان بارت وغيره .

يوسعنا ان نجعل من الحدث قصة ، ان نخضع القصة لكافة أنواع التعقيل . ولكن عندما نواجه الحدث ، سرعان مايفلت من التعقيل، يخلفه وراءه ، يرى فيه ، في أحسن الحالات تمهيداً .

تلك هي الثورة الفلسطينية شهداء وشعراً .

البراءة والاساس :

« الوردة بدون لماذا »

انجيلوس سيليزيوس(٥٣)

الميثو – لوجيا (حرفياً علم الاساطير) قول عن الاسطورة بدليل اشتقاق الكلمة الاغريقي . قول هو ، بدوره اسطورة ، لها علماؤها وشعراؤها ومنظروها من الايديولوجيين (٥٤) . انها استعادة للاسطورة تأتي في مرحلة ثانية ككل عمل عقلي انتقادي . فشرعيتها العقلية بنسبة تعقيلها لماضي الشعوب غير المكتوب (والمكتوب أيضاً كما يبدو من اتجاهات الدراسات الحديثة) .

لكل عصر اساطيره ، وعلى الأرجح اخصائيوه في تدبير الاساطير .

والقرابة كبيرة بين الايديولوجيا (قول عن المعاني) والاسطورة بحيث أن المنظّرين ينتقلون غير مستشعرين من الاولى الى الثانية ، اذ قد يرون في الواحدة كما في الاخرى «التصور الذي تكونه جماعة ما لذاتها عن ذاتها »(٥٥) ؛ أو «التصورات المحركة

---

(٥٣) الكلمة من قصيدة للمتصوف الالماني انجيلوس سيلوسيوس (القرن ١٨) ذكرها وعلق عليها مطولاً هيدجر في كتابه « مبدأ العقل » أو « في المعقولية الكافية » ص ١٠٢ وما يلي من الطبعة الفرنسية لدى غاليار، باريس .

(٥٤) « اسطوريات » لليفي ستروس ، في أربع مجلدات ، نشر بلون باريس وهو مؤلف شعري وفلسفي وايديولوجي .

(٥٥) هذا واحد من أحدث تعريفات الايديولوجيا لدانييل فيدال ، في كتاب « محاولة في الايديولوجيا » نشر انتروبوس ، باريس ، ص ١١ .

الجماهير »(٥٦) أو اذا شئت ، الاطار فوق البنيوي الذي « يزود نظاماً اجتماعياً — سياسياً ما بمسوغاته العقلية والعاطفية »(٥٧) .

هذا التداخل بين الميثولوجي والايديولوجي جدير بالتشديد عليه لانه كاشف عن العقلية الحديثة من جهة ، ومن جهة اخرى عن منحى العلم الاجتماعي في أيامنا .

ولكن مايعنينا منه ، من الاستشهادات — بالاحرى التعريفات — سقتها عفو الذاكرة والقراءة ، أمر آخر الصق بموضوعنا . ذلك ان الاسطوريات والايديولوجيات موقف يرمي متصاحبه الى شرح الواقع وتحويله ، أو تحويله بشرحه تبعاً لمبدأ ماركس في القضية الحادية عشرة عن فورباخ المعروفة .

والحال ان ما اسميه هنا موقفاً ، هو ، في حقيقته ، قول ثان يجب علينا أن ننتقل منه الى القول الاول ، أي من القول عن الاسطورة الى قول الاسطورة ، من القول عن المعنى الى قول المعنى ، أو الى حيث اللسان يصبح رمزياً بجملته ، فلكثافة الواقع . ويمكن القول عنه انه لغة طبيعية .

هذا المستوى من الكلام ، يكاد لايطال ، هو الذي علينا أن ندركه كي ندرك الرمز ، الذي هو اصيل واصلي اكثر من الاسطورة ذاتها(٥٨) ، ومعه ندرك الواقع في اللحظة التي يختبره فيها الشاعر ، يحياه ، وفي الوقت ذاته يعيد تكوينه اذ يعبر عنه .

هذه العودة الى الجذور — جذور الانسان الناطق التي أشرت اليها — هي «وحدها» الكفيلة بان تشق لنا الطريق ، لا الى الشعر الفلسطيني واشكاليته وحسب ، وانما الى اللسان العربي المعاصر في مجموعه ، وبالنتيجة الى كل لسان . وهي طريق تستمد اهميتها من

---

(٥٦) تعريف جورج سوريل للأسطورة أورده واستند اليه اوليفيه كاره ، ص ١١ من كتابه المذكور .

(٥٧) تعريف انور عبد الملك لـ « للايديولوجيا السائدة » في « الديالكتيك الاجتماعي » باريس سوى ص٢٤ . لاحظت ان بعض المفكرين أخذوا عنه هذا التعريف منهم مكسيم رودانسون .

(٥٨) راجع بول ريكور في كتاب « التناهي والاثمية » المذكور المجلد الثاني « رمزية الشر » ص ١٥٧ .

أن لساننا اليوم يجتاز واحداً من منعطفاته الحاسمة ، تلك التي ستضعه في قلب الحداثة .

فرفض الماضي مرموزاً اليه بالقاموس في الشعر الفلسطيني والذي يشدد عليه اوليفية كاره اكثر من مرة (٥٩) هو ، في حقيقته العميقة التي لم نعها بعد بما فيه الكفاية، انتقاء، يرجح الكتابة ، يرجح النص (بالمعنى الذي يعطيه رولان بارت وجوارج دريدا واتباعهما الكلمتين) على الكلام الذي كان من شأن الشعر في تراثنا برمته .

والحال ان اجدادنا لم يكتبوا الشعر (فالتدوين الذي تلا كان لاسعاف الذاكرة) وانما كانوا ينشدونه . ومعناه انهم كانوا يتلقون ايقاعه ، كل منهم في كيانه كله . يتلقونه ويعيشونه بحيث ينشأ الاحفاد صورة لحد كبير امينة للاجداد . هذا المنقول تراثاً ، والذي ما زال حياً حتى الآن هو الذي جعلنا واحداً . فاذا ما وضعنا ارادة التحديث مقابل استمرار القديم (بمعنى الاصل والاصيل) للاحظ ، الى جانب خطورة المسألة ، اعني القطيعة مع الماضي ، أو شطر وحدة التاريخ الى شطرين ، وهو موضوع لامجال لطرحه الآن، نلاحظ أن ثمة شيئاً يعترض طريق الكاتب العربي نحو الحداثة، هو الكلمة العربية التي اتسعت العديد من المعاني المستحدثة ، وفي الوقت ذاته حافظت بعناد قد لايكون له مثيل في التاريخ ، على صميميتها ، او اذا شئت ، على هويتها وبنيتها . ولسوف يمر زمن طويل قبل ان تكشف الكلمة العربية عن سرها أمام العقل العلمي فتحتكم ونحتكم اليه . ولهذا اقتصر على الاشارة الى الخط الذي قد يكون من المفيد الاستناد اليه في هذا المجال ، وذلك بالرجوع الى المحاولة الوحيدة التي في حدود ما أعلم ، وضعت لمواجهة هذه المسألة . انها محاولة زكي الارسوزي التي ، وان كان فيلسوفنا قد صاغها بلهجة تقريرية ، أو على انها الحقيقة بالذات ، فهي وجهة نظر وحسب .

ان حدس زكي الارسوزي (استخدم تعبيره المستمد من برغسون) ثاقب بمقدار ماهو مجازفة ، ثاقب لأنه يشدد على واحد من الخصائص المميزة للغة العربية . مجازفة لأنه عُرض بصيغة شعرية — أسطورية أكثر مما هي علمية — عقلية . هذا الحدس يقوم على رد الكلمة العربية الى مصدر مزدوج المقطع او مزدوج الصوت ، وهذا الى صور سمعية

(٥٩) راجع كتاب اوليفيه كاره المذكور ص ٤٦ وفي أماكن أخرى .

– بصرية هي التجلي المحسوس (وقد استحال المحسوس كله لسانا) لمعنى قائم بذاته، ولكنه ليس من أجل ذاته ، كما يقال في مصطلح الفلسفة منذ هيجل(٦٠) .

أعلق القضية الميتافيزيقية التي هي عرضة للمناقشة ، أقله في سياق بحثي ، وأعلق أيضاً رد الكلمة العربية الى صوتين فهو غير مفيد لهذا البحث ، الى جانب ان كثيرين لاحظوه قبل الارسوزي ومنهم لدى الاجانب الفيلسوف الالماني شيلنج(٦١) . اعلق ذلك كله لاقتصر على التركيب (صورة – معنى) الخاص بمفرداتنا .

ان الحق بجانب الارسوزي في نقطة هامة جداً ، وهي ان المفردات العربية ،التي ترقى الى ماقبل المفهوم ، وقد حافظت حتى يومنا على هذا البناء القديم ، تؤلف من الوحدات العضوية (او الأسر اللغوية كما يقول فيلسوفنا) التي تكاد تكون مغلقة ، بمقدار ماهنالك من المصادر . ولهذا فالكلمة العربية – أسماً كانت أم فعلاً – هي من أصل فعلي ، وبالتالي فهي تدل على عمل بمقدار ماتدل على شيء . يلتج ان الكلمة في لغتنـــا وظيفة ليست لغيرها ، اقله في اللغتين الفرنسية والانكليزية اللتين كان الارسوزي يعرفهما.

ألاحظ ، من جهتي وفي مايتعلق ببحثنا ، ان لغة المفهوم التي دخلت على لساننا في زمن متأخر (وهذا شأن الألسن القديمة والاصيلة كلها) لم تؤثر – أو كانت ضعيفة الأثر – في اللسان الشعري الذي بقي لدينا ولحد كبير ، لسان الأصول .

ولكن فيلسوفنا أخطأ المرمى في نقطة لا تقل اهمية عن السابقة ، وهي ان الوحدة ليست في الكلمة وحدها ، بل هي ايضاً وقبل ذلك في العبارة ، في البيت ، في المقطوعة، وقد تكون في القصيدة كلها .

والحال انه ، بنسبة ما ان نوسع الوحدة المدروسة، نلاحظ تناقص العلاقة «صورة – معنى» لحساب اخرى اكثر مرونة واقل انغلاقاً ، هي العلاقة «رمز – دلالة» حيث

---

(٦٠) زكي الارسوزي (١٩٠٠ – ١٩٦٨) المؤلفات الكاملة ظهر منها حتى الآن مجلدان ، نشر لجنة تخليد زكي الارسوزي بدمشق . راجع بشكل خاص المجلد الاول حيث تجد الفكرة في كل صفحة تقريباً .

(٦١) شيلينج (مدخل لفلسفة الاساطير) المجلد الاول صفحة ٦١ من الترجمة الفرنسية . انبه الى ان شيلينج يشير الى اللغات السامية كلها .

الحد الاول يتفجر باستمرار لينزع نحو الحد الثاني . وهذا الأخير فعال بغيابه اكثر مما هو فعال بحضوره .

اقول بشكل آخر : يجب الا تحجب عنا كثافة الكلمة العربية الجسدية هذه ، الحقيقة الاساسية وهي ان كلمتنا مؤلفة من عدة رموز متداخلة ، وان الرمز من طبيعة نزوعية اكثر مما هو من طبيعة شيئية .

ولهذا قلت ان العبارة العربية لا تدخل كلياً في اطار الصياغة الصورية ، اقله في شكلها الراهن . اذ ان هذه الصياغة تفترض بالاضافة الى ما تقدم المصادرات التالية :أولاً وحدة الخط في الدلالة ، ثانياً استقلال النص ، اخيراً اولوية الكتابة على الكلام . وكلها على العكس من طبيعة الفكر السامي — العربي .

ان في خلفية الفكر الغربي كما يبدو لي، أفلاطونية مضمرة استمرت رغم التحولات الكبيرة . وفيها ان بناء اللسان شبيه ببناء الموجودات ، كلاهما قوامه المثل، أي بشيء من التبسيط ، مفاصل الوجود حيث يصبح الوجود تعبيراً .

ولما كان عالمنا اليوم ، وقد كونه العلم والتقنية ، لا يمت بأية صلة الى الكوزموس الاغريقي (الكون نظاماً كاملا مغلقاً على ذاته) فالحداثة كما تتبدى في النصف الثاني من القرن العشرين ، شعارها : اللا -افلاطون، بدأت مع الفنون التشكيلية (اللا - شخص ، او اللا - هيئة) وانتقلت الى الفلسفة (٦٢) والشعر(٦٣) .

فاذا ما اقتصرنا على الجانب قبل الحديث وقبل الحداثة من الموضوع ، نلاحظ ان فكرنا يختلف عن الفكر الغربي في أمور عدة ، ذكرت بعضها واغفلت الآخر . وأحب أن اشير الآن الى واحد منها مرتبط مباشرة بموضوعي هو مصادر التعبيرية ، ومنها يستمد اللسان قدرته على الابانة . ففي حين هي لدى الغربي حضور الدلالة في الوجود كما شدد على ذلك هيدجر في كتاباته (قبل الاخيرة منها بخاصة) هو لدينا مناظرة (او حوار) مع دلالة تتحقق في المحسوس ، تعطيه صورته ، وفي الواقت ذاته تباعد

(٦٢) ان الكتاب الذي بدأ حقاً بمناهضة الافلاطونية هو مؤلف مرلو بونتي (فينفومينولوجيا الادراك) نشر غاليار بباريس ، وهو يرقى الى الحرب العالمية الثانية .

(٦٣) راجع مثلاً مجموعة الشاعر ايف بونفوا « اللا — افلاطون » في كتابه « الحركة والسكون في دوف » نشر غاليار باريس .

ان واحداً من منجزات العلوم الانسانية الحديثة هو رأيهم ان كل تجل للانساني (= فيه النص) مجموعة علائقية، يمكن ان تعزل وتدرس بما هي كذلك؛ وان هذه المجموعة تتركب، عندما تكون نصاً، من دال ومدلول تتوسطها العلامة. واذا كانت القراءات تختلف احداها عن الآخر فبالمكانة التي تعطيها لكل من هذه الاطراف الثلاثة بحيث تركز على هذا أو ذاك لتجعل منه موطن حلول الدلالة.

فالقراءة المواضيعية تختار مدلولاً (هو الموضوع) تركز حوله البقية وترى فيه موطن الدلالة الاساسية رتنتقل منه الى ما يلي أي الى الدال والعلامة، فبواعث النص وخلفياته الاجتماعية والنفسية وغيرها. اما القراءة البنيانية (والبنيوية كذلك مع فارق واحد أشرت اليه) فعلى العكس. انها تتركز حول الدال الذي يمتص المدلول والعلامة والدلالة. ولما كان الدال هو مجموع النص، فهو مستقل مبدئياً عن بواعثه وخلفياته، مقتصراً على ذاته. وهو، في الحد الاقصى، جملة علائقية، كما قلت، كل حد منها يحيل الى الآخر، بحيث ان كل حد يمكن ان يعتبر مقياساً متحولاً (بارامتر).

أقول عن القراءة الثالثة أو الحوادثية انها قراءة علامات (أو آيات) لانها تنطلق من هذه الاخيرة (الآية) تجذب اليها الدال والمدلول ولا تستبعد الخلفيات، بل توحد بين الكل في حدث هو الذي يوجه النظر نحو الدلالة. وهذا الحدث كلامي.

الحدث جائز بطبيعته (اذا كان ثمة من معنى لكلمة طبيعة هنا)، ومع ذلك فهو واقع بملء الواقعية، واقعيته مستمدة من الدلالة التي ترسخه وجوداً، تعين مكانه وزمانه، والتي هي مصيره (مايجب ان يصير اليه او عليه) وعلة وجوده؛ او هي مايبعثه وينجزه.

والجواز هذا توقع لما وقع، واصغاء لما سمع «فاستقم كما أمرت» (قرآن كريم).
ذلك هو الشعر الفلسطيني،

لا يقررون فيه امراً. فالقرار ان تبقى في مكانك متوقعاً. وتلك هي المقاومة.
أما الوسائل المستخدمة — الرفض الصامت، حرب العصابات، الثورة، الحرب... —
فان هي الا وسائل.

ويكتب سميح القاسم هذا الانتظار بالحرف الاسود على الورق الابيض، وعلى الطريقة التي تعبر عنه اذ يقول:

يا جه حبيبي يا قمر الدمع
ايتها الاشجار الامطار الآبار الازهار

. . .

الاضواء الاقدام الاجراس ..
الصحف الآلات الموسيقى
الاعلام الاعياد
الميلاد
انتظر الميلاد
هاءنذا ... انتظر ... الميضد !

(المراثي صفحة ٤٦ – ٤٨) (٦٣)

في هذا النص المقتبس من ملحمة ذات طابع رؤوي، كما في بقية القصائد الفلسطينية لا يتنبأون بل يقولون ، لايكشفون عن مخبوء ، بل يتحدثون عما يرون . فلا ظاهر ولا باطن . لا سر ولا سرية . بل لغة صافية مفرطة احياناً في شفافيتها . وحيث يوجد مؤوّل اذا وجد ، حيث الرموز أو الكنايات وما شاكل تتكاثر ، هناك يخفون حشمة ، لا الخصم ، اذ ليس هو المعني بالدرجة الاولى ، بل الاسم الآتي ينشدونه ، عن سيرته يتحدثون .

ويتساءل القارىء : علام اذن القول عن هذا الشعر انه رؤوي ؟ أبسبب قصائد لها ايقاع هذا النوع ونمط تعبيره ؟

ربما ، ولكن هذا ايضاً من جملة الوسائل .

فما يراه يوسف الخطيب في قصيدته « رأيت الله في غزة » يقوله بوضوح منذ البداية : انه نظام انساني – اجتماعي ينهار ليتكون على أنقاضه آخر . واذا كان يرد

---

(٦٣) تجدر الاشارة في ما يخص هذه القصيدة والقصيدة السابقة لدرويش ، الى ان التنقيط – حذفه ، استبقاؤه ، التلاعب به – وكذلك تقطيع الشعر ، أمر جديد في لغتنا ، نجده لدى عدد من الشعراء المحدثين . وهو محاولة لنقل الشعر العربي من مرحلة الكلام الى مرحلة الكتابة .

هذه الاستحالة الى الله بمعنى الالهي ويعبر عنها بكلمات هي استذكارات قرآنية او توراتية، فلكي يقول ان العهد الجديد كلي ، يتحقق في استشهاد مقاطعة غزة الصغيرة ويتخطاها ليضم البشرية اجمع . أما النسغ الجديد الذي يرمز اليه بالحليب يمازج دم الشهداء ، فهو آية الولادة الجديدة التي هي استحالات الالهي (الكل) ، مخاضه ، آلامه ، انبثاقه . ورمز هذا الكل هو الاوقيانوس (المحيط) فالبشرية اصبحت متضامنة في المصير كما ان مياه البحر متضامنة في حركتها وفي وجودها .

ويبدو لي ان سميح القاسم هو الذي اجاد في استخدام النمط الرؤَوي بخاصة في مجموعيته : « المراثي » التي أثمرت الها و « ارم » المدينة التي اهلكها الله بسبب كفرها. والرؤى في المجموعتين ، كما في غيرها ، ليس مصدرها العرب وانما الخصم الذي يزرع الموت في كل بقعة يجتازها ، في فلسطين كما في فيتنام وغيرهما .

رب معترض يقول : ليس في الآلة الاستعمارية من سر ، فقد حللت مراراً وشرحت وفضحت .

صحيح .

ولكن ماذا عن الانسان المختبيء فيها والذي هو عدم يستشري اين واني وجد العدم؟ لا ثقافة تهدم الثقافة وتبيد الانسان ؟

انسان الآلة لم يعد انساناً . استحال آلة ؟ وهذه استثارت سلسلة افاعيل ، استدعت بدورها من قبل الانسان ، الجواب الوحيد الملائم لسؤال ، الا وهو الثورة . ان بوسع الثورة وحدها اليوم ان توقظ الشعوب (بما فيهم اليهود) الى حقيقتهم ، وهي ان العمل الوحيد الجدي في عصر الاستعمار والتقنية المعممة هو تأليف وطن الانسان .

من الواضح اننا لانضع اليهود ، من حيث هم كذلك ، موضع بحث . فقد وجد منهم بيننا دوماً عدد كبير . ولم يكن حظهم بأسوأ من حظنا أو حظ الوحدات الحضارية التي تعيش على أرضنا في فترات الازمات . بل انهم اسهموا على طريقتهم ومن منطلقهم في انشاء حضارة مشتركة هي لنا ولهم ، للجميع وللتاريخ . ونحن لانستبعد التواجد السلمي بيننا وبينهم . الامر على العكس . وانما عليهم أن يتحرروا سلفاً من النير الاستعماري ومن التواطؤ مع اربابه .

ان الذي بوضع موضع بحث الآن ، هو التاريخ العربي بوصفه حدثاً كلياً ، هو موقعنا من الوجود ، وموقع الوحدات الحضارية التي تعيش بيننا . واقصد بكلمة «موضع بحث » انه علينا ، نحن العرب ، اما أن نتخلى عن تاريخنا الذي هو وجودنا ، واما أن

فستعيد سيطرتنا عليه بحيث نأخذ زمام «المبادهة» في انشائه لخيرنا ولخير الذين يرضون بالعيش معنا .

هذا الفعل الحر ، اسميته مبادهة ، هو القراءة الحوادثية أو الرؤية . قراءة هي انشاء : ما تقرأ هو علامات المستقبل،ما تنشىء هو تحقيق هذه العلامات في الواقع المباشر.

ان الرؤى هي القدرة على الابصار والتبصر ، لا الكشف عن اسرار لاتدري ماهي، ولا هي اختطاف روحاني لايمت بصلة الى الواقع الجماعي المعاش . فالانسان ابن مرحلته التاريخية لايمكنه أن يتخطاها . وقديماً قال شاعرنا :

ولو طار جبريل بقية عمره في الدهر   لما استطاع الخروج من الدهر

لاخوارق ولا اعجاز ، فغير العادي في العادي ، وغير الملموس في الملموس .

لاصخب ولا تشدق بالكلمات الفضفاضة ، فالرؤى الكبيرة بصيرة هادئة كأعماق البحر . يقول نيتشه : « تحمل معها العواصف أكثر الكلمات هدوءاً . والعالم توجهه الأفكار التي تأتي كما على قدمي حمامة » (٦٤) فالثورة التي لاتندرج في سياق الحياة اليومية ، تبقى إما كلاماً فارغاً ، واما مغامرة فردية ، غدها يومها .

ان قراءتنا هذه ، نصها التاريخ ، ومعه تتحد لأنها مكونة التاريخية . هذه القراءة ذات الجاهين – الماضي والمستقبل – يلتقيان في نقطة – الحاضر – دوماً في حالة انزلاق، ولكن ، اذا ماعشنا هذه النقطة – اللحظة ، بملئها وجودنا ، ندرك أنها موطن الفعل المسؤول والقرار الحر ، يجيب عن السؤال الحاسم : اما .. اما ... اما التخلي عن الذات وأما تجميعها وقذفها الى الامام، هو السابق آتيا . (٦٥)

أقول معقباً : ان الشعر الفلسطيني لا يقرأ ،لأنه ، هو نفسه ، قراءة ؛ مايقرأ هو مايبشر به ، مايبشر به هو عودة الذاكرة العربية وبعثها .

بشارة وحسب ، بدء بشارة ، بدء طريق ، بداية شعر .

انما الامور بداياتها .

الطريق هو مايلي ، على كل منا – فرداً وجماعة – أن يقرر ما اذا كان على أهبة سلوكها ودفع الثمن أم لا .

---

(٦٤) « هكذا تكلم زرادشت » ، القسم الثاني بعنوان : «الساعة الأكثرهدوءاً»

(٦٥) راجع ملاحظات اوغسطين عن الزمـــان والذاكرة في « الاعترافات » الكتابان (١٠) و (١١) بخاصة الاول ،الفقرات ١٢–١٧ وما يلي .

فالثورة والشعر وجهان لواقع واحد .

★ ★ ★

ان الشعر الفلسطيني محق بمعنى ما ، في ادانته للقاموس . فدائرة المعارف هذه – بالاحرى هذه السلسلة من دوائر المعارف المتكاملة – اذ أحصت العربي في مختلف المجالات، ووضعت خلاصته شبه المنسقة ، انهته ، اي وصلت به الى منتهاه ، بحيث ادرك مرحلة الكمال ، ولم يعد بوسعه ان يتجدد ، الا بتطور ذاتي .

فهل توضع الخمر الجديدة في الدن القديم ؟

تلك هي المسألة التي يطرحها على ذاته الادب العربي اليوم .

ولكن من جهة اخرى ليس بوسع الانسان ان يخرج سالماً معاً في من معركة غير متكافئة . فالقاموس جسد العربي ، لحمه ودمه . والجسد قاهر قاس ، لايلين للروح الا اذا خضعت لرغباته ومتطلباته كافة .

اذا طرحنا المسألة على هذا النحو فمن مسألتين مثلاً : اما أن نستسلم أو نرفض . نستسلم فالواقع تلاشيه المطلب . نرفض فهو الفراغ ، وما هو النموذج الأجنبي ، غير المتمثل ، والذي لايمكن إلا أن يكون كذلك ، هو الذي يحتل الساحة .

ان تقلد هذا أو ذاك ، تلك هي الثنائية التي يتعثر فيها أدبنا ، أسوءها ثنائية الرجعية والتقدمية . اسم ، ان دل ، فهو يدل على مأزق أكثر مما يدل على اختيار حر .

في هذا المجال لاخط وسط ، ولا نموذج يحتذى ، بل تخط بنسبته يتلاشى الاحراج

هل أدرك الشعر الفلسطيني هذا المرمى ؟

لا أعتقد..

انه يحمل أوزار الادب العربي المعاصر كلها؛ اذ إنه بالنتيجة أدب عربي ، له مالأدبنا وعليه ماعليه . وهو لحد بعيد ، تابع للرياح التي تعصف به من خارج الارض المحتلة،وان كان بعض كبار ممثليه ، مقيمين ، كل منهم ، في عاصمة من عواصم دولنا .

ومع ذلك فثمة بوادر بعثتأتينا من قلبفلسطين ، من أعمق أعماق مأساتهاوتاريخها الذي هو تاريخنا ، بوادر سمعناها ، نسمعها ، ونستجيب لها . ولكننا لم نعها بعد بوعي عقلي لنتميز حقيقتها ، ونسير حقاً في الدرب الذي تشق .

قلت ان الشعر الفلسطيني استعاد ، والأصح اكتشف أسلوب تعبيرنا الاول . وهو أسلوب إذ اربكني عند تحديده ، أطلقت عليه أسماً حائراً بين القصة والإخبار ، بين السرد والرواية لأن أجدادنا عاشوه أكثر مما عقلوه . ولكن لوكان الامر هـــذا

وحسب ، لما كان الكشف جديراً بالاهتمام . فمن البديهي ان لكل عصر طريقته في التعبير، متى زال زالت .

الحقيقة ان الشعر الفلسطيني اكتشف منابع الشاعرية ، حيث حيث الواقع يبدع ذاته لسانا ، فالاثنان واحد . اكتشفه لأنه كان مخلصاً لدرب آلامه . وبهذا طهر الادب العربي لحد كبير ، من الأثم – لا أثم سواه في الادب – الذي لازمه منذ عصر الانحطاط وربما منذ عصر المتنبي ، الا وهو اللفظية تدفن الواقع وتنثر على قبره الازاهير.

اجل اكتشف واخبر ، فإخباره ليس نوعاً أدبياً ، بل هو ذكر و « الذكر ينفع المؤمنين » .

ذلك ان شعر الأرض المحتلة ليس من صنع هذا الشاعر أو ذاك ، لايعكس هذا الواقع أو ذلك . وانما هو صوت شعب أصيل أجبره الموت المحتم على الرجوع الى أصالته التي هي طريق خلاصه ، فنادى وكان مخلصاً لندائه .

أفكان الشعراء ، كل منهم بصفته الفردية ، مخلصين لخط الشعب ؟... المسألة فيها نظر . ففي العديد مما كتبوا ، قلدوا وقلدوا ، حتى قيل بشأنهم « هذه بضاعتنا ردت الينا » .

ونحن أيضاً لم نكن مخلصين حقاً للثورة التي بدأت هناك .

ومع ذلك فثمة بدء ، ثمة طريق .

والبعث بدايات ، وطريق نسلكها فلا عودة .

بدء وطريق أحدهما في حب الأرض ، في هواها ، في محنتها . موقف فيه من البراءة والمجانية مايحمل بذور ثورة عربية شاملة ، شعراً وفعلاً .

البراءة وحدها تطهر ،

العطاء وحده يسوغ ،

كلاهما ، بنسبة أمانته لذاته ، يؤسس .

فكما ان « الزهرة دون لماذا » ، « تزهر لأنها تزهر » كذلك الحياة ، عندما يعيشها المرء شعراً وشهادة ، فللشيء معقوليتها ، وفيها أساس العقل والمعقولية .

مناقشات وآراء وهوامش

تقديم : عادل أبو شنب

الشعر الحديث ..
بشكل حُجُب وتعاويذ

• قبل أن يؤمن الناس بالطب والأطباء .. كانوا يؤمنون بالسحر والتنجيم ، وكانوا يلجؤون الى الكهان للاستشفاء ، وكان الكهان يكتبون تعاويذهم الشافية بأحرف كبيرة أو صغيرة، وفي خطوط متداخلة ودوائر يدخل بعضها في البعض الآخر .. تصرّ في حجب، وتوضع داخل الثياب للبركة.

في هذا الزمن .. يستفيد الشعر من الحجب المذكورة ، ففي مجلة «الطريق»-العدد الثالث — آذار ١٩٧٤ قصيدة لمحمد عيتاني عنوانها « طريق المرايا » كتبت بوحي من هذه الحجب، وباستئناس بالفن التشكيلي . الكلمات دوائر أو خطوط منحنية أو أقواس

أو اسطر مائلة متداخلة . هل هي آخر صيحة في عالم تطوير صنعة كتابة الشعر ؟ أم هي نوع من لفت النظر ؟ أم هي ..

ويقولون ان علم الفولكلور .. غير مجد !

لماذا باع نسخة
من كتاب « صفحات مجهولة » ؟

● اذا كان كتاب « صفحات مجهولة في تاريخ القصة السورية » أدخل في باب الأرشيف ، فأي عيب في هذا ، وهل توفر لأحد مادة مماثلة ، استطاع معها أن يصيرها كتاباً ، وهل يقدر عادل محمود - صاحب الملاحظة في عدد من أعداد مجلة « جيش الشعب » - أن يجمع ماجمع عادل أبوشنب في كتابه المذكور ، بل هل يقدر أن يعدّ نفسه مثل هذا الاعداد ، ويتصدى لهذا الموضوع مثلما تصدى ، ولم يتصد له من قبل سوى الاستاذ شاكر مصطفى وعدنان الذهبي ، ارشفة كان التصدي او دراسة ؟

المصيبة أن اتحاد الكتاب العرب كلف عادل أبو شنب وخلدون الشمعة بقراءة ماسماه عادل محمود مجموعته القصصية الاولى ، فلم يجدا فيها أكثر من ريبورتاجات صحفية مكتوبة على عجل . فكان من نتائج ذلك ان الاتحاد رفض نشره ، الأمر الذي أوجد عادل محمود وجعله يتحين الفرصة ليرد الصاع صاعين لخلدون وعادل ، وهو مافعله في ملاحظته على كتاب « صفحات مجهولة » الذي لم يقرأه على مايبدو .

والأمر ، في الحق ، ليس بذي شأن كبير ، فكم من كتاب جاد يمر الآن في حياتنا الثقافية داخل القطر دون أن يمسه أحد بخير أو بشر ، في حين يرحب كتاب خارج القطر به وبمؤلفه ، وهو ماجرى مع عادل ابو شنب بالذات . واذا كان عادل محمود قد باع النسخة من كتاب « صفحات مجهولة » وهي التي أخذها مجاناً من أحد الصحفيين.. بأقل من ثمنها بنصف ليرة .. فليحمد عادل ابو شنب ربه أن وجد من يشتري كتابه . حتى ولو كان أقل من ثمنه الاصلي ، لأن كتاباً لمؤلفه عادل محمود ، يضم ماسماه ظلماً مجموعة قصص ، ليست هي أكثر من ريبورتاجات صحفية ، كتبت على عجل ، لن يجد من يشتريه ويقرؤه .. مجاناً !

الصوت الخفيض
في مهرجان المربد الشعري

• أفردت جريدة « المحرر » البنانية في صفحاتها الثقافية أعمدة طويلة .. تحدث فيها اعضاء الوفد اللبناني الى مهرجان المربد الشعري الذي أقيم في البصرة في الشهر الماضي عن فحولتهم الشعرية وفتوحاتهم في هذا الميدان .

لقد اشاد هؤلاء بما حققوه في المهرجان وعابوا على أعضاء الوفود الاخرى تقصيرهم ، ولم يذكروا الوفد العربي السوري بشيء قليل أو كثير .

والشهادة لله وحده .. أن صوت الشعراء اللبنانيين في المربد كان الصوت الخفيض في حين أن الشعراء السوريين : سليمان العيسى ، علي الجندي ، شوقي بغدادي ، ممدوح عدوان .. كان الصوت الافضل والاعلى ، وكانت قصائدهم أكثر ما في مهرجان المربد حرارة وتعاملا مع الجمهور . لقد كان حضور الوفد العربي السوري في المربد حضوراً ملموساً .. فلماذا اطفأ اللبنانيون الجذوة الشعرية العربية السورية ، ولماذا لم يقولوا الحقيقة .. بموضوعية ؟

خربشات بالحبر الاحمر
بعد وقف اطلاق النار

• ألقى الشاعر خالد محي الدين البرادعي في المربد قصيدة بهذا العنوان ، فصب الدكتور عناد غزوان جام غضبه على الشاعر وعلى القصيدة ، وأقل ما قاله : القصيدة بائسة .

ليعذرنا الدكتور عناد غزوان إن قلنا له إن الشعر الحديث ، عامة ، على ضوء تقييمه النقدي في جلسة النقد التي أعلن فيها رأيه ، بائس هو الآخر .. وليعذرنا مرة أخرى إن قلنا له إن الشعر الحديث بطموحه الى تجاوز جميع التقليديات المعروفة حتى الآن .. مبرر له أن يكون بالشكل الذي ظهر فيه في قصيدة البرادعي ، ما دام هذا الشعر قد وصل الى ما يسمى مرحلة « الشعر المستمر » الذي يبيح لك أن تقرأ القصيدة من أولها أو من آخرها أو من وسطها ، وربما من آخر السطر الى أوله .. كل الشعر الحديث .. يحتاج إلى روية أكثر أثناء تقييمه ، والا لكان النقد أكثر بؤساً من الشعر نفسه !

الدكتور احسان عباس
والشعر العربي الحديث

• قال الدكتور احسان عباس في محاضرته « اسقاطات التراث على الأدب العربي الحديث » التي أقيمت في المركز الثقافي العربي ، بدعوة من اتحاد الكتاب ووزارة الثقافة ، قال : « ان الشاعر العربي الحديث لم يستطع أن يخلق أسطورته ، في حين أن الشاعر العربي القديم قد فعل ذلك » .

وأثناء حواره مع الحضور قال الدكتور احسان عباس ان الشعر العربي الحديث، بطموحاته ، وتوظيفاته اللغوية ، يسير في طريق الفوضى .. وان النماذج التي بين أيدينا منه ، لم تستطع أن تكوّن ما يمكن أن يسمى وحدة في المنظور الشعري .

ابو خليل القباني
اخيراً على المسرح

• .. عرضت أخيراً مسرحية « سهرة مع أبي خليل القباني » التي كتبها سعدالله ونوس . باخراج طموح من أسعد فضة . والسؤال الأول الذي يطرح نفسه هو : هل المقصود من المسرحية السيرة الذاتية لأبي خليل القباني أم الحقبة التاريخية ؟ إن النص ، في الحق ، يضيع بين هذين المنحيين ، بالاضافة الى عدم وضوح ومتانة شخصية القباني بالقياس الى وضوح ومتانة الشخصيات الأخرى ، خاصة المناوئة له !

ثم .. ان الادعاء بان عصر أبي خليل القباني كان عصر المطالبة بالاستقلال ، وبزوغ القومية العربية ادعاء في غير محله والشواهد التاريخية تدل على أن الدعوات التي كانت سائدة وقتئذ .. كانت تنحصر في المطالب الاصلاحية داخل اطار السلطنة ؟

وهذا يعني أن على سعد الله ونوس أن يكتب مسرحية أخرى بشخصيات تاريخية أخرى ، إذا كان يريد حقاً أن يقول ما قاله !!

أغلب الظن أن سعدالله ونوس سيكرر المحاولة لأن مسرحية « سهرة مع بريشت » التي كتب ناقد في صفحة البعث الثقافية أنها أوحت لسعدالله بكتابة مسرحيته كانت فعلاً سهرة مع بريشت والنتاجه .

لغة المسرح العربي

• في المهرجان المسرحي الذي ينظم في المغرب تعرض مشكلة لغة المسرح . من الخليج الى المحيط تعرض أزيد من عشر مسرحيات اكثرها باللهجات العربية المحلية .

وفي مثل هذه المهرجان نجد أنفسنا أمام المشكلة الدائمة : الفصحى أم العامية ؟ لا أريد أن أناقش الموضوع من الوجهة النظرية فقد دأب المسرحيون وحق كتاب الروايات والقصص على مناقشته ، ولكني أود أن أعرض من الوجهة العملية :

يجب أن نختار بين أن نؤسس مسرحاً خاصاً لكل بلد عربي أو مسرحاً للوطن العربي؟بل يجب أن نختار بين أن نؤسس مسرحاً للمدينة وللحارة أم مسرحاً للبلادالعربية تتضافر فيه الجهود من الخليج الى المحيط لتنهض بالمسرح العربي وتسير به في طريق المسرح العالمي ؟

مع الاختيار تنهض عدة مشاكل لا أقل من اهميتها ، ولكني اعالج منها الآن لغة المسرح .

حضرت وفود الدول العربية المسرحية الاولى في المهرجان ولم تكد المسرحية الطويلة جداً جداً تأخذ من عمرها الدقائق الخمس الاولى حتى بدا الضيق والضجر على كثير من الوفود التي وجدت نفسها كمن يحضر مسرحية صينية في بلاد لم تسمع قط باللغة الصينية .. وكانت المجاملة طبعاً عاملاً مهماً في استمرار الوفود العربية مشدودة الى مقاعدها رغم الضجر . وما كاد الفصل ينتهي حتى غادرت معظم الوفود المسرح ، واستمرت المسرحية في فصلها الثاني الطويل جداً جدا .. وثلثا مقاعد المسرح فارغة . وأظن أن المشكلة ستبدو واضحة في كل العروض المسرحية والنتيجة ان كل مطرب يغني لحيه . ولا فائدة من مهرجان لاتطرب فيه كل الاحياء .

لو كانت مسرحية « القوق في الصندوق » (والعنوان أول مشكلة) مثلت بلغة عربية مبسطة لما ظلت مسرحية لعشاق الجواري والدروب وخصومات الحمام . حتى اللغة كانت ستفرض مستوى أرقى مما شاهدناه ، ولظل المشاهدون في اماكنهم ، على الأقل ليحكموا على نتيجة عمل فني أو قدم ليكون عملا فنياً يفتتح به مهرجان عربي للمسرح .

كل الاعتراضات التي يمكن أن يتحدث بها أنصار العامية قائمة في ذهني وأنا أتجاوزها

لاؤكد : أننا يجب أن نختار قبل أن ننظم مهرجاناً من هذا النوع ، بل قبل أن نفكر في خلق مسرح عربي ، ويجب أن نختار بين نقل الكلمات واللغة من لسان الابطال الذين يشخصهم الممثلون على المسرح وبين خلق فن رفيع يؤدى بلغة مفهومة مشتركة بين ١٢٠ مليون عربي .

لنزح عن أذهاننا قضية اسمها اللغة ولنجهر باختيارنا والسؤال مطروح على رؤساء الوفود العربية جميعها .

عن « العلم » المغربية - ٨ آذار ١٩٧٤

الصهيونية تعتبر شكسبير مناوئاً للسامية

● هاجمت « بناي بريث » - احدى أكبر واغنى المنظمات الصهيونية في اميركا - شكسبير واعتبرته واحداً من مناوئي السامية ، لأن « اميركان برود كاستنغ كومباني » تستعد لعرض مسرحيته « تاجر البندقية » في التلفزيون ، ولأن شكسبير لم يهتم «باظهار شايلوك أقل شناعة واكثر ذمة » !!

« نوفوستي »

التضامن العربي ضد المكائد الامبريالية

● ان قرار الدورة الحادية عشرة لمجلس منظمة التضامن الافرو - اسيوي حول الشرق الادنى لايعرب فقط عن الدعم للكفاح التحرري الذي يخوضه الشعب العربي ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية بل يطالب أيضاً بجلاء كامل وغير مشروط للقوات الاسرائيلية عن جميع الاراضي العربية المحتلة وكذلك بالاعتراف بالحقوق المشروعة لشعب فلسطين العربي . ويشير القرار الى ضرورة تعزيز التضامن فيما بين البلدان والشعوب العربية ذاتها وكذلك تضامن العرب مع القوى الاخرى لحركة التحرر الوطني ، مع البلدان الاشتراكية ، وخاصة مع الاتحاد السوفييتي .

وتعليقاً على هذا الجزء من القرار الخاص بالشرق الادنى ، يشير المراقبون خاصة الى الخطر الفعلي تماماً الكامن في استفادة القوى الامبريالية ، في سبيل اغراضها ، من أية ثغرة داخل الجبهة العربية ، جبهة التضامن والوحدة المعادية للامبريالية والمعادية للصهيونية . ان خطر المكائد الامبريالية في الشرق الادنى ، الذي تحاول الامبريالية

اخفاءه الآن بالستار الدخاني للاسهام البناء المزعوم في تسوية نزاع الشرق الادنى ، يتمثل حسب رأي المراقبين ، في كون هذه المكائد انما هدفها تفرقة الصفوف العربية ، والابقاء على احتلال اسرائيل للاراضي العربية ، وتجميد قرارات مجلس الامن حول الشرق الادنى .

وللاسف ، افلحت القوى الامبريالية في الحصول على شيء ما في تحقيق اهدافها المعادية للعرب . فان المماطلة لعدة اشهر بفصل القوات في سيناء ، وتشديد العسكريين الاسرائيليين للاعمال الحربية ضد سورية ، قد حولا الخطوة الاولى في تسوية نزاع الشرق الادنى (كما كان ينظر اصلا الى فصل القوات) الى نوع من « مرحلة في التسوية الجزئية» مفيدة لاسرائيل اكثر مما هي مفيدة للعرب . وفي الوقت ذاته ، وليس بدون جهود القوى الامبريالية ، احبط الاتجاه الموحد لدى العرب الى فرض العقوبات ذات الطابع الاقتصادي على الذين يساندون مطامع تل ابيب العدوانية . اذن ثمة خطان لهجوم الامبريالية على العالم العربي : الخط الخارجي الموجه ضد الجبهة الموحدة للدول العربية ، والخط الداخلي الموجه نحو اعادة النظر في نتائج الثورات العربية في هذا البلد العربي او ذاك . وكل ذلك تأخذه بعين الاعتبار الصهيونية العالمية التي تستفيد من اي انحراف عن سياسة مناهضة للامبريالية .

لقد صار ، مثلاً ، موقف تل أبيب من تسوية قضية الشرق الأدنى أصلب بكثير مما كان عليه في تشرين الثاني وكانون الاول الماضيين . فالحكام الاسرائيليون يتحدثون بشكل مكشوف عن مطامعهم في الأراضي السورية والاردنية التي تحتلها القوات الاسرائيلية ، غير غافلين عن تركيز « اهتمامهم » على بعض الأراضي في سيناء التي « يرونها » أيضاً ضمن حدود دولة اسرائيل وإذ يؤجج المعتدون الاسرائيليون لهيب العمليات العسكرية في الجولان ، لايقومون فقط باعادة تنظيم القوات على طول خط وقف اطلاق النار مع سورية ، بل ينقلون أيضاً الى هناك وحدات جديدة من المناطق الأخرى في البلاد دون ان يشعروا ، كما يبدو ، بأي خوف على سلامة القطاعات الأخرى من خط وقف اطلاق النار . وهذا يشهد مره أخرى على أن أية ثغرة داخل جبهة الدول العربية الموحدة المعادية للامبريالية يستخدمها على الفور اعداؤها .

ان تدعيم الوحدة العربية ، وتضامن الشعوب العربية مع أصدقائها الأوفياء في المعسكر الاشتراكي وخاصة مع الاتحاد السوفييتي ، هما اليوم المهمة الرئيسية لجميع من

يهمهم أن تتحرر الاراضي العربية من الاحتلال الاسرائيلي ، وأن يعاد السلام والعدل في الشرق الأدنى . وكل تنازل سياسي أو اقتصادي صادر عن العرب ، الى القوى الامبريالية قد أدى دائماً ويؤدي دائماً الى التعزيز العسكري لألد أعداء العرب ألا وهو دولة اسرائيل العدوانية .

ج . سافين – توفوستي

١٨/٤/١٩٧٤

رسالة الى المعرفة

● عزيزي رئيس التحرير

قرأت أمس في عدد « المعرفة » الاخير ، العدد ١٤٦ ، الصورة التحريرية للمقابلة الشفهية التي أجريتها معي في دمشق منذ شهور ، ففوجئت باشياء كثيرة مما ورد في تلك المقابلة على لساني . صحيح ان الاجابات في المقابلة هي اجاباتي ، وصحيح اني المسؤول عن التفكك الظاهر في كلامي الذي كنت أرد به بصورة عفوية ، دون تصنع أو تنميق ، على استفهاماتك . ولكن هذا الخلط في الاسماء والمسميات ، وتلك الاخطاء الشنيعة في الاستشهادات ، وذلك القلب للمعاني الناجم عن ابدال الفاظي بالفاظ أخرى ليست مني قطعاً . ستقول إننا ، كلينا ، نعرف سبب الاضطراب الذي طرأ على كتابة هذه المقابلة ، لقد أدرنا هذا الحوار بيننا شفاهاً أمام آلة تسجيل ولم نكتبه كتابة ، ثم أفرغ شريط التسجيل كتابة على الورق من قِبَلِ من لم يكن حاضراً المقابلة ومن لم يعرضها علينا قبل طباعتها في المجلة . ومن هنا جاءت الاخطاء والتشويهات . هذا أمر تعرفه انت وأنا ، ولكن الذي قرأوا المقابلة في المعرفة لايدرون منه شيئاً ، فكيف يكون رأيهم في من وردت تلك الاخطاء والتشويهات على لسانه ؟

هل أعدّد لك ، ولقراء المعرفة ، مانقله مفرّغ الشريط المسجل وكتبه على لساني؟ اليك هذه الأمثلة :

ورد في عدد المعرفة المذكور ، في الصحيفة ١٤٠ ، على لساني هـذا القول : « الواقع أنني على تعلقي بقوميتي ، وحبي لقومي ، لست شريراً ... ليس لي التعصب الشريري ضد الناس ... » . من يقرأ هذا الكلام يعتقد بأني أرى التعلق بالقومية صفة من صفات الاشرار مبدئياً . والصحيح أن نصّ كلامي الذي قلتـه كان هذا : « اني على

تعليقي بقوميتي لست شوفيلياً ...وليس لي التعصب الشوفيني ...»وشتان بين الكلامين.

وقبل ذلك ، وفي الصحيفة ١٣٩ ، نقلت المقابلة على لساني اني استشهدت بهذا البيت:

والشيخ لا يترك عاداته حتى يوارى في مزار مثله !

ولا أدري من أين جاء المفرغ بهذا التشويه الفاضح لعجز بيت مشهور هو في الصحيح :

والشيخ لا يترك عاداته حتى يوارى في ثرى رمسه...

كأنه لم يسمع بأن هذا البيت قتل قائله صالح بن عبد القدوس . فقد حمل صالح هذا الى الخليفة المهدي متهماً بالزندقة ، فقال : كنت زنديقاً وتبت . قال المهدي : كيف، وأنت القائل ، والشيخ لا يترك عاداته الخ ... ياغلام اضرب عنقه ! ففعل الغلام ، وتدهده رأس الشاعر الزنديق على النطع .

وغير هذا وذاك زعمت المقابلة كما هي منشورة اني قلت ان جامعة مونستر تقع في اوسترالية ، وهي في الحقيقة في المانيا . وان رئيس دائرة الاستشراق في تلك الجامعة هو هنسبير ، بينما هو في الواقع البروفيسور هانس فير . وكررت نسبة قصة لي باسم قصة « سالم » ، في حين ان اسم القصة هو « سالي » . وحورت عجز البيت المشهور :

أطوّف ما أطوّف ثم آوي الى بيت قعيدته لكاع

فجعلته ، قاعدته لكاعي ..

وأشياء كثيرة أخرى سببها نقل الكلام مغلوطاً عن الشريط المسجل . أما عن التنقيط الذي تبرع به مفرغ الشريط من عنده ففصل به بين كلماتي أو الجمل التي نطقت بها فقد لعب في تفكيك اقوالي وتغيير مرادي فيها لعباً كبيراً . أكبر الظن ان اخانا المفرغ لم يقدر ان للفاصلة أو النقطة البسيطة كبير أثر في الكلام . أتراه نسي ان نقطة في غير محلها اورت النار في أكبر فتنة في الاسلام ؟ ففي احدى الروايات عن مقتل عثمان ابن عفان انه ارضى وفد المصريين الثائرين عليه بأن ولى عليهم محمداً بن أبي بكر مكان عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، ولكن الوفد لقي في عودته غلاماً لعثمان يحمل كتاباً الى اهل مصر فيه : اذا جاءكم اميركم فاقبلوه .. ولم تكن الكتابة العربية منقطة في تلك الايام ، فقرأها الوفد ، فاقتلوه ، ناقلا التنقيط من تحت الحرف الى فوقه . حينئذ عاد وفد مصر الى الثورة ، وقفل راجعاً الى المدينة مؤلباً الناس على عثمان حتى قتل ،

فكانت الفتنة الكبرى التي كانت اول صدع في الاسلام واخطره . وحكاية اخرى عن خطر النقطة جاءت في الأغاني . ففي ترجمة الدلال ، وهو مغن ظريف من مغني الحجاز ، ان سليمان بن عبد الملك كتب الى واليه على المدينة ابن حزم أن انظر الى المغنين عندك فاحصهم . ولما لم يكن التنقيط آنذاك شائعاً في الكتابة ، فقد قرأ ابن حزم الحاء خاء ، وبدلاً من أن يقوم باحصاء عدد المغنين في البلد قام فخصاهم ! فتأمل ماذا فعلت نقطة على حرف مرة وأخرى ...

وبعد يا عزيزي رئيس التحرير ... كم أود لو نشرت كلمتي هذه في عدد مجلتك المقبل ، ليصحح قراؤك رأيهم الذي كونوه عني بعد قراءة تلك المقابلة . فهم غير ملومين ، بغير هذا التصحيح ، اذا نسبوا الي من خلال قراءتهم للمقابلة الجهل بالجغرافيا حيناً ، وغلط الاملاء حيناً آخر ، وايراد الابيات الشعرية المشهورة مغلوطة ومكسورة أحياناً أخرى .

ولك ، على كل حال ، كل الشكر .

الرقة في ٦ آذار ١٩٧٤

عبد السلام العجيلي

صديقي الكريم الدكتور عبد السلام العجيلي :

أنا مدين لك — بعد التحية — بالاعتذار . فقد قمت فعلاً بتبييض المحاورة قبل أن أسافر الى القاهرة وطرابلس — غير أنني ، وأنا في عجلة السفر ، أرسلت المسودة الى المطبعة ، وحين عدت وجدت أن القضاء قد حم !!

وأنا في حيرة من أمري ، أخطأت مرتين : معك أيها الكاتب الكبير ، ومع « المعرفة » الحبيبة . إني أعتذر مرة أخرى ، وأعدك بألا أعود لمثلها أبداً ، ولو على سفر .

محي الدين صبحي